أوربا العصور الوسطى

الجزء الثاني

النظم والحضارة

تأليف

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب — جامعة القاهرة

١٩٥٩

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى بالقاهرة

الباب الأول

النظم الدينية

البابوية ونظمها :

من الثابت أن الفوارق التي يعرفها العالم الحديث بين السلطتين الزمنية والدينية لم يكن لها وجود في أوربا العصور الوسطى . فالناس في تلك العصور لم يعتبروا الكنيسة والدولة هيئتين متعارضتين ، لأنهم لم يعرفوا سوى مجتمع سياسي واحد ، هو المجتمع المسيحي . حقيقة إن هناك قوتين أو سلطتين تتوليان حكم هذا المجتمع ، ولكنهما كانتا تحكمان مجموعة واحده من الناس يربطهم جميعا رباط المسيحية الغربية[١] .

ونجد خير مصداق لهذه الفكرة فيما كانت عليه البابوية في العصور الوسطى ، ذلك أن الكنيسة الغربية وجدت في جمع شملها وتركيز إدارتها تحت زعامة البابوية خير وسيلة لتحقيق رغبتها في السمو[٢] . وهكذا أصبح البابا رأس الكنيسة الكاثوليكية ، ومصدر ولايتها والحارس الأول على قوانينها ونظمها وعقائدها . ومعلم أتباعها المعصوم من الخطأ . هذا فضلا عن كون البابا نائب المسيح ، لأنه يستمد سلطته من تعيين المسيح له مباشرة . فالبابا خليفة القديس بطرس في كرسيه الأسقفي بروما ، وهذا الأخير زعيم الحواريين ومقدم الرسل الذي اتخذه المسيح أساسا بنى عليه كنيسته[٣] . وبعبارة أخرى فإن البابوية وجدت سندا قويا في قول

---

(1) Eyre : European Civilisation; p. p. 201 - 202 .
(2) Powicke : The Legacy of the Middle Ages; p. 48.
(3) Howell-Smith : Thou Art Peter ; p. 581.

المسيح للقديس بطرس « وأنا أقول لك أيضا أنت بطرس ، وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي ، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا في السموات ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا في السموات[1]! » .

لذلك لا عجب أن أصبح البابا — وهو خليفة القديس بطرس — رأس الجهاز السياسي في أوربا العصور الوسطى ، حتى اعتبره المعاصرون ملك الملوك وأمير الأمراء . ومن هنا أخذت البابوية تنظم سيادتها على أسس أقطاعية فعالة ، مما جعل التطابق محكما بين الكنيسة والجهاز السياسي في غرب أوربا . وقد سبق أن أشرنا إلى نمو البابوية في أوائل العصور الوسطى[2]، حتى جاء سقوط الإمبراطورية الغربية في القرن الخامس ليجعل منها القوة الوحيدة في غرب أوربا التي تستطيع حماية التراث الروماني وسط الفوضى التي عمت أوربا حينئذ . ذلك أن البابا جريجوري الأول أو العظيم (٥٩٠ — ٦٠٤) أخذ يعمل على تقوية نفوذ البابوية السياسي ، ويجعل هذا النفوذ حقيقة ملموسة في مختلف بلاد الغرب بل الشرق المسيحي[3] . وقد تجمعت عدة عوامل لتساعد البابوية على الاستمرار في تنفيذ هذه السياسة ، أهمها الظروف التي سادت إيطاليا من جهة ، وانصراف الامبراطورية البيزنطية إلى مشاكلها الشرقية من جهة أخرى ، مما جعل عبء حماية إيطاليا وحضارتها يقع على كاهل البابوية وحدها[4] . ثم جاء الانشقاق المذهبي والسياسي بين الشرق والغرب ، وهو الانشقاق الذي بدت مظاهره واضحة في الجدل حول مشكلة اللاإيقونية ، وفي التفاف الشعوب الغربية تدريجيا حول البابوية لتقف موقفا سياسيا مضادا للإمبراطورية الشرقية ، ثم في إحياء الامبراطورية الغربية

(١) إنجيل متى — الإصحاح السادس عشر ، ١٨ — ١٩ .

(٢) أنظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٤٢ — ٤٦ .

(3) Ullmann : The Growth of Papal Government : p. p. 36-40.

(4) Eyre : op. cit., 202.

على عهد شارلمان . وسرعان ما اتضح مرة أخرى فى العصر المظلم الذى أعقب تقسيم امبراطورية شارلمان أن بقاء الحضارة الغربية واستمرارها بات متوقفا على الإصلاح الكنسى ، وأن هذا الإصلاح يتوقف بدوره على قيام سلطة كنسية مركزية قوية تستطيع الصمود فى وجه السلطة الزمنية ومناضلتها من أجل الاعتراف بسمو الكنيسة وسيادتها[1] . وهكذا بلغت الكنيسة مرحلة حاسمة فى تاريخها فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر ، وهو العصر الذى يعرف بعصر البابا جريجورى السابع، أعظم بابوات العصور الوسطى (١٠٧٣ — ١٠٨٥) . ذلك أن جريجورى السابع وقف من الإمبراطورية موقفا عنيدا لاجبارها على الاعتراف بسمو البابوية و بأن هذه البابوية مصدر جميع السلطات السياسية والدينية[2] .

وقد أدت هذه السياسة — كما رأينا — إلى دخول البابوية فى صراع طويل ضد السلطة الزمنية[3] . وفى هذا الصراع استعمل جريجورى السابع سلاحين روحيين على جانب كبير من الخطورة . حقيقة إن هذين السلاحين لم يكونا جديدين على الكنيسة ، ولكن جريجورى السابع استخدمهما فى عنف وقوة وبطريقة فعالة . أما السلاح الأول فهو توقيع عقوبة الحرمان (القطع — الشلح) بطريقة فردية شخصية ، أى ضد فرد معين مقصود بالذات (Excommunication)؛ وعندئذ يصبح هذا الشخص منبوذا مطرودا من المجتمع المسيحى (societas christiana) ، فلا يسمح لأحد بالاقتراب منه أو التعامل معه سوى زوجته وأولاده[4] . وأما السلاح الثانى فهو عقوبة الحرمان الإجتماعى (Interdict) التى توقع على مجتمع بأكمله ، سواء كان هذا المجتمع مدينة أو إقليما أو مملكة بأسرها ؛ وفى هذه الحالة تغلق الكنائس أبوابها فى ذلك المجتمع ويضرب رجالها عن تأدية

(1) Idem ; p. 207.

(2) Cam, Med. Hist ., vol. 6: p. p. 650-651.

(٣) أنظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٣١٨ وما بعدها .

(4) Ullmann : The Growth of Papal Government : p. p. 299 - 300.

أعمالهم فلا يجد الناس أحدا يقضى مصالحم المرتبطة بالكنيسة كمراسيم التعميد والزواج والشعائر الجنائزية ، فضلا عن انقطاع الروابط التى تربط ذلك المجتمع ببقية العالم المسيحى (١) .

ولم يلبث نجاح هلدبراند فى برنامجه الإصلاحى أن أدى إلى تحقيق أغراض البابوية فى الهيمنة على الكنيسة الغربية (٢) ، بحيث أن المهمة الرئيسية للبابوية بعد هذا النجاح انحصرت فى تنظيم شئون البابوية والكنيسة جميعا ؛ حتى وصف تاريخ البابوية فيما بين منتصف القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثالث عشر بأنه «عملية لتحقيق الارتباط والنظام والسيطرة المركزية داخل الكنيسة» . وبعبارة أخرى فإن جهاد الكنيسة فى سبيل تحقيق سموها جاء مصحوبا بحركة أخرى داخلية ترمى إلى تدعيم مركز البابا ونفوذه داخل الكنيسة . وكان لهذا الاتجاه الأخير عدة مظاهر أساسية أولها اصرار البابوية على مكانتها الخاصة داخل الجهاز الكنسى بوصفها المرجع الوحيد فى شرح أصول العقيدة ، وثانيها نمو التنظيم الكنسى الإقليمى ليحد من سلطان الملكية والأمراء الاقطاعيين وتدخلهم فى شئون الكنيسة (٣) . والواقع أنه كان لابد من نمو هذا التنظيم بعد أن أقام شارلمان إمبراطوريته على أساس ثيوقراطى يضمن للدولة السيطرة على الكنيسة ورجالها ، مما هدد نفوذ البابوية وحقها فى الهيمنة على الكنيسة تهديدا خطيرا (٤) . وهنا نجد البابوية تنجح تدريجيا فى جعل الإقليم — لا المملكة — الوحدة الأساسية فى التنظيم الكنسى ، كما نجحت أيضا — بعد متاعب مضنية وجهود طويلة — فى إخضاع رؤساء الأساقفة فى الأقاليم لسلطان البابوية المطلق (٥) . وبذلك تحققت سيادة البابوية على الكنيسة فى غرب أوربا عند نهاية القرن الثانى عشر فى صورة لا تقبل شكا أو جدلا (٦) .

(1) Howell-Smith : op. cit ; p. 632.
(2) Ullmann:The Growth of Papal Government: pp., 262,296-297
(3) Cam. Med. Hist., vol 6, p. p. 553-551.
(4) Ullmann:The Growthof Papal Governmnet, p. p. 87-118;
(5) Cam, Med. Hist, p: 557.
(6) Eyre: op. cit., p. 201.

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نؤكد أن ما وصلت إليه البابوية على عهد انوسنت الثالث (١١٩٨ — ١٢١٦) من مركز سام ، وتنظيمات خاصة بالبلاط البابوى ، وسياسة مرسومة ثابتة تجاه السلطة الزمنية ، وسيطرة نافذة على الهيئات الدينية ؛ كل ذلك جاء ثمرة خبرات وتجارب طويلة لا يمكن إدراكها إلا بدراسة تاريخ البابوية ؛ وإن كانت هذه الدراسة تعنى فى الواقع دراسة تاريخ الكنيسة الغربية طوال العصور الوسطى[١] . والواقع أن المكانة الخاصة الممتازة التى تمتعت بها البابوية داخل الكنيسة انعكست صورتها بوضوح فيما أصبح لها من نفوذ سياسى ، لأن الكنيسة الرومانية لم تكن فى العصور الوسطى هيئة دينية فحسب بل سياسية أيضاً[٢] . وحسب البابا أنه اعتبر نفسه نائب المسيح « Vicar of Christ » ؛ وعلى أساس هذه العقيدة أصبح هدفه الأعلى أن يجعل من العالم المسيحى مملكة يتولى هو حكمها وزعامتها . وإذا كان البابا قد أخذ يعامل ملوك أوربا وأمراءها على أنهم أبناء الكنيسة وأنه هو أبوها[٣] ، فانه من الواضح أن معنى هذه الفكرة ادخال غرب أوربا بأسره داخل نطاق الكنيسة مما اكسب الحكومة البابوية أهمية خاصة عند نهاية القرن الثانى عشر . فالبابا لم يكتف حينئذ باعتبار نفسه زعيماً لهيئة مستقلة ممتازة من رجال الكهنوت ، وإنما اعتبر نفسه رأس العالم المسيحى بأجمعه ، فأخذ يمد أنفه إلى كل ركن من أركان البناء الاجتماعى والسياسى لغرب أوربا ، زيادة على الهيئات الدينية[٤] .

وكان البابا يعيش فى بلاط أشبه شىء ببلاط الملوك والأباطرة ، ولكنه كان زعيماً دينياً ملكياً sacerdos regalis ، تحيط به جميع مظاهر العظمة والفخامة من موظفين وأمناء وألقاب[٥] . ولم يلبث أن أصبح البلاط البابوى مركزاً لجهاز ضخم

---

(1) Powicke; The Legacy, P. 52.
(2) Howell-Smith: op. cit, p. 741.
(3) Ullmann : The Growth of Papal Government., p. p. 426-431.
(4) Cam. Med. Hist., vol. 6, p. p. 4-5,34.
(5) Ullmann : The Growth of Papal Government., p. 325.

مهمته تنفيذ أطماع البابوية وسياستها ، هذا إلى أن البابا عبر عن سيادته بالاكثار من إرسال بعثات من المندوبين البابويين (Legati Missi) إلى مختلف أنحاء الغرب الأوربى[١]. وكان هؤلاء المندوبون على جانب كبير من الأهمية فى العصور الوسطى إذ يعقدون مجامع كنسية إقليمية فى الجهات التى يقصدونها[٢] ، ويفصلون فى القضايا الخطيرة التى تستأنف أمامهم بحيث لا يستطيع أحد — سوى البابا نفسه — أن ينقض قراراتهم[٣] .

أما المحكمة البابوية فقد غدت على عهد البابا انوسنت الثالث بمثابة هيئة قضائية عليا تنظر فى جميع القضايا المعروضة عليها من مختلف أنحاء الغرب الأوربى[٤]. وقد أخذ عدد القضايا المستأنفة أمام المحكمة البابوية فى ازدياد ، حتى أصبح من الأمور العادية منذ نهاية القرن الثانى عشر أن تستأنف أحكام المحاكم الكنسية الإقليمية أمام المحكمة البابوية[٥]. وفى أغلب هذه الأحوال ، كان البابا - يساعده بعض الكرادلة - ينظر بنفسه فى القضية ، وإن كان فى حالات خاصة يحول القضايا إلى بعض كبار رجال الدين فى البلد الذى أتت منه القضية . وسرعان ما أدى هذا النشاط القضائى إلى اتساع أفق القانون الكنسى وظهور فئة من القانونيين فى البلاط البابوى ليستشيرهم البابا ويبنى أحكامه على آرائهم[٦] .

ولما كان تنفيذ سياسة البابوية الواسعة المدى يتطلب وجود جهاز إدارى مركزى دقيق ، فإن الديوان البابوى سرعان ما أصبح أعظم جهاز إدارى عرفته العصور الوسطى[٧] . ذلك أن الحكومة البابوية أخذت تتطور تطوراً بطيئاً

(1) Idem : p. 29?.
(2) Cam. Med. Hist., vol. 6., p. 40.
(3) Howell-Smith : op. cit. p 749
(4) Eyre : op. cit., p 205
(5) Cam. Med. Hist., vol 6; p. 34.
(6) Ullmann : The Growth of Papal Government , p. 359-301.
(7) Powicke : The Legacy of the Middle ages ; p. 54.

تدريجيا، حتى ظهر نوع من التخصص فى البلاط البابوى ، بمعنى قيام هيئات وجماعات من الموظفين اختص كل منهم بعمل إدارى معين[١] ..

وكانت الأوامر والقرارات واللوائح البابوية تصدر عادة فى صورة مراسيم تكتب دائما باللاتينية ، وعلى رقائق كبيرة المساحة ، على أن يبدأ المرسوم البابوى بعبارة « الأسقف (فلان) خادم خدام الله . . . »[٢] . وقد انقسمت هذه المراسيم على عهد البابا أنوسنت الثالث إلى قسمين : المراسيم الكبرى Great Bulls والمراسيم الصغرى Little Bulls . أما الأولى فكانت وثائق رسمية ذات طابع معين ثابت ومميزات خاصة لا تتغير ، وتحوى توقيع البابا ورمزه أو شعاره ، زيادة على توقيعات عدد معين من الكرادلة . وتطلبت أهمية هذه المراسيم أن يوكل بإعدادها إلى موظفين مختصين فى الديوان البابوى امتازوا بالمهارة والدقة والكفاية[٣] . ذلك أن صياغة المرسوم البابوى وإنشاءه كانت تتم وفق قواعد دقيقة تحدد أسلوبه وألفاظه وخطه والكيفية التى يختم بها[٤] ؛ بحيث أصبح من السهل على كتبة الديوان البابوى أن يستكشفوا تزوير أية وثيقة بابوية لا تتوافر فيها القواعد السابقة . هذا فضلا عن أن الرسائل التى صدرت عن الديوان البابوى كانت تنسخ من صورتين لتحفظ إحداها فى أرشيف الكنيسة الرومانية[٥] . وهكذا يمكن بدراسة الوثائق والمراسيم البابوية التى ترجع إلى نهاية القرن الثانى عشر الوقوف على حقيقة هامة ، هى أن البلاط البابوى تمسك حينئذ بقواعد الدبلوماسية والمظاهر القانونية ، وهو اتجاه لم يكن له مثيل فى أى مكان آخر بأوربا فى ذلك العصر .

---

(1) Cam. Med. Hist. ; vol 6 ; p 32.

(2) Howell-Smith ; op. cit , 751.

(3) Ullmann : op. cit , p p. 327-328.

(4) Cam. Med. Hist., vol. 6, p. p. 32-34.

(5) Howell-Smith : op. cit., p. 758

وقد وجدت بالبلاط البابوى إدارة ماليه قائمة بذاتها للنظر فى شئون الإيرادات والمصروفات[1]. أما عن الإيرادات فكانت هناك عدة موارد تغذى الإدارة البابوية بالأموال اللازمة . أولاها الممتلكات الواسعة فى إيطاليا التى حرص حكام الفرنجة منذ شارل مارتل حتى شارلمان على تثبيت حقوق البابوية فيها ومساعدتها فى الدفاع عنها و بخاصة ضد اللمبارديين[٢] . ومن الواضح أن هذه الممتلكات هيأت للبابوية دخلا ثابتا جعلها من الناحية العملية فى غنى عن أى حاكم علمانى . وفى نفس الوقت أحرزت البابوية حقوقا إقطاعية واسعة عادت عليها عند نهاية القرن الثانى عشر بدخل كبير منتظم . ذلك أنه وجد فى ذلك العصر عدد كبير من الأفراد والهيئات التى دانت للبابوية بضرائب معينة[٣] ، مثل بعض المؤسسات الكنسية والأديرة التى أحاطت بها ظروف صعبة جعلتها تدخل تحت حماية البابوية مباشرة مقابل دفع إتاوة منتظمة ، بالضبط كما كان الحال بشأن الضرائب الإقطاعية التى كان يدفعها الأقنان للسيد الإقطاعى مقابل حمايتهم والذود عنهم[٤] . على أن هذه التبعية الاقطاعية للبابوية لم تقتصر على المؤسسات والهيئات الدينية ، وإنما إمتدت فى العصور الوسطى إلى بعض الحكام العلمانيين ، فكثير من الأمراء والملوك من أحس بضعفه وحاجته إلى حماية البابوية . فسلم أراضيه وممتلكاته للبابوية على أن يعود فيتسلمها من البابا كإقطاع ، وفى هذه الحالة يصبح الأمير فصلا اقطاعيا للبابا يتمتع بحمايته مقابل بعض الالتزامات الإقطاعية التى يؤديها الفصل لسيده[٥] . هذا عدا الضرائب التى كانت تجمعها البابوية من بعض الأديرة نظير تحريرها من ولاية الأسقفية التى يقع الدير ضمن دائرتها ، أو تجمعها من بعض الأسقفيات مقابل تحريرها من ولاية رئيس الأساقفة الذى

(1) Eyre : op. cit., p. [illegible]
(2) Ullmann: The Growth of Papal Government. p. [illegible]
(3) Cam. Med. Hist., vol. 6, 354
(4) Painter : A Hist. of the Middle ages. p. 298
(5) Ullmann : The Growth of Papal Goverment ; p. p. 332 334.

تقع الأسقفية داخل منطقة نفوذه . وهكذا صار للبابوية إيراد ضخم من هذه الموارد المختلفة ، الأمر الذى تطلب سنة ١١٩٢ تعيين مسجل خاص للخزانة البابوية ، لحصر مختلف الهيئات التى تداينها البابوية بضرائب منتظمة فى كافة بلدان غرب أوربا مثل أبوليا وصقلية والبرتغال و بولندا وانجلترا وغيرها ؛ و بيان المبلغ المستحق على كل منها(١) .

وبالإضافة إلى هذه الضرائب التى يمكن إدخالها جميعاً تحت اسم « الدخل الخاص » ، كان للبابوية مورد عام ضخم على عهد البابا انوسنت الثالث ، هى الضرائب التى اشترك فى دفعها العالم المسيحى الغربى بوجه عام(٢) . وكانت هذه الضرائب مرتبطة فى تطورها بالحروب الصليبية بعد أن فرضها بعض الملوك مثل لويس السابع ملك فرنسا ور يتشارد الأول ملك انجلترا على رعاياهم العلمانيين والكنسيين من أجل الغرض الصليبى(٣) . وقد أدى تطور هذه الفكرة إلى خطوة جديدة عند ما أصدر البابا انوسنت الثالث أمراً سنة ١١٩٩ إلى جميع الأساقفة بأن يرسلوا إلى البابوية نسبة معينة تبلغ جزءاً من أربعين (١/٤٠) من دخل الأسقفية السنوى المتحصل من جميع ممتلكاتها وإقطاعاتها . هذا غير الضرائب الأخرى التى أخذت البابوية فى جمعها عن طريق مباشر عند تعيين الأساقفة وغيرهم من كبار رجال الكنيسة فى مناصبهم ، أو عن طريق غير مباشر مثل بيع صكوك الغفران(٤) . وهكذا أخذت تتكاثر الالتزامات التى فرضتها البابوية على العالم المسيحى الغربى بوجه عام والهيئات الكنسية والدينية بوجه خاص ، فى الوقت الذى بلغ النضال أشده بين البابوية والسلطة الزمنية لتحرير هذه الهيئات من التزاماتها المالية — وغير المالية — تجاه الحكام العلمانيين ،

(1) Idem., p. 330

(2) Cam. Med. Hist., vol. 6, p. p. 554-555.

(3) Painter ; A Hist. of the Middle Ages., p. 298.

(4) Howell-Smith ; op. cit., p. 745.

وربما كان السبب فى ذلك أن ملوك أوربا كانوا فى حاجة إلى المال لتدعيم ملكياتهم الناشئة ، فى الوقت الذى كانت بابوية القرن الثالث عشر تمتلك من الموارد ما يعادل دخل كل هؤلاء الملوك مجتمعين[١] .

المجامع الكنسية :

تمثل المجامع الكنسية ركناً هاماً من أركان التنظيم الكنسى فى العصور الوسطى . والواقع أن انتشار المسيحية ، وما صحبه من اتساع نفوذ الكنيسة استلزم عقد كثير من المجامع الدينية منذ القرن الرابع لحل المسائل المعقدة التى صحبت انتشار المسيحية من جهة ولتنظيم شئون الكنيسة وتدعيم سلطانها من جهة أخرى[٢] . وهنا نشير إلى أن الكنيسة لم تكن أول من ابتكر فكرة عقد المجامع أو صاحبة الفضل فى ظهورها ، لأنها استمدت هذه الفكرة من سوابق يهودية ووثنية معروفة[٣] .

وإذا كانت معظم المراجع التاريخية قد ركزت اهتمامها فى المجامع المسكونية الأربعة الأولى ، وهى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ومجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ ومجمع إفسوس سنة ٤٣١ ومجمع خلقدونيا سنة ٤٥١ : هذا زيادة على مجمع كونستانس (١٤١٤ — ١٤١٨) ومجمع بازل سنة ١٤٣١ ؛ فإنه من الثابت أن أوربا العصور الوسطى شهدت — عدا المجامع السابقة — عدداً كبيراً من المجامع الدينية ذات الأثر العظيم فى التاريخ الأوربى بوجه عام والتاريخ الكنسى بوجه خاص[٤] . ومن هذه المجامع ما اتخذ طابعاً عاماً عالمياً يحضرها الأساقفة من جميع أنحاء العالم المسيحى ليتدارسوا سوياً المشاكل التى واجهتهم فى مناطق نفوذهم ، أو ليبحثوا أوجه الخلاف فيما بينهم ويزيلوا ما قد يكون هنالك من سوء تفاهم عن طريق الحجة

(1) Thompson : op. cit : vol. 2; p. 648.
(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages; p. p. 16-17.
(3) Howell-Smith : op. cit.; p. 852.
(4) Eyre : op. cit ; p. 208.

والإقناع(١) . وخير مثل لهذا النوع من المجامع مجمع القسطنطينية الثانى سنة ٥٥٣ الذى اجتمع بسبب الخلاف حول تفسير بعض المسائل اللاهوتية ، ومجمع القسطنطينية الثالث سنة ٦٨٠ الذى أدان مذهب الطبيعة الواحدة ، ومجمع نيقية الثانى سنة ٧٨٧ الذى أدان اللا إيقونية ثم مجمع القسطنطينية الرابع سنة ٨٦٩ الذى قرر إدانة البطريرق فوتيوس وعزله(٢) . والملاحظ فى هذه المجامع السابقة أنها كانت تجمع بين أعضاء الكنيسة فى الشرق والغرب ، حتى كان الانشقاق بين الكنيستين الشرقيه والغربية ، وهو الانشقاق الذى بدأت حوادثه فى القرن التاسع على عهد البطريرق فوتيوس ، والذى انتهت ذيوله فى القرن الحادى عشر (سنة ١٠٥٤) بالانفصال التام بين الكنيستين(٣) . ومنذ ذلك الوقت أصبحت المجامع الدينية التى تعقد فى الغرب لا تختص إلا بشئون الكنيسة الغربية ، وإن كان لقب مسكونى أو عالمى قد أطلق أيضاً على مجامع اللاتران البابوية (Lateran Councils) وهى التى عقدت بالكتدرائية البابوية فى روما سنوات ١١٢٣ ، ١١٣٩ ، ١١٧٩ ، ١٢١٥ ، ١٥١٢ . وهكذا أحصيت المجامع المسكونية فى تاريخ المسيحية بعشرين مجمعاً هى(٤) :

٣٢٥ مجمع نيقية الأول	٥٥٣ مجمع القسطنطينية الثانى
٣٨١ مجمع القسطنطينية الأول	٦٨٠ مجمع القسطنطينية الثالث
٤٣١ مجمع أفسوس	٧٨٧ مجمع نيقيه الثانى
٤٥١ مجمع خلقدونيا	٨٦٩ مجمع القسطنطينية الرابع

(1) Cam. Med. Hist vol., 1; p. 185.

(2) Howell-Smith : op. cit. 553.

(٣) يطلق على هذا الانشقاق الدينى عادة اسم الانشقاق الشرقى أو اليونانى ، تمييزاً له عن الانشقاق الغربى الكبير الذى نجم عن قيام أكثر من بابا فى الغرب (أنظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٤٧٦) .

(4) Howell-Smith : op ; cit. p. p. 551-553

ولم تعترف الكنيسة الشرقية سوى بالمجامع السبعة الأولى فقط على أنها مسكونية .

١١٢٣ مجمع اللاتران الأول	١٤١٤ — ١٤١٨ مجمع كونستانس
١١٣٩ مجمع اللاتران الثانى	١٤٣١ مجمع بازل (متمم لسابقه)
١١٧٩ مجمع اللاتران الثالث	١٤٣٨ — ١٤٤٢ مجمع فرارا ... فلورنسا
١٢١٥ مجمع اللاتران الرابع	١٥١٢ — ١٥١٧ مجمع اللاتران الخامس
١٢٤٥ مجمع ليون الأول	١٥٤٥ - ١٥٦٣ مجمع ترنت
١٢٧٤ مجمع ليون الثانى	١٨٧٠ مجمع الفاتيكان
١٣١١ مجمع فينا	

و بالإضافة إلى هذه المجامع العالمية أو المسكونية ، وجد نوع آخر من المجامع الدينية المحلية ذات الأثر المحدود . ذلك أن الأساقفة فى بلد من بلدان غرب أوربا اعتادوا أحيانا أن ينظموا اجتماعا دينيا يجمع شملهم للنظر فيما يعتريهم من مسائل أو يعترضهم من مشاكل ، مثلما حدث سنة ٥٩٧ من اجتماع اثنين وستين أسقفا وخمسة من رؤساء الأساقفة من أسبانيا وجنوب فرنسا فى طليطلة[1] . و بتقدم التنظيم الكنسى تطور هذا النوع من المجامع إلى ما يعرف باسم المجامع الاقليمية المنتظمة ، فيقوم رئيس الأساقفة فى كل إقليم بدعوة الأساقفة التابعين له وغيرهم من كبار رجال الدين للمشاركة فى اجتماع دينى خاص إقليمى الطابع[2] . ومن الواضح أن هذا النوع من المجامع الإقليمية كان له أثره فى تركيز السلطة الكنسية وتوحيد نظم الكنيسة ومقاومة النزعة الانفصالية فى بعض البلدان الأوربية[3] .

وأخيراً يأتى نوع أصغر من المجامع الدينية ، هى المجامع الأسقفية التى تتمثل فى دعوة الأسقف الواحد لقساوسة الكنائس التابعين له فى أسقفيته لبحث مايهمهم من مسائل . وهكذا بلغت المجامع الدينية درجة من الكثرة والتنوع فى أوربا العصور الوسطى ، جعلت لها أثراً خطيراً فى الحياة الدينية . وهنا ينبغى أن نستبعد

(1) Cam Med Hist.: vol, 1: p 104.
(2) Thompson : vol 2; p. 655.
(3) Cam Med. Hist. vol. 6; p. 545.

من تفكيرنا الآراء الدستورية الحديثة الخاصة بالغرض من عقد المجامع والمجالس؛ فلا يمتد بنا التفكير إلى أن المجامع الدينية التي عرفتها أوربا العصور الوسطى كانت تستهدف بأى حال تحديد سلطان البابوية أو تقييد نفوذ كبار رجال الكنيسة[١]. فالحكومة الكنسية في غرب أوربا أصبحت عند نهاية القرن الثاني عشر أشبه شيء بالملكية المطلقة، ومن ثم لم يكن هناك أى مطمع للمجامع الكنسية — سواء كانت مسكونية أو إقليمية أو أسقفية — في تحديد سلطات البابا أو غيره من كبار رجال الدين. أما الأهداف الأساسية للمجامع المسكونية فكانت مقاومة ضرب من ضروب الهرطقة التي أخذت تهدد الكنيسة بين حين وآخر، أو الرغبة في القيام بحركة شاملة لنصرة المسيحية مثل الحروب الصليبية، أو الشعور بضرورة القيام بحركة جامعة لإصلاح الكنيسة وتدعيمها. ومن الواضح أن هذه الأهداف كانت تنتهي — بطريق مباشر أو غير مباشر — إلى تقوية نفوذ البابوية وتدعيم سلطانها[٢]. وهكذا نجدت البابوية على عهد أنوسنت الثالث تسيطر على الكنيسة سيطرة تامة فضلا عن تحكمها في المجامع الدينية الكبرى تحكما بعيد الأثر. حقيقة إنه ظهرت فيما بعد محاولة لجعل المجامع الدينية تسمو في إرادتها ونفوذها على البابوية، ولكن هذه المحاولة لم تظهر إلا في القرن الخامس عشر، أى قرب ختام العصور الوسطى[٣].

ومن الطبيعي أن هذه الأحكام التي أصدرناها على المجامع العامة الكبرى يمكن تطبيقها بهذه الروح ذاتها على المجامع الإقليمية والأسقفية. فالمجمع الإقليمي الذي يجمع بين أساقفة الإقليم الواحد، والمجمع الأسقفي الذي يجمع بين قساوسة الأسقفية الواحدة لم يستهدفا مطلقاً الحد من نفوذ رئيس الأساقفة في إقليمه أو نفوذ الأسقف في أسقفيته. ولكن إذا كان الغرض الأساسي من هذه المجامع

(1) Eyre: op. cit. p. p. 209-210.
(2 Stephenson : Med. Hist.; p. 434.
(3) Eyre : op. cit., p. 210

هو التعاون و بحث المسائل التى تهم رجال الدين فى الإقليم أو الأسقفية . فإنه توجد بعض حالات فردية قام فيها رجال الدين المجتمعون فى بعض هذه المجامع باستنكار سلوك أسقف أو رئيس أساقفة ، وطالبوا بعزله على أساس تصرفاته غير المقبولة .

أما عن القواعد المتبعة فى دعوة هذه المجامع للانعقاد ثم فى كيفية تنظيمها ورآستها، فتتفق كلها مع مبادئ تركيز السلطة فى الكنيسة . وقد ظل الكاثوليك أمداً طويلا يعتقدون فى أن البابوية هى التى دعت جميع المجامع المسكونية ، أو على الأقل لم تعقد هذه المجامع إلا بموافقة البابا وتأييده . ولكنهم عادوا فاعترفوا فى القرن الماضى فقط بأن الإمبراطور هو الذى دعا المجامع المسكونية الثمانية الأولى وأن موافقة البابا سلفاً لم تشترط فى عقد هذه المجامع ، وإن كانت موافقته على قرارات كل مجمع شرطاً ضروريا لالزام الكنيسة الغربية باتباعها[1]. ولم يلبث القانون الكنسى الذى تم نضجه وجمعه فى أواخر القرن الثانى عشر وأوائل الثالث عشر ، أن نص على أنه ليس لأحد حق دعوة المجمع الدينى إلا الرئيس الدينى الأعلى المنطلقة التى يمثلها المجمع ، فإذا كان المجمع عاما فالبابا وحده هو الذى يمتلك حق دعوته ورآسته[2] ، إما شخصيا وإما عن طريق إنابة من يمثله فى الرآسة[3] . أما إذا كان المجمع إقليميا فإن الاسقف هو الذى يدعو إليه و يقوم برآسته[4] . على أنه يلاحظ دائما أن هذه النظم لم تصل إلى درجة من التحديد والتبلور إلا عند نهاية القرن الثانى عشر ، فى حين كانت الأوضاع الخاصة بدعوة المجامع الدينية فى الشطر الأول من العصور الوسطى أكثر بساطة وأقل تعقيداً ؛ حتى قام الأباطرة بدعوة المجامع الدينية فى كثير من الأحيان واكتفت البابوية بارسال مندوبين عنها فى هذه المجامع مما أثار فى بعض الأحيان خلافاً بين الأباطرة ومندوبى البابوية حول الرآسة .

(1) Howell-Smith : op. cit., p. p. 551-552.
(2) Thompson : op. cit., vol. 2, p. 645.
(3) Howell-Smith : op. cit., p. 554.
(4) Cam. Med Hist , vol. 1, p. 104.

التنظيم الكنسى :

استطاعت الكنيسة أن تنشر نفوذها وتقوم برسالتها كاملة عن طريق جهاز محكم البنيان امتدت أطرافه إلى جميع أنحاء العالم المسيحى ، جنبا إلى جنب مع الجهاز الإدارى العلمانى . وقد انقسم رجال الدين إلى قسمين رئيسيين : رجال الكنيسة من القساوسة والأساقفة الذين تزوجوا واختاروا حياة أقرب إلى حياة العلمانيين — وهؤلاء أطلق عليهم « رجال الكهنوت العلمانيون secular clergy » ؛ ورجال الهيئات والمنظمات الديرية المختلفة ، وهم الذين عاشوا عيشة دينية منتظمة أساسها العزوبة ومن ثم أطلق عليهم «رجال الكهنوت النظاميون regular clergy»[(١)] . ومنذ بداية القرن الثالث عشر أخذ التقارب يزداد بين هذين الفريقين ، فاشترط على القسيس والأسقف — مثلهما مثل الراهب — أن يحيوا حياة العزوبة الدائمة .

والواقع إن الآراء تباينت حول جدوى تطبيق مبدأ العزوبة على رجال الدين ومدى إمكان هذا التطبيق فى صورة عملية . وقد يبدو هذا الموضوع قليل الأهمية بالنسبة لدراستنا ، ولكن يجب أن نذكر دائما أن أثر الكنيسة فى البناء الاجتماعى لأوربا العصور الوسطى كان يتوقف إلى حد كبير على مدى النجاح فى تطبيق هذا المبدأ . وهنا نجد أن رجال الكنيسة فى عصرها الأول كانوا متزوجين لعدم وجود فروق واضحة فى ذلك الوقت المبكر بينهم وبين بقية الأفراد العلمانيين . وقد جاء على لسان القديس بولس نفسه نص يستفاد منه إباحة الزواج لرجال الدين ، إذ يقول فى رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس « ألعلّنا ليس لنا سلطان أن نجول بأخت زوجة كباقى الرسل وأخوة الرب، وصفا[(٢)] » . ولكن إذا كان البعض قد حاول أن يفسر هذا على أساس إباحة الزواج ، فإنه ورد فى هذه الرسالة نفسها للقديس

(1) Thompson : vol. 2, p. 649.

(٢) العهد الجديد، سفر رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس، الإصحاح التاسع (٥) .

بولس ما نصه «وأما من جهة الأمور التى كتبتم لى عنها فحسن للرجل أن لا يمس امرأة . ولكن لسبب الزنا ليكن لكل واحد امرأته وليكن لكل واحدة رجلها . . . ولكن أقول هذا على سبيل الإذن لا على سبيل الأمر ، لأنى أريد أن يكون جميع الناس كما أنا ... ولكن أقول لغير المتزوجين وللأرامل أنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا ... »[١] . ومن هذا يفهم أن بولس حينئذ أن يظل الجميع — مثله — عزابا ، لأن الزواج ومعاشرة المرأة يرتبطان بالخطيئة الأولى أو الكبرى التى هوت بآدم من الجنة . فإذا كان الأمر كذلك ، فما المقصود بقوله «أن نجول بأخت زوجه » ؟ هنا حاول بعض الباحثين تفسير هذا المعنى فى ضوء العادة التى انتشرت بعد ذلك على نطاق أوسع ، وهى أن يعيش الفرد عزبا فى صحبة عذراء يعاشرها كأخت وتصاحبه كأخ لتعنى بشئونه وترفع عنه متاعب الوحدة . ولكن هل كان من الممكن أن يقنع جميع الناس — بما فيهم بطرس نفسه (صـفا) الذى كان متزوجا فى حياته الأولى — بهذا النوع من الحياة البريئة والحب العذرى والسلوك الأفلاطونى[٢] ؟ يبدو أن بولس أدرك استحالة هذه الحياة البريئة بين رجل وعذراء يعيشان تحت سقف واحد ، بدليل أنه عاد فقال فى نفس الرسالة السابقة « ولكن إذا كان أحد يظن أنه يعمل بدون لياقة نحو عذرائه إذا تجاوزت الوقت — وهكذا لزم أن يصير — فليفعل ما يريد . إنه لا يخطىء . فليتزوجا . وأما من أقام راسخا فى قلبه وليس له اضطرار ، بل له سلطان على إرادته ، وقد عزم على هذا فى قلبه أن يحفظ عذراءه فحسنا يفعل . إذا من زوّج فحسنا يفعل ومن لا يزوّج يفعل أحسن »[٣] .

---

(١) نفس الرسالة السابقة ، الإصحاح السابع (١ — ٩) .

(2) Howell-Smith : op. cit., 304.

(٣) العهد الجديد ، سفر رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس ، الإصحاح السابع (٣٦ — ٣٨) .

ويبدو لنا مما سبق أن المسيحية لم تحرم الزواج على رجال الدين ، ولكنها فضلت لهم حياة العزوبة ، الأمر الذى لم يأخذ به كثير من رجال الكنيسة فصاروا يتزوجون ويكونون عائلات وروابط أسرية مثل العلمانيين[1] . وقد أدركت الكنيسة منذ وقت مبكر ما ترتب على زواج رجال الدين من خطر لأنه يدفعهم إلى الانصراف نحو مباهج الحياة ومشاغل الأسرة ، ولذلك حرصت على أن تنص على مبدأ عزوبة رجال الدين فى تشريعاتها وطلبت من جميع القساوسة أن يطردوا من منازلهم من يحللن لهم من النساء ، مع السماح لأولئك الذين كانوا قد تزوجوا قبل ترسيمهم قساوسة بالاحتفاظ بزوجاتهم ، بشرط أن يعاملوهن فى هذه الحالة كأخوات ولا يعاشرونهن كزوجات!! ثم كان أن حاول مجمع الفيرا Elvira الدينى الذى عقد فى أسبانيا سنة ٣٠٦ طرد جميع القساوسة المتزوجين من الكنيسة ، والقضاء على عادة الاحتفاظ « بأخت زوجة » بعد أن أصبح من الأمور الشائعة أن ينجب القساوسة أولاداً من هؤلاء الأخوات الزوجات !. ولكن من الواضح أنه كان من الصعب أو المستحيل تنفيذ هذه الرغبات تنفيذاً عملياً ، حتى بعد أن أقرها مجمع نيقية سنة ٣٢٥ — وهو أول المجامع المسكونية فى تاريخ الكنيسة[2] . وهكذا سارت الأمور حتى اشتدت الرغبة فى إصلاح الكنيسة على عصر هلدبراند (جريجورى السابع) ، وعندئذ وضع المصلحون مسألة عزوبة رجال الكنيسة على رأس قائمة الإصلاح . والواقع أن البابوية لقيت فى ذلك العصر معارضة شديدة عند تطبيقها هذا المبدأ ، ليس فقط من رجال الدين الذين اعتادوا النظم القديمة وألفوا حياة الزوجية ، بل أيضاً من بعض بعيدى النظر الذين خشوا عاقبة انتشار الزنا والزواج العرفى بين رجال الدين . على أن البابوية لم تأبه لهذه المعارضة ومضت فى طريقها جادة ، فعقدت مجامع فى روما سنة ١٠٥٠ ، وسنة ١٠٥٩ ،

(1) Taylor : The Med. Mind, vol 1, p. 354.
(2) Howell-Smith : op. cit , p. 367.

وسنة ١٠٦٣ طلبت جميعها من العلمانيين قطع صلتهم بالقساوسة الذين يحتفظون بزوجات أو محظيات . وأخيرا عقد البابا جريجورى السابع مجمعا فى روما سنة ١٠٧٤ ، أى بعد اعتلائه كرسى البابويه بعام واحد ، أصدر مرسوما بتحريم زواج رجال الدين تحريما تاما . وفى هذه المرة عزم جريجورى السابع على تنفيذ هذا القرار بكل ما أوتيه من عزم واصرار وعناد ، حتى أنه أمر المتزوجين من رجال الدين بطرد زوجاتهم فوراً(١) . وقد قوبلت هذه القرارات بالمعارضة وعدم الرضا فى مختلف البلاد الأوربية ، حتى أنه عقد مجمع فى ونشستر بانجلترا سنة ١٠٧٦ قرر الموافقة على مبدأ منع رجال الدين من الزواج بشرط عدم إجبار المتزوجين منهم فعلا على هجر زوجاتهم . ومع ذلك فإن البابوية لم تهتم بهذه المعارضة ، ومضت فى طريقها حتى اتخذت خطوة أخيرة فى مجمع روما سنة ١١٣٩ الذى قرر أنه لا يجوز لأحد من رجال الكنيسة أن يعاشر امرأة ، وأن زواج أى واحد منهم يعتبر غير شرعى ، وبناء على ذلك تصبح ذرية رجال الكنيسة أبناء سفاح(٢) . ولما كان مشروع إصلاح الكنيسة يمثل وحدة مترابطة الأجزاء ، فإن نجاح البابوية فى تحقيق مبدأ عزوبة رجال الدين كان مرتبطا إلى حد كبير بركن آخر من أركان هذه الحركة الإصلاحية وهو تحقيق سمو البابوية وسيادتها وسيطرتها على العالم المسيحى الغربى . وهكذا استطاعت البابوية بفضل نجاحها فى تحقيق سيادتها أن تنفذ مبدأ عزوبة رجال الكنيسة تنفيذا دقيقا شاملا حتى غدت أية مخالفة لهذا المبدأ تعتبر منذ منتصف القرن الثانى عشر خرقا لأحد مبادىء القانون الكنسى الأساسية(٣) .

ولسنا فى حاجة إلى المبالغة فى أهمية هذا المبدأ وأثره فى الحياتين الدينية والاجتماعية . ذلك أنه كيف الوضع الاجتماعى لرجال الدين فى أوربا منذ القرن

---

(1) Idem, p. 368

(2) Eyre : op. cit., p. p. 216-217

(3) Idem, p. 2 7.

الثانى عشر ، وزاد من قوة الرابطة بين رجال الدين بعد أن أوشكت حياة الأسرة والروابط العائلية أن تقضى على الرابطة الأساسية التى تربط رجال الدين بعضهم ببعض . هذا بالإضافة إلى أن بقاء رجال الكنيسة عزابا جعل لهم مكانة خاصة سامية فى نفوس الأهالى وغير من نظرة الناس إليهم (١) .

أما عن بناء الكنيسة العام فقد رأينا كيف كانت البابوية على رأس الكنيسة الغربية تحتل المكانة الأولى وتتمتع بالسيطرة التامة على جميع رجال الكنيسة . ويأتى بعد البابا فى الدرجة مجموعة الكرادلة ، الذين حدد « الدستور الرومانى Roman Constitution » الصادر سنة ١٠٥٩ على عهد البابا نيقولا الثانى مهامهم الأساسية (٢) . ويبدو أن هؤلاء الكرادلة كانوا مجموعة مختارة من كبار الأساقفة (episcopi cardinales) بدأت مهمتهم الأولى كمستشارين للبابوية ، ولكن نفوذهم أخذ يزداد تدريجيا نتيجة لكثرة اختصاصاتهم ومهامهم (٣) . وهكذا إذا كان البابا قد أصبح ملكا فى بلاطه بروما فإن الكرادلة كانوا بمثابة الأمراء الذين أحاطوا بزعيمهم وجاءوا بعده مباشرة فى الدرجة من حيث المكانة والنفوذ (٤) .

وقد انقسم العالم المسيحى الغربى إلى اسقفيات واسعة ، يرأس كل منها اسقف يشرف على شئون الكنيسة ورجال الدين فى اسقفيته . ثم انقسمت كل أسقفية من هذه الأسقفيات إلى ابرشيات صغيرة بكل منها كنيسة يشرف عليها قس (٥) . على أنه من الملاحظ أن مركز الأساقفة والقساوسة تطور فى العصور الوسطى وفقا لعوامل متعددة ، كما يتضح ذلك بالكلام عن كل فريق على حدة .

---

(1) Ibid,
(2) Howell-Smith : op. cit.. 746.
(3) Ullmann : The Growth of Papal Government, p. 320
(4) Cam. Med. Hist , vol. 6; p. p. 4-5, p. 43.
(5) Thompson : op. cit ,vol. 2, p p, 652-653.

أما عن الأبرشيات فقد اختارت الأساطير أن تربط نشأة كل منها باسم رجل من رجال الدين — أو غير رجال الدين — ؛ وإن كان الواقع هو أن الأبرشيات أخذت تظهر وتنتشر تدريجيا فى غرب أوربا وفقا لحاجيات الأهالى وانتشار المسيحية . وكان تأسيس الكنائس المحلية يتم إما بواسطة الأساقفة أو بواسطة الحكام العلمانيين الذين يهبونها للكنيسة . ولكن المهم هنا هو أن مؤسسى هذه الكنائس الجديدة — سواء كانوا من رجال الدين أو العلمانيين — اعتادوا أن ينظروا إلى مؤسساتهم على أنها ملك خاص بهم وبالتالى أصروا على الإشراف عليها[1] . وهكذا كان مركز قسيس الأبرشية قلقا فى أول الأمر ، إذ توقفت حالته الاجتماعية على شخصيته من جهة وعلى نصيبه الثابت من غلة الحقول التى تتبع ابرشيته من جهة أخرى[2] . أما دخل الكنيسة نفسها فكان يستأثر به مالك الأبرشية أى مؤسسها ؛ ولم يكن ذلك إلا تدريجيا عندما سمح لقسيس الأبرشية بجزء من هذا الدخل . واستمر الوضع على ذلك حتى تقدمت النظم الإقطاعية ، فأصبح للكنيسة أملاكها الخاصة بها فى كل أبرشيه ، والتى آلت إليها عن طريق الهبة من السيد الإقطاعى صاحب الأرض . على أنه كان للكنيسة مورد هام آخر أخذ يزداد منذ القرن الثامن ، ونعنى به ضريبة العشور التى تلزم جميع الأراضى بدفع عشر انتاجها لحفظ الكنيسة وصيانتها . وامتازت هذه الضريبة بأنها كنسية بحته ، ينتفع بها القساوسة ورجال الأكليروس وحدهم .

ومن هذا يبدو أن قسيس الابرشية ظل نجيا مثل الفلاحين المحيطين به ، على نصيبه من غلة أراضى القرية . وليس هناك ما يدل على أنه امتاز عن هؤلاء الفلاحين فى مستواه الإقتصادى ، إذ كان من الناحية العلمانية يخضع للأمير الإقطاعى الذى تقع الأبرشية فى أراضيه ، فى حين خضع فى الجانب الدينى للأسقف

(1) Eyre : op. cit. p. 218

(2) Cam. Med. Hist., vol. 6 p. 531.

الذى يتبعه[1] . ومع ذلك فإن قسيس الأبرشية احتل مكانة على جانب كبير من الأهمية فى النظام الكنسى فى العصور الوسطى . ذلك أن مهمة الربط بين الكنيسة من جهة والفلاحين وعامة الناس من جهة أخرى ، ألقيت على عاتقه بوصفه عضوا عاملا فى مجتمع القرية فضلا عن كونه ممثل الكنيسة . هذا إلى أن تطبيق مبدأ عزوبة رجال الدين ، جعل لقسيس الأبرشية مكانة خاصة قائمة بذاتها فى القرية . لذلك لا نعجب إذا أدركت التشريعات الكنسية أهمية هذا العضو ، فنصت المجامع المسكونية مراراً على ضرورة مراعاة الدقة فى اختيار قسيس الأبرشية والتأكد من سلامة أخلاقه ، فلا يجوز لأسقف أن يرسم قساً غير متعلم ، وأن يتأكد من استقامته وألا يقل عمره عن خمس وعشرين سنة[2] . ومع ذلك فقد ظل قساوسة الأبرشيات فى أنحاء كثيرة من أوربا العصور الوسطى لا يرتفعون كثيراً فى مستواهم الفكرى عن عامة أهالى الأبرشية . فمعظمهم لم يكن على قسط كاف من التعليم ، مما أوقعهم فى أخطاء كثيرة أثناء الصلاة والوعظ ، دون أن يتنبه مستمعوهم لهذه الأخطاء بسبب جهل الناس باللاتينية . كذلك وجد من هؤلاء القساوسة من عرف بسوء السيرة والادمان على شرب الخمر ، وإن اشتهرت قلة منهم بالصلاح والجد[3] .

أما الأسقف فكان الرئيس المباشر للقسيس فى الهيئة الكنسية . وكان للأسقف عادة كتدرائية فى المركز الرئيسى لا سقفيته يتخذها حاضرة له وقاعدة لنفوذه ، وسميت بهذا الاسم لأن بها كرسى (cathedra) الأسقف[4] . ويثبت الواقع أن الأساقفة تمتعوا بسلطان واسع فى الاشراف على شئون اسقفياتهم وإدارتها وتوجيه القساوسة التابعين لهم ، مستلهمين واجباتهم من قول بولس

(1) Thompson : op. cit ; vol 2, p. 654.
(2) Eyre: op cit ; p 210.
(3) Thompson : op, cit vol. 2; p. 654.
(4) Howell-Smith : op. cit.; p 746.

« احترزوا إذا لأنفسكم ولجميع الرعية التى أقامكم الروح القدس فيها أساقفة لترعوا كنيسة الله التى اقتناها بدمه »[١].

ويبدو من آراء كتاب المسيحية الأوائل — مثل القديس ارناوس St. Irenaus والقديس سيبريان St. Cyprian — أن المفروض فى جميع الأساقفة أن يكونوا متساويين تماماً ، لأن الغرض من وجودهم واحد ، ونوع السلطة المزودين بها واحدة ، مهما اختلفت مساحات اسقفياتهم . ولكن الواقع العملى أثبت غير ذلك ، إذ تفاوت شأن الأساقفة ونفوذهم تبعاً لتباين أهمية مراكزهم الأسقفية[٢]. وكان ذلك فى القرن السابع عندما اتضح ضرورة إيجاد حلقة فى التنظيم الكنسى بين البابوية من جهة وأساقفة البلد الواحد من جهة أخرى ، مما أدى إلى قيام اسقفية كبرى فى كل اقليم واسع يرأسها رئيس اساقفه Archbishop له حق الزعامة على أسقفيات ذلك الإقليم . فإذا تعدد رؤساء الأساقفة فى الدولة الواحدة ، فإن العرف جرى على أن تكون الزعامة لأقدمهم . وهكذا وجد فى انجلترا العصور الوسطى رئيس أساقفه فى كل من يورك وكانتربورى ، يشرف كل منهما على عدد كبير من الاسقفيات التابعة له ،ولكن الزعامة الدينية فى انجلترا كلها كانت للأخير . ومثل ذلك يقال عن رئيس أساقفة مينز فى ألمانيا ورئيس أساقفة ريمس فى فرنسا. وهنا نلاحظ أن الأخيرة لم تكن أقدم اسقفيات فرنسا، ولكنها وصلت إلى مكانة الزعامة بفضل تشجيع ملوك الفرنجة[٣].

وتمتع الأسقف فى أسقفيته بحقوق قضائيه وسلطات واسعة باعتباره نائباً عن البابا فى دائرته[٤]. وهنا يلاحظ أن الأسقف كان مسئولا أمام البابا عن أعماله ومقيداً فى إدارته لشئون الاسقفية بالتشريع الكنسى العام وبالأوامر البابوية ؛

(١) العهد الجديد — سفر أعمال الرسل — الاصحاح العشرون (٢٨) .
(2) Cam. Med Hist.; vol. 1; 1; 167.
(3) Thompson: op cit.: vol. 2; p. 650.
(4) Ullmann : The Growth of Papal Government: p 8.

وفيما عـدا ذلك كانت سلطته مطلقة على القساوسة داخل حدود أسقفيته[١] . ولم يكن الأسقف ملزماً بدعوة مجمع محلى لإقرار تصرفاته ما دامت هذه التصرفات لا تتعارض مع قانون الـكنيسة العام . والواقع أن وظيفة الأسقفية تمتعت بكثير من الضمانات، إذ كان لا يمكن عزل الأسقف ، من وظيفته إلا بأمر البابا وحده . و يتضح نفوذ البابوية على الأساقفة فىعهد أنوسنت الثالث من قول رئيس أساقفة كانتربورى « إننى حر فى أن اعتقد ما أشاء ، إلا إذا أصدر البابا أمراً مخالفاً لعقيدتى فعندئذ يجب أن اعترف فوراً بأننى كنت على خطأ[٢] » .

على أنه يلاحظ أن سلطة الأساقفة تناقصت إلى حد ما فى الجزء الأخير من العصور الوسطى بعد أن تحررت الأديرة — عقب حركة الإصلاح الـكلونية — من سيطرة الأساقفة الذين تقع الأديرة داخل دوائر نفوذهم[٣] . هذا إلى أن انصراف كثير من الأساقفة الأغنياء نحو المصالح الدنيوية وانطلاقهم فى التيار الإقطاعى ، جعلهم ينصرفون إلى ما هو أجدى على نفوذهم وأنفع لهم[٤] .

و إذا كانت الوظيفة الأسقفية تمثل ركنا هاما فى نظام الـكنيسة الغربية ، فإن أثر الأساقفة الشخصى فى تطور المجتمع الأوربى كان هو الآخر خطيراً . ذلك أن الأساقفة أضحوا بعد انتهاء غزوات البرابرة حماة التراث الـكلاسيكى القديم ؛ وسرعان ما صار لهم شأن كبير فى توجيه سياسة ملوك البرابرة الذين أقاموا ملـكيات قوية فى غرب أوربا ، مما جعل أثرهم يبدو خطيرا فى التطور الاجتماعى بين القرنين السادس والثالث عشر[٥] . هذا بالإضافة إلى أن الأساقفة صارت لهم ممتلـكات واسعة من أراضى وعقار وغيرها ، الأمر الذى استلزم التفرقة بين وظيفة الأسقف

---

(1) Cam Med. Hist.; vol. 6; p. 528.
(2) Thompson : op cit ; vol 2; p. 649.
(3) Idem; p. 656
(4) Taylor : The Med. Mind; vol 1, p. p. 488-489
(5) Cam. Med. Hist. vol 6. Ps 530,545.

واختصاصاته الروحية(spiritualia) داخل نطاق أسقفيته ، و بين سلطاته واختصاصاته الزمنية (saecularia)[١] .

ولم تكن هناك قواعد ثابتة فى أول الأمر تحدد كيفية تعيين الأساقفة فى مناصبهم؛ ففى عصر الغزوات الجرمانية كان لقساوسة الأسقفية ورعاياها حق انتخاب أسقفهم. على أن ملوك الفرنجة سرعان ما ادعوا لأنفسهم هذا الحق وصاروا يعينون من يختارونه فى الأسقفيات الشاغرة[٢] ، على الرغم من صيحات الاحتجاج التى صدرت ضد هذا الوضع من مجامع أورليان سنوات ٥٣٣ ، ٥٣٨ ، ٥٤٩ ، وكليرمونت سنة ٥٣٥ ، و باريس سنة ٥٥٧ . وقد غالى شارل مارتل فى هذه السياسة ، حتى أخذ ينعم بالوظائف الأسقفية على المخلصين من أتباعه و بذلك وضع أساس سابقة اتبعها بقية ملوك الجرمان فى غرب أور با فيما بين القرنين السادس والعاشر . ففى ألمانيا دأب أوتو العظيم ثم ابنه وحفيده ومن بعده على التحكم فى شغل الأسقفيات الشاغرة فى الإمبراطورية[٣] . وفى انجلترا جاء وقت أصبح معروفا أن القصر الملكى هو أسهل طريق للوصول إلى كرسى الأسقفية . . . وهكذا فى بقية بلاد الغرب .

على أنه لم يوجد فى القانون الكنسى ماينص على حق الملك فى تعيين الأساقفة مما شجع رجال الدين المصلحين على معارضة هذا التقليد . وقد رأينا كيف وضع هلدبراند مسألة منع التقليد العلمانى على رأس قائمة إصلاحاته ، الأمر الذى أوقع البابوية فى صراع طويل مع الامبراطورية ، وهو الصراع الذى انتهى أخيرا بإقرار حق البابوية كاملا فى تقليد الأساقفة وحرمان الحكام العلمانيين من كل حق فى هذا التقليد[٤] . ولكن هذا الحل لم يضع نهاية لمشكلة تعيين الأساقفة ،

(1) Ullmann : The Growth of Papal Government; p. 408.
(2) Cam. Med. Hist. I; p. 152 & Ullmann : op. cit.; p. p. 48-??
(3) Fliche: L'Europe Occidentale; p. p. 121-122.
(4) Ullmann : The Growth of Papal Government: p. p. 205-261.

لأنه بقى إشكال آخر هو تحديد الهيئة التى تقوم بانتخاب الأسقف ليعتمد البابا ذلك الاختيار ويقلد الأسقف مهام منصبه(١). وكانت هــذه الهيئة غير محددة عند بداية القرن العاشر، إذ تألفت من قساوسة الأسقفية ورعيتهــا ، حتى جاء البابا جريجورى السابع (هلدبراند) فاتجهت سياسته نحو الإبقاء على هذا العنصر الشعبى فى اختيار الأساقفة ليكون قوة مضادة لنفوذ الأمراء والحــكام العلمانيين ؛ واكتفى جريجورى السابع بأن يقسم الأساقفة للبابا يمين الولاء والطاعة(٢) . على أنه يبدو أن دائرة الأشخاص الذين لهم حق اختيار الأسقف ضاقت بعد ذلك فى القرن الثانى عشر، حتى أصبح هذا الحق مقصوراً على القساوسة الذين يرتبطون بالــكرسى الأسقفى ارتباطا مباشراً . ثم كان أن تم بعد ذلك — فى المجــامع البابوية التى عقدت بروما سنة ١١٧٩ ، وسنة ١٢١٥ — تحديد قواعد اختيار الأساقفة ، فنص المجمع الأول على ألا يقل عمر المعين فى هذه الوظيفة عن ثلاثين سنة وأن يكون متعلما وذا شخصية تتناسب مع جلال وظيفته(٣) . أما المجمع الثانى فقد حدد طرق انتخاب الأساقفة ، واحتفظ البابا انوسنت الثالث للبابوية بحق رفض الاختيار إذا كان المرشح غير لائق للوظيفة . بل إن هذا البابا لجأ إلى تعيين بعض الأساقفة بطريق مباشر لإثبات حق البابوية فى اتخاذ مثل هذا الإجراء ، وحسبنا ما فعله من رفض مرشح رجال الدين ومرشح ملك انجلترا لشغــل وظيفة رئيس أساقفة كانتربورى سنة ١٢٠٧ ، واختار لذلك رجلا ثالثاً هو ستفن لانجتون(٤) .

---

(1) Cam Med Hist , vol 6, p. 530

(2) Ullmann : The Growth of Papal Government; p p. 296-297.

(3) Eyre : op. cit.; p. p. 224-225

(4) Adams : The Hist. of England; p 416.

التنظيمات الديرية :

ظهر الاتجاه نحو العزلة والانقطاع للعبادة فى تاريخ معظم الأديان الكبرى التى عرفتها البشرية ، ولكن هذا الاتجاه لم يترك أثرا فى الحياة العامة مثلما ترك فى العالم المسيحى الأوربى فى العصور الوسطى(١) .

وقد سبق أن أشرنا إلى ظهور الديرية وانتشارها فى غرب أوربا(٢) . وهنا نكرر أن القديس بندكت لم يكن مبتكر النظام الديرى فى المسيحية ، وإنما سبق أن ظهر هذا النظام فى بلاد الشرق الأدنى المسيحية وانتشر بين ربوعها ، ومنها انتقل بعد ذلك إلى الغرب . وقد اجمعت المراجع على أن مصر هى البلد الأول الذى طبقت فيه المسيحية نظام العزلة والانقطاع للعبادة(٣) . فعلى ضفاف النيل باشر أقباط مصر نهجين من الانقطاع للعبادة، يتمثل الأول فى الرهبانية الانفرادية المطلقة التى باشرها القديس أنطون ، والتى انتشرت بعد ذلك فى مصر والشام وأسهمت إلى حد واضح فى نشر المسيحية فى الشرق ؛ فى حين يتمثل الثانى فى الديرية الاجتماعية ، التى ارتبطت بالقديس باخوم صاحب أول مؤسسة ديرية فى مصر العليا ، والذى نجح قبل وفاته سنة ٣٤٨ فى تأسيس تسعة أديرة للرجال وواحد للنساء ضمت جميعها بضعة آلاف من الديريين(٤) .

وهذا النوع الأخير من أنواع الانقطاع للعباده هو الذى قدر له البقاء والاستمرار ،فانتشر إلى الشرق اليونانى حيث ظهرت الأديرة الباسلية نسبة إلى مؤسسها القديس باسل (٣٢٩ — ٣٧٩) اسقف قيصرية فى كبادوكيا . وقد أسس باسل مؤسسة ديرية كبرى قرب قيصرية ضمت ملجئا ومستشفى

---

(1) Workman : The Evolution of the Monastic Ideal; p p. 1-5

(٢) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ١٤٦ وما بعدها .

(3) Workman : op. cit., p. 86.

(4) Howell-Smith : op. cit.; p. 070,

ومدرسة لتعليم الصغار . ولم يلبث أن انتشر نظامه ، حتى زاد عدد أتبـاعه قبل وفاته على ثمانين ألفا ، كما أصبح هذا النظام بمثابة حجر الزاوية فى الديرية الشرقية . وهنا نلاحظ أن الديرية الباسلية غلب عليها طابع التأمل والعبادة والزهد فضلا عن قلة العمل وضعف الانتـاج الحضارى ، بخلاف ما أصبحت عليه الديرية فى الغرب[١] .

أما فى الغرب فإن الديرية لم تصبح قوة فعالة فى المجتمع الأوربى إلا على عهد القديس بندكت فى القرن السادس[٢] . حقيقة إن غرب أوربا عرف الرهبانية الانفرادية والديرية الاجتماعيـة قبل ذلك العصر ، بل منذ سنة ٣٤٠ عندما وصل أثناسيوس إلى روما وبصحبته اثنان من الرهبان فرارا من الاضطهاد الأريوسى ، ولـكن الديرية لم تصبح عندئذ قوة فعالة ذات شأن كبير فى تطور الحياة الأوربية . وكل ما هنالك هو أن الحياة الديرية انبعثت من روما لتنتشر فى جميع أنحاء إيطاليا بل غاليا وشمال أفريقية[٣] .

وعلى هذا الأساس لا يمـكننا القول بأن القديس بندكت هو صاحب الفضل فى تأسيس النظام الديرى فى المسيحية ، وإن كان هو صاحب الفضل فى التقدم بهذا النظام ووضع القواعد والأسس التى أثرت فى مستقبله ، حتى أن حياته تعتبر نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الديرية ونظمها[٤] . ويمكننا إجمال ما فعله بندكت فى أنه اقتبس من النظم القائمة ما هو صالح فعلا وما يلائم ظروف البيئة الغربية . وأول طابع للنظام البندكتى هو ما امتازت به الحياة داخل الدير من روح اجتماعية نتيجة لاشتراك مجموعة من الديريين فى حياة منظمة أساسها الاشتراك والتعاون فى العبادة والعمل والنشاط . فالنظام البندكتى ابتعد تمـاما عن فـكرة

(1) Idem, p. 677.
(2) Eyre : op. cit. p. p. 227-228.
(3) Howell-Smith : op. cit ; p. 678.
(4) Workman . op cit.; p. 139.

الرهبانية الانفرادية التى عرفها الشرق ، وبذلك أصبحت الديرية الغربية لاتعرف إلا النظام الاجتماعى التعاونى، مماترك أثراً بعيداً فى المجتمع الأوربى[١] . أما الطابع الثانى للنظام البندكتى فهوأن أعضاء الدير كان عليهمأن يظلوا مدى الحياةمرتبطين بالمجتمع الديرى الذى دخلوه مختارين . وهذا النوع من الاستقرار جعل الدير البندكتى بمثابة مؤسسة مسئولة عن نزلائها حتى مماتهم ، فتقوم هذه المؤسسة بالاعتماد على نفسها فى سد حاجاتها ورعاية شئونهادونأن ترتبط بغيرها من الهيئات أو الأديرة الأخرى . وقد تطلب هذا الوضع أن يكون للدير البندكتى رئيس يشرف عليه و يتمتع بالسلطة المطلقة العليا فى إدارة شئون الدير ، و يلتزم له بقية الأعضاء بالطاعة العمياء[٢]. لذلك نص النظام البندكتى على أن يختار أعضاء الدير رئيسهم ، ولهذا الرئيس أن يستشير هؤلاء الأعضاء فى مختلف المسائل التى تهم المجموعة ؛ على أن يكون له وحده الرأى النهائى والقرار الأخير ليصبح المسئول الأول — فى الدنيا والآخرة — عن صالح الدير ومن بداخله من أعضاء[٣].

وهكذا يبدو الفارق واضحاً بين الدير البندكتى و بين بقية المنظمات الديرية السابقة. فالدير البندكتى كان مجتمعا صغيرا مستقلا ، ربطت أعضاءه رغبة مشتركة فى تكريس أرواحهم وأبدانهم لنوع معين من الحياة . وفى سبيل تحقيق هذه الغاية نبذوا الملكية الفردية نبذاً تاماً، ودانوا بالطاعة العمياء لرئيس الدير ، وعاشوا سويا كأسرة واحدة حتى الممات[٤] . وهنا نلاحظ أن النظام البندكتى لم يحاول مطلقا أن يجعل من نفسه منظمة عسكرية ، وظل دائما أقرب إلى الحياة الاجتماعية المعتدلة . كذلك نلاحظ أن الديرية البندكتيه تجنبت التطرف وظلت بعيدة عن حياة الصرامة والخشونة التى اشتهرت بها الرهبانية الشرقية فى وقت ما ، بحيث

---

(1) Eyre : op. cit ; p. 220.
(2) Workman : op. cit. p. p. 140-147.
(3) Eyre : op. cit ; p. 220.
(4) Workman : op. cit ; p. 140.

أن الراهب البندكتى كان يحيا حياة لاتختلف كثيرا فى مستواها عن حياته العادية لو قدر له أن يبقى خارج سلك الديرية[١]. والفارق الوحيد بين الحياتين هو الشعور الدينى الذى سيطر على الحياة الديرية سيطرة تامة. ومع أن العبادة المشتركة تمثل المظهر الأساسى لحياة الرهبان داخل الدير البندكتى، إلا أن هذا النظام امتاز بمظهر آخر لايقل أهمية، وهو اشتراك الرهبان فى العمل الزراعى وغير الزراعى لاعتقاد بندكت فى أن « الكسل عدو الروح »، حتى فاقت الساعات المخصصة للعمل تلك المحدودة للعبادة. ولعل خير ماقاله بندكت فى هذه الناحية هو مثله المعروف « العمل عبادة Laborare est orare[٢] ».

وقد ظل النظام البندكتى يمثل أكبر قوة فعالة فى الحياة الديرية فى العصور الوسطى، بل إنه يمثل ثورة كبرى فى تلك الحياة. ويكفى أن هذا النظام أعرض عن حياة الزهد والتقشف ونبذ مبدأ التطرف فى حرمان الجسد، فى الوقت الذى لم يجعل الرهبان يوجهون كل نشاطهم نحو التأمل والعبادة ويهملون العمل والإنتاج[٣]. وهكذا جاء هذا النظام ملائماً من جميع الوجوه للحياة الغربية فى العصور الوسطى، الأمر الذى أدى إلى انتشاره انتشارا سريعا واسعا فى مختلف أنحاء الغرب الأوربى[٤].

على أن نجاح النظام البندكتى لا يرجع فقط إلى المزايا العديدة التى امتاز بها بالقياس إلى فوضى الحياة الديرية فى العهود السابقة؛ وإنما يرجع هذا النجاح أيضا إلى ارتباط ذلك النظام الديرى بثلاث حركات كان لها شأن كبير فى العصور الوسطى. أما هذه الحركات التى ربط النظام البندكتى نفسه بها فأولاها حركة نمو البابوية وتطورها، وثانيتها الحركة التبشيرية الواسعة التى قامت بها الكنيسة الغربية، وثالثتها حركة الإحياء الحضارى فى أوربا[٥].

---

(1) Eyre : op. cit ; p. 230 & Workman : op. cit., p. 160.

(2) Workman : op. cit., p. 156.

(3) Howell-Smith : op. cit p. p. 680-681.

(4) Cam. Med. Hist., vol. 5, p. 658.

(5) Workman : op. cit., p. 162.

على أنه يلاحظ أن الفكرة الأساسية فى التنظيم البندكتى قامت على أساس الاستقلال الذاتى لكل دير ، فيكفى الدير نفسه بنفسه و يصبح مأوى دائما لأعضائه ، يعيشون داخله فى شبه عزلة تامة عن غيرهم . ومن الواضح أن لهذا الاتجاه محاسنه وعيوبه ، فهو من ناحية يكفل لأهل الدير قدراً كافياً من حرية التطور ، ولكنه من ناحية أخرى يؤدى إلى الحد من نفوذ الحياة الديرية ، و يجعل أثرها سلبيا فى المجتمع الإنسانى الكبير(١) ، هذا إلى أن عزلة الدير البندكتى عرضته فى كثير من الأحيان للانحلال والتدهور ، حتى يقال إن اثنين من رهبان دير فارفا Farfa قتلا مقدم الدير سنة ٩٣٦ وفرضا سيطرتهما على الدير حيث عاشا عيشة أقرب إلى الأمراء ، فصار لكل منهما زوجته وأولاده وأتباعه الذين ينعمون بخيرات الدير وضياعه(٢) . فإذا أضفنا إلى ذلك أن عزلة الدير البندكتى لم تمكنه من حماية نفسه واستقلالة ضد تدخل السلطة العلمانية ، لا سيما فى العصر المظلم الذى أعقب تفكك امبراطورية شارلمان ؛ أدركنا فى النهاية أن الحياة الديرية فى غرب أوربا أمست عند نهاية القرن التاسع مفتقرة إلى إصلاح شامل سريع يعالج هذه العيوب(٣) .

وكان أن تحققت حركة الإصلاح المنشودة فى القرن العاشر ، وهى الحركة العظيمة التى عرفت باسم حركة الإصلاح الكلونية ، والتى تمثل الدور الثانى فى تاريخ الديرية الغربية . وقد انبعثت هذه الحركة الإصلاحية من غاليا ، ثم أدخلت عليها تعديلات كثيرة فى انجلترا بعد أن أصبح لانفرانك Lanfranc — أستاذ دير بك Bec المعروف — رئيسا لأسقفية كانتربورى فى القرن الحادى عشر(٤) . أما الأهداف الأساسية للحركة الكلونية فكانت ترمى إلى فرض قسط أكبر من الرقابة على أهل الدير ، ووضع حد للتهاون الذى ساد الحياة

---

(1) Eyre : op. cit., 231.
(2) Workman : op. cit , p. p. 233-234.
(3) Howell-Smith : op. cit., p 684.
(4) Workman : op. cit., p. p. 220-223.

الديرية حينئذ ؛ وذلك عن طريق إخضاع جميع الأديرة التابعة للمنظمة الجديدة لإشراف موحد ، فضلا عن تحديد أعباء الحياة الديرية تحديدا واضحاً [١] .

وقد نسبت هذه الحركة الجديدة إلى دير كلونى فى برجنديا ، وهو الدير الذى قام بدور هام فى عمليــة الإصلاح الـكنسى التى أنقذت غرب أوربا من المصائب التى ألمت به فى أشد سنوات العصور الوسطى حلكة وظلاما[٢] . وكان الهدف الأول للزعماء الذين تولوا رآسة دير كلونى هو إصلاح الـكنيسة عن طريق تحريرها من سيطرة الحـكام العلمانيين ونفوذهم . وفى سبيل تحقيق هذه الغاية ، استطاع دير كلونى ـــ الذى لم يكن يمتاز فى أول الأمر عن غيره من الأديرة البندكية العادية — أن يتزعم شبكة مترابطة أو حلفا متماسكا من الأديرة ذات الطابع الخاص[٣] .. وأول مميزات هذا الطابع هو أن الأديرة الـكلونية لم تـكن هيئات مستقلة منفصلة بعضها عن بعض ، وإنما كان يرأسها رؤساء يعينهم مقدم دير كلونى ويخضعون له خضوعا مباشرا ؛ وبعبارة أخرى أصبح دير كلونى بمثابة الدير الأم أو الدير الرئيسى العام فى هذا التنظيم الجديد[٤] . وثمة ميزة أخرى امتاز بها النظام الـكلونى وهى أن جميع الأديرة الـكلونية نجحت فى أن تحرر نفسها من سيطرة الأساقفة المحليين لتصبح المنظمة الديرية الـكلونية تحت سيطرة البابا المباشرة[٥] .

أما عن آثار الحركة الـكلونية فـكانت عظيمة فيما يتعلق باصلاح الـكنيسة وتطهيرها مما كانت تعانيه من انحلال بسبب تدخل رجال السلطة الزمنية فى شئونها[٦] . على أن الذى يهمنا فى هذا المقام هو أثر الحركة الـكلونية فى الحياة

---

(1) Eyre : op..cit ; p 232 .
(2) Fliche : L'Europe Occidentale; p p. 121-124.
(3) Cam. Med. Hist, vol 5; p, p, 662-664
(4) Howell-Smith : op, cit.; p. 685.
(5) Cam. Med. Hist 5; p 667.
(6) Fliche : L'Europe Occidentale; p, p. 124-127.

الديرية ونظمها . وهنا نجد أن هذه الحركة نفخت فى الحياة الديرية روحا قوية أدت إلى قيام كثير من الأديرة الجديدة بفضل الشخصيات الممتازة التى تولت رآسة دير كلونى مثل القديس أودو (ت ٩٤٣) من ناحية ، و بفضل حماسة الرهبان الكلونيين من ناحية أخرى[١] . ولم تلبث هذه الأديرة إن انتشرت فى شمال غرب أوربا وفى انجلترا نفسها بعد الغزو النورمانى فى القرن الحادى عشر[٢]، بحيث لم يقل عددها عن مائتى دير خضع رؤساؤها خضوعا مباشرا لمقدم دير كلونى. ولا شك فى أن هذه الرابطة القوية بين الأديرة الكلونية تركت أثراً عميقا فى الحياة الديرية فى الغرب . ذلك أن النظام الكلونى اهتم اهتماما خاصا بأن يحيا الديريون حياة زهد ، وأن يحذوا جميعهم حذو أهل دير كلونى فيقللوا من أهمية العمل والساعات المخصصة له داخل الدير و يضاعفوا عنايتهم بالتعبد . وجميع هذه الاتجاهات كان لها أثر فعال فى الحياة الديرية فى غرب أوربا ، حتى فى الأديرة التى لم تدخل دائرة النظام الكلونى[٣] .

على أن عوامل الانحلال والفساد سرعان ما تطرقت إلى الحياة الديرية مرة أخرى ، فأخذ الديريون يحيون حياة مترفة و يسرفون فى تناول الفاخر من الطعام والشراب وارتداء الثمين من الملابس ، فى الوقت الذى جنحوا إلى حياة البطالة والكسل[٤]. هذا فضلا عن أن النظام الكلونى كانت تكمن فيه نقطة ضعف خطيرة هى إلقاء عبء الإشراف على جميع الأديرة التابعة لهذا النظام على كاهل مقدم دير كلونى[٥] . ومعنى هذا التركيز أنه إذا حاد الأخير عن جادة الصواب فإن ذلك يؤدى إلى انحراف بقية الأديرة الكلونية هى الأخرى عن الطريق السوى. وفعلا حدث ذلك فى أوائل القرن الثانى عشر ، عندما انتهت سلسلة مقدمى دير كلونى

---

(1) Cam Med. Hist; vol. 5, p p. 662-663
(2) Eyre : op cit.; p. p. 232-233.
(3) Idem; p. 233.
(4) Howell-Smith : op. cit; p. p 685-68·.
(5) Cam. Med. Hist.; vol. 5; p 664.

المبرزين وبدأت سلسلة أخرى من الرؤساء الضعاف ، فانحل دير كلونى نفسه وتبع ذلك انحلال بقية الأديرة التابعة له[١] .

ولم تلبث هذه الأوضاع أن دفعت فئة من الساخطين الراغبين فى الإصلاح إلى البحث عن حياة أكثر بساطة من حياة الدير الكلونى ، مما أدى إلى مولد أنظمة ديرية جديدة . ومن هذه الأنظمة النظام الكامالدولى Camaldoli[٢] الذى اعترفت به البابوية سنة ١٠٧٢ . وفى هذه المنظمة الديرية كان الرهبان يحيون حياة نسك فى خلايا منفصلة يقضون وقتهم فى التأمل ولا يجتمعون إلا فى أوقات الصلاة المشتركة[٣] . وهناك نظام ديرى آخر أكثر أهمية ظهر فى القرن الحادى عشر هو الكارثوسيان — نسبة إلى صحراء كارتريز — حيث أسس برونو الكولونى أول دير من هذا النوع سنة ١٠٨٤ . وقد امتاز هذا النظام الديرى بالصرامة والتطرف فى حياة الزهد والعناية الفائقة بالتأمل والعبادة الانفرادية[٤] . ومهما كان أمر هذه المنظمات الديرية الجديدة ، ومدى انتشارها وأثرها ، فالمهم هو أنها تمثل رد فعل قوى للمبادئ والمثل الكلونية ، مما يجعلنا نقرر أن الطابع الغالب على الحياة الديرية فى غرب أوربا طوال القرنين العاشر والحادى عشر كان الطابع الكلونى[٥] .

والواقع أن نظام الديرية الكلونية ظلت له السيادة على الغرب الأوربى حتى أوائل القرن الثانى عشر ، عند ما بدأ الدور الثالث فى تاريخ تطور الحركة الديرية فى غرب أوربا . وجاء هذا الدور الجديد أيضاً وليد رغبة خالصة فى إصلاح الأوضاع القائمة ، وهى الرغبة التى انبعثت هذه المرة من دير سيتو Citeaux فى

---

(1) Workman op. cit ; p. p 236.

(٢) كامالدولى جبل منعزل قرب أرزو Arezzo .

(3) Cam Med. Hist.; vol. 5; p 667

(4) Thompson : op cit.: vol. 2; p. 667.

(5) Eyre : op. cit,; p. 233.

برجنديا[١] . وكان دير سيتو هذا قد تم تأسيسه سنة ١٠٩٨ بواسطة جماعة من الرهبان البندكتيين الذين رغبوا فى حياة أكثر خشونة وصلابة من الحياة الديرية السائدة عندئذ . ولم يلبث أن أخذ هذا الدير يرقى ويتقدم بسرعة بفضل العهد أو القانون (Charta Charitati) الذى وضعه ستفن هاردنج (Stephen Harding) الانجليزى ثالث رؤسائه ؛ واستمر ذلك حتى كانت سنة ١١١٥ عند ما التحق القديس برنارد العظيم بذلك الدير[٢] .

ويمكن القول بأن هذا النظام الديرى الجديد الذى عرف باسم السسترشيان Cistercian كان محاولة لاتخاذ طريق وسط بين الاستقلال المحلى الذى تمثل فى الديرية البندكتية ، والمركزية المطلقة التى اتبعتها الديرية السكلونية . لذلك أصبح مقدم دير سيتو هو الرئيس الأعلى لأديرة المنظمة الديرية الجديدة — السسترشيان — وله سلطة زيارة الأديرة التى تفرعت عنه لمراقبتها والتفتيش عليها[٣] . ومن جهة أخرى فإن رؤساء هذه الأديرة كان لهم حق زيارة الدير الأم — سيتو — وتفقد أحواله . وهنا يلاحظ أن كل دير من أديرة السسترشيان كان مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بالدير الذى تفرع عنه فقط دون غيره من بقية أديرة المنظمة[٤] . وفى كل سنة يعقد مجمع عام فى دير سيتو يحضره جميع مقدمى أديرة هذه المنظمة ، ولهذا المجمع سلطة فعالة فى المسائل التى تهم هيئة السسترشيان[٥] .

ومن هذا يبدو أن نظام السسترشيان خول لكل دير سلطة محدودة اختلفت عما تمتع به مقدم الدير البندكتى من نفوذ مطلق ، كما اختلفت عما تعرض له مقدم الدير السكلونى من تبعية تامة لرئيس المنظمة الأعلى[٦] . ولم يلبث نظام

---

(1) Cam. Med. Hist.; vol 5; p. 672.
(2) Workman ; op. cit.; p. 23?
(3) Painter : A Hist. of the Middle Ages; P. 145
(4) Cam. Med. Hist : vol 5; P. P. 673-674.
(5) Workman ; op cit ; P. 243.
(6) Painter : A Hist. of the Middle Ages; P. 145.

السستر شيان أن نما فى سرعة فائقة وانتشر فى جميع أنحاء غرب أوربا بفضل مميزاته الواضحة من ناحية ، وجهود القديس برنارد من ناحية أخرى . ولا غرو ، فإن هذا القديس (١٠٩١ — ١١٥٣) أضحى عند أواخر أيامه أعظم شخصية فى أوربا ، كما كان المستشار والصديق الشخصى للبابا ايوجنيوس الثالث . وأهم القواعد التى اكتملت لنظام السستر شيان على عهد القديس برنارد هى امتياز هذه الحياة الديرية بالبساطة المطلقة ، فروعى فى الأديرة السسترشيانية أن تكون متباعدة وفى مناطق نائية ، وألا تمتلك حقولا آهلة بالاقنان حتى ينصرف الديريون لفلاحة الأرض بأنفسهم . وهكذا أدى الرهبان السسترشيان خدمة كبيرة للحياة الاقتصادية فى أوربا باستصلاح الأرض البور وفلاحتها فضلا عن العناية بتربية الخيول والمواشى[١] . وقد أحرز هذا الفريق من الديريين شهرة كبيرة فى يوركشير بوجه خاص نتيجة لعنايتهم بأصواف الأغنام ، حتى أصبحت تجارة الصوف محور الحياة الاقتصادية فى هذا الإقليم . أما فى برجنديا — حول ديرهم الرئيسى فى سيتو — فقد أصبح السسترشيان يمتلكون أعظم مزارع الكروم وأشهرها . على أن هذا النشاط الاقتصادى وما تبعه من ازدياد ثروة السسترشيان ، سرعان ما أدى إلى تغلب الروح التجارية على هذا الفريق من الديريين ، حتى انساقوا فى الطريق نفسه الذى انزلقت إليه المنظمات الديرية السابقة ، وذلك منذ نهاية القرن الثانى عشر[٢] . وهكذا يمكن القول أنه بوفاة القديس برنارد سنة ١١٥٣ انقضى العصر الذهبى لمنظمة السسترشيان ونظامهم الديرى[٣] .

***

وبعد ، فلعله من الواضح بعد هذا العرض السريع لتاريخ الديرية ونظمها فى غرب أوربا ، أن الطابع الرئيسى للحياة الديرية يكمن فى أنها نبعت من مصدر

---

(1) Workman : op. cit.; P.P 241-244.

(2) Idem; P P. 245-246.

(3) Cam. Med. Hist.; vol. 5; P.P 676-677.

واحد هو نظام القديس بندكت . وعن هذا الأصل تفرعت الغالبية العظمى من الأنظمة الديرية التى عرفتها أوربا العصور الوسطى نتيجة للرغبة فى الإصلاح والتعديل بين حين وآخر[١] . ولا شك فى أن اتساع مجال الحركة الديرية فى أوربا العصور الوسطى وسرعة انتشارها ، وتنوع صورها ، ترك أثراً واضحاً فى جميع مناحى الحياة فى تلك العصور . ذلك أن الديريين صاروا يكونون ركناً كبيراً فى المجتمع الأوربى ، حتى أصبحت تعاليمهم وأعمالهم تمثل جزءاً أساسياً من حياة المجتمع الغربى بأكمله . وحسب الديريين أنهم شاركوا مشاركة فعالة فى عملية البناء والإنتاج التى حفظت للحضارة الغربية كيانها بعد غزوات البرابرة منذ القرن الخامس ، كما بذلوا جهداً مشكوراً فى صيانة هذه الحضارة وسط الكوارث التى لحقت بغرب أوربا فى القرن التاسع . وإذا كان غرب أوربا قد تمتع بنهضة حضارية كبرى فى القرن الثانى عشر فالفضل الأول فى ذلك يرجع إلى الديريين الذين مهدوا لهذه النهضة بجهودهم ومساعيهم[٢] . فنى وسط مظاهر عدم الاستقرار السياسى والاجتماعى التى سادت غرب أوربا فى السنوات المظلمة ، ظلت الأديرة تمثل عنصر الاستقرار الوحيد فى المجتمع الغربى ، وتلا ذلك أن تنقل التراث الحضارى من السلف إلى الخلف . وبعبارة أخرى يمكن القول بأن الأديرة أمدت المجتمع الغربى « بخميرة حضارية » بين القرنين السادس والثانى عشر[٣] . ذلك أنها أصبحت — بحكم استقرارها وسط مجتمع مذبذب متقلب — مركز العلم والدراسة مما جعل ثقافة ذلك العصر ديرية بكل معانى الكلمة . حقيقة إن المقصود بالعمل الديرى الذى نص عليه نظام القديس بندكت هو الفلاحة والعمل الزراعى لا النشاط الثقافى والفكرى ، ولكننا إذا حاولنا وضع سجل لرجال المعرفة والأدب فى العصور المظلمة ، وجدناهم — جميعهم تقريباً — من الديريين . وهكذا نستطيع

(1) Taylor : The Med. Mind; vol.1, P. 375.

(2) Eyre : op. cit ; P 238.

(3) Workman : op. cit.; P.P. 158-162.

أن نؤكدحقيقة قاطعة ،هى أن الأديرة فى غرب أوربا كانت المراكز الأساسية للثقافة والدراسات المتنوعة، فضلا عن الفنون ، فيما بين نهاية القرن الخامس ونهاية القرن الحادى عشر . وحسبنا أن جميع كبار المؤرخين فى تلك الحقبة كانوا من الديريين ، وعلى رأسهم بدى Bede الذى يعتبر بحق رائد فن التدوين التاريخى (historiography) وأبا للمؤرخين الإنجليز فى العصور الوسطى (٦٧٥ — ٧٣٥)[1].

أما التعليم فى ذلك العصر فكان ديريا إلى مدى بعيد، حتى أن برامج الدراسات التى وضعها الديريون فى العصور المظلمة ظلت باقية ليعتمد عليها رجال الجامعات الناشئة فى القرن الثانى عشر . وهنا نشير إلى أن الأديرة البندكتية بوجه خاص كانت بمثابة مدارس عظيمة الأهمية ، فدير مونت كاسينو نفسه أضحى فى القرن الحادى عشر مركزاً أساسياً لدراسة اللاهوت والعلوم الكلاسيكية ، فضلا عن القانون والطب والأدب والنحو[2] . أما ديربك Bec فى غاليا فقد قام بدور فى النشاط العلمى والحضارى يضيق المقام عن شرحه . وإذا كان هذا هو حال الأديرة فى صلب القارة فإن الأديرة الأيرلندية (الكلتيه) أصبحت هى الأخرى فى العصور المظلمة التى أعقبت سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب (سنة ٤٧٦) مركزاً للعلوم الكلاسيكية والمعارف اليونانية ، ومنها امتد ضوء الحضارة إلى غرب أوربا ليثير ما يعرف باسم النهضة الكارولنجية[3] . وقد ظل الوضع على ذلك حتى نشأة النظام الكلونى ، وعندئذ بدأ التعليم فى غرب أوربا ينتقل من أيدى الديريين تدريجياً لانصراف الأديرة الكلونية إلى العبادة وإهمال ماعداها ، هذا وإن ظل أثر التعليم الديرى قائماً مدة طويلة بعد ذلك . وخلاصة القول أنه لولا الأديرة لتناقص التراث الثقافى الذى خلفته لنا أوربا العصور الوسطى إلى حد كبير، لأن الديريين هم الذين حفظوا ذلك التراث من الضياع ، واستمروا يضطلعون

---

(1) Poole : Illustrations of the Hist. of Med. Thoughts P 17-18.
(2) Taylor : The Med. Mind, P. 254.
(3) Workman : op. cit.; P.P. 190-200.

بمهمة تعليم غرب أور با حتى مطلع النهضة الأور بية فى القرن الثانى عشر ، وعندئذ ظهرت الجامعات الأور بية لتحمل لواء العلم والمعرفة[١] . . . .

وهناك ميدان حضارى آخر أسهمت فيه الحركة الديرية بسهم وافر فى أور با العصور الوسطى . ذلك أن مهمة نشر الحضارة اللاتينية والديانة المسيحية ، لم يقم بها كبار الفاتحين من أمثال شارلمان وألفرد العظيم (٨٤٨ — ٨٩٩) وحدهم ، وإنما كانت بعثات الديريين وجهودهم تساند جيوش هؤلاء الغزاة وتسير خلفها لتنشر الحضارة اللاتينية والديانة المسيحية بين الشعوب الوثنية . وحسبنا أن نذكر أن البابا جريجورى الأول (العظيم) صاحب البعثات التبشيرية المعروفة — كان راهبا ، كما أن الأبحاث الحديثة تميل إلى تأكيد الحقيقة القائلة بأن القديس أوغسطين مبعوث جريجورى العظيم الذى حول انجلترا إلى المسيحية فى أواخر القرن السادس كان — هو ورفقاؤه -- من الرهبان البندكتيين[٢] . هذا زيادة عما قامت به الأديرة الكلتية فى ايرلند من جهود تبشيرية واسعة النطاق داخل جزيرتهم ثم خارجها منذ القرن السادس ؛ بل إن رسالة هؤلاء الرهبان لم تقتصر على صلب القارة وإنما امتدت إلى جزر فاروى وايسلاند وغيرها من المناطق النائية[٣] .

على أنه إذا كان الديريون قد عملوا جنبا إلى جنب مع الجنود فى الذود عن الحضارة الغربية ونشر هذه الحضارة بعيدا بين الشعوب الوثنية ، مما طبع حروب العصور المظلمة بطابعها الخاص المميز ، فإن الديرية كان لها أثرها أيضا فى التقدم الاقتصادى والاجتماعى الذى أصابته بلدان غرب أور با فى تلك العصور[٤] . وهنا نلاحظ أن المؤسسات الدينية — وبخاصة الديرية — كانت من أولى الهيئات التى منحها ملوك الغرب كثيراً من الإعفاءات والامتيازات ، حتى امتلكت

---

(1) Adamson : The Legacy of The Middle Ages; P. 258.
(2) Workman : op. cit.; P. P. 172-173.
(3) Idem; P.P. 190-201.
(4) Eyre : op, cit.; P, 240.

الأديرة أكبر نسبة من الأراضى الزراعية فى أوربا العصور الوسطى . ولا شك فى أن هذه الثروة المتزايدة التى هبطت على الأديرة جاءت متعارضة مع مثالية القديس بندكت وآرائه ، كما أنها كانت العامل الأول فى تحريك الرغبة نحو إصلاح الحياة الديرية بين حين وآخر . على أنه إذا كان الديريون قد استغلوا نفوذهم ومكانتهم للحصول على ملكيات واسعة من الأراضى ، فإنه ينبغى ألا يغيب عن بالنا أنهم كانوا فى ذلك العصر يمثلون أقدر الملاك الزراعيين وأكثرهم خبرة وكفاية[١] .

وبعبارة أخرى فإن عناية الأديرة — وبخاصة البندكتية — بالعمل كانت فى حد ذاتها عاملا من عوامل التمدين ومظهراً من مظاهر الانتاج الحضارى والاستقرار السلمى[٢] . وتشهد سجلات الأديرة — وهى السجلات التى أصبحت فيما بعد مصدرا نفسيا من مصادر التاريخ الأوربى فى العصور الوسطى — على مدى العناية والكفاية التى كانت تدير بها الأديرة ضياعها وممتلكاتها الواسعة[٣] . حقيقة إن الفلاح أو العامل الزراعى ظل يعانى فى غرب أوربا حتى القرن الثانى عشر كثيرا من المتاعب التى يعانيها الفلاحون فى كل مكان ، ولكننا على الرغم من ذلك نستطيع الحكم بأن الديريين فعلوا الكثير من أجل السمو بالعمل الزراعى وأضفوا على هذا النوع من العمل مكانة خاصة لم تتهيأ له فى العصور السابقة[٤] . هذا زيادة على أن الديريين فى العصور الأولى كانوا ينتمون إلى مختلف طبقات المجتمع — بما فيها طبقة النبلاء — فكان منهم نسبة غير صغيرة تمتاز بالعلم وطيبة الأصل . ومثل هؤلاء عندما يمسكون الفأس ويعملون فى الأرض كانوا يضربون لغيرهم من الناس فى البيئات المجاورة مثلا فريدا له أهميته فى الحياتين الاجتماعية والاقتصادية .

---

(1) Workman : op. cit ; P P. 155-158.

(2) Boissonnade : Life and Work in Med. Europe; P 69.

(3) Boissonnade : op. cit.; P. 66-69.

(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages; P. 149

أما فى الميدان الصناعى ، فإن كثيرا من الأديرة أضحت مراكز صناعية روعى فيها التخصص فى العمل ، ومن هذه الأديرة دير كوربى الذى كانت به أربع مصانع يدوية صغيرة (ورش) ، ودير سانت ركويير الذى قامت حوله مدينة صناعية تصنع فيها السروج والأسلحة والجلود وغيرها[1] .

وهكذا يبدو لنا أن الدور الذى قام به الديريون فى بناء مجتمع أوربى منظم خلال العصور المظلمة أعظم من أن يقدر فى سهولة .

الحياة الديرية أواخر العصور الوسطى :

يمكننا أن نخرج مما سبق بأن مقدم الدير أو رئيسه أصبح شخصية هامة فى المجتمع العلمانى المعاصر نتيجة للدور الكبير الذى قامت به الأديرة فى الحياة الإقطاعية من ناحية وللضياع الواسعة التى امتلكتها الأديرة من ناحية أخرى . ذلك أن مقدم الدير غدا عضواً بارزاً فى الارستقراطية الإقطاعية ، أو بعبارة أخرى غدا سيدا إقطاعياً كبيراً بكل معانى الكلمة[2] . وعلى هذا الأساس اكتسب مقدمو الأديرة مكانة كبيرة فى مختلف الممالك الغربية التى قامت فيها أديرتهم ، حتى أصبح الملوك يهتمون بأمر تعيينهم ، كما غدا تعيين هؤلاء الرؤساء محور خلاف وجدل وتنافس بين السلطتين الزمنية والدينية . فإذا تم تعيين مقدم لأحد الأديرة الكبيرة فإنه كان بحكم مركزه وإمكانيات ديره يقوم بدور هام فى سياسة الدولة ، بل ربما أصبح من مستشارى الملك وعندئذ يزداد النفوذ الديرى فى السياسة الزمنية . وهكذا أخذ يتحول رؤساء الأديرة إلى شخصيات سياسية ، مبتعدين عن المثل والمبادىء الديرية ، مما أدى إلى فساد الحياة الديرية بأكملها فى أواخر العصور الوسطى[3] .

---

(1) Boissonnade : op. cit.; P. 104.
(2) Eyre : op. cit.; P. 241.
(3) Idem; P. 242.

هذا بالإضافة إلى أن ازدياد الأراضى التى امتلكتها الأديرة أدى فى القرن الثانى عشر إلى تطور المركز الاجتماعى لرهبان الأديرة أنفسهم . ذلك أنه جرت العادة فى الأديرة الكبرى أن تقسم ممتلكاتها بين مقدم الدير و بقية رهبانه ، مما ترتب عليه تحول الديريين إلى ارستقراطية ممتازة من السادة الملاك دون أن يفتح الدير أبوابه إلا لطبقة معينة فقط خشية توزيع أراضيه بين عدد كبير من الأفراد . وقد أثار هذا الوضع شعور كثير من المسيحيين المخلصين الذين ساءهم ما أصبح عليه رجال الدين من ثروة وغنى ، مخالفين بذلك تعاليم المسيحية و بساطتها الأولى ، الأمر الذى ظهر صداه فى الحركات الهرطقية فى القرن الثانى عشر من ناحية ، وفى ظهور منظمات الإخوان الرهبان (Frairs) أو الرهبان الفقراء Mendicant Orders من ناحية أخرى[(١)] .

و يرجع الفضل فى تأسيس منظمات الأخوان الفقراء فى أوائل القرن الثالث عشر إلى اثنين من القديسين ، هما القديس فرانسيس والقديس دومنيك[(٢)] . أما الأول فقد حاول مع أتباعه أن يقتدى بالمسيح فى بساطته ، فنبذوا جميع متاع الدنيا وأخذوا يتنقلون من مكان إلى آخر فى أوربا لوعظ الناس وتبشيرهم بالإنجيل معتمدين على ما يجود به عليهم الخيرون من فتات العيش[(٣)] . ولم تلبث أن نجحت هذه الحركة التى تبلورت فى منظمة الاخوان الفرانسسكان حتى اعترف بها البابا أنوسنت الثالث ؛ ثم كان التصديق على لائحتها سنة ١٢٢٣ . وفى نفس الوقت نشأت منظمة أخرى فى جنوب فرنسا من منظمات الإخوان الفقراء ، وهى الهيئة التى أسسها القديس دومنيك[(٤)] . وقد حاول دومنيك هذا — وهو أسبانى الأصل — أن يقنع الهراطقة فى جنوب فرنسا وشمال أسبانيا بالعودة إلى داخل

---

(1) Cam. Med. Hist.; vol. 6; P. 727.
(2) Workman; op. cit.; P. 271.
(3) Idem; P. P. 282-288.
(4) Cam. Med. Hist.; vol. 6; P 737.

حظيرة الكنيسة الغربية ، وذلك عن طريق الوعظ والتبشير[١] . لذلك اتبع مع أتباعه أسلوب الفقر المطلق نفسه ، فاستقر جماعة منهم فى تولوز سنة ١٢١٦ واعترف البابا هونريوس الثالث بهيئتهم بعد قليل[٢] .

ولكن لم تلبث هيئات الإخوان الرهبان — وبخاصة الفرانسسكان والدومينكان — أن ازداد نفوذها ، وتكاثرت مؤسساتها ، وتخلت عن مبادئها الأولى فى الفقر والتقشف[٣] ، لتلعب دوراً عظيما فى الحياة الأوربية أواخر العصور الوسطى ولا سيما فيما يتعلق بالنشاط الفكرى المرتبط بنشأة الجامعات[٤] فضلا عن النشاط التبشيرى بين المغول فى آسيا[٥] ؛ حتى أطلق على القرنين الثالث عشر والرابع عشر « عصر الإخوان الرهبان (الفرير) ».

---

(1) Eyre : op. cit.; P. 243.

(2) Workman : op. cit.; P. 270.

(3) Boissonnade : op. cit; P. 244.

(4) Taylor : The Med. Mind, vol. 2; P.P. 416-417.

وأنظر كذلك كتاب الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى للمؤلف (تحت الطبع) .

(5) Painter : A Hist. of the Middle Ages; P. 321.

الباب الثانى

النظام الاقطاعى

نشأة النظام الاقطاعى وتطوره :

رأينا فى الجزء الأول من هذا الكتاب ما كان من قيام امبراطورية شارلمان العظيمة ، ثم تفكك هذه الامبراطورية فى القرن التاسع . والواقع أنه يمكن تفسير هذا التفكك السياسى فى ضوء الانحلال الاجتماعى الذى أصاب جوف الامبراطورية من جهة ، ثم فى ضوء الهجمات الهدامة التى تعرضت لها الامبراطورية من الخارج من جهة أخرى(1) . أما عن حركة الانحلال الداخلى فهى حركة معقدة ، جرى العرف على تسميتها التطور الإقطاعى ، وهو اصطلاح معقد مبهم ، بل هو أكثر تعقيداً وإبهاما مما يظن الكثيرون .

ذلك أن التطور الإقطاعى يرتبط ارتباطاً قوياً بالحياة الأوربية فى العصور الوسطى من النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية بل الدينية ، الأمر الذى يجعل علاج موضوع هذا التطور أمراً شائكاً عسيراً . ومهما كان الأمر ، فإن النظام الإقطاعى فى غرب أوربا بلغ فى القرن التاسع مرحلة حاسمة حرجة من مراحل نموه وتطوره ، جعلت بعض المؤرخين يعتبرونه مسئولا عن سقوط امبراطورية شارلمان(٢) .

ولكى نفهم نشأة النظام الإقطاعى فى الغرب ، يجب أن نذكر أن البناء

---

(1) Thompson : op. cit.; vol.; P.P. 279-280.

(2) Eyre : op cit.; P. 100.

الاجتماعى لغرب أوربا فى العصور المظلمة جاء نتيجة لتداخل شعوب قبلية — من الجرمان وغير الجرمان — فى محيط سياسى واجتماعى لا يقوم على أسس قبلية. وليس هناك من شك فى أن هؤلاء البرابرة الذين دخلوا الامبراطورية الرومانية جلبوا معهم كثيراً من عناصر التنظيم القبلى ، ولا سيما فيما يتعلق بتقديس رابطة الدم . وهنا نلاحظ أن المجتمع القبلى أبعد دائماً عن أن يكون ديموقراطياً ، لا لأنه يقوم على أساس احترام سلطة رئيس القبيلة أو العشيرة احتراماً مطلقاً فحسب ، بل لأن الفرد ذا العصبية القوية فيه يسود دائماً و يتغلب على ضعاف العصبية . هذا إلى أن استخدام العبيد كان أمراً مألوفاً عند شعوب الجرمان القبلية ، وهذه كلها عناصر لها أهميتها وقيمتها فى التنظيم الإقطاعى[1] .

على أنه يلاحظ من ناحية أخرى أن الملكية تكون دائماً ضعيفة فى المجتمع القبلى ، لأن القوة الحقيقية فى ذلك المجتمع تكمن فى سلطة زعماء القبائل والعشائر . و إذا كانت بعض الملكيات الجرمانية — كالملكية الميروفنجية مثلا — نمت فى غرب أوربا ، فإن هذا النمو جاء نتيجة لتأثر هؤلاء الجرمان بروح الاستقرار والنظريات الرومانية السائدة فى البلاد التى استقروا فيها . ولم يلبث هذا الاستقرار الذى نعمت به القبائل الجرمانية غداة اقتحامها العالم الرومانى أن أثر بدوره فى تنظيمها الاجتماعى ، لأن اتساع رقعة البلاد التى حكمها ملوك الجرمان ، مع انتشار عوامل الفوضى التى سادت ذلك العصر أدت إلى افلات الزمام من أيديهم تدريجياً . وهكذا يبدو أنه فى الوقت الذى هيأت بعض الظروف لملوك الجرمان قدراً متزايداً من السلطان والنفوذ ، اضطر هؤلاء الملوك — تحت ضغط ظروف أخرى — إلى التخلى عن هذه السلطة وذلك النفوذ وتفويضها لمن ينوب عنهم[2] .

وقد يلاحظ القارىء أننا اخترنا فى الأسطر السابقة أن نضرب المثل بملوك دولة الفرنجة عند الكلام عن البذور الأولى للنظام الإقطاعى . والواقع أن هذه

(1) Idem; P. 101.
(2) Idem; P. 102.

الإشارة المقصودة جاءت لأن تاريخ دول الفرنجة فى غاليا يكشف عن كثير من العادات والتقاليد التى يمكن تسميتها إقطاعية والتى تعتبر جذوراً للنظام الإقطاعى(1). فمن المعروف أن محاربى الفرنجة كانوا من المشاة بوجه عام ، وإن اعتاد الملوك والنبلاء أن يمتطوا صهوة جيادهم فى وقت الحرب(2) . واستمر الوضع على ذلك حتى حاول شارل مارتل أن يتوسع فى نظام الخيالة ليجعل جيشه قوة فعالة فى ميدان الحرب ، وعندئذ استكشف أن تعميم هذا النظام يتطلب منه نفقات ضخمة لإعداد ما يحتاج إليه الفارس من حصان ودرع وسلاح ، فضلا عن أن هذا النوع من الفرسان يجب أن يتوافر لهم مورد يعيشون عليه حتى يتفرغوا لشئون الحرب والقتال(3) .. ولما كانت موارد دولة الفرنجة محدودة فى القرن الثامن بحيث لا تفى بكل هذه المطالب ، فإن شارل مارتل لجأ إلى حل يتفق وتقاليد ذلك العصر ؛ فسجل أسماء المحاربين وجعلهم يقسمون له يمين الولاء ثم أعطى كلا منهم إقطاعا يكفى لسد مطالب معيشته على أن يبقى هذا الإقطاع فى حوزته ما دام يقوم بالخدمة العسكرية(4) . وعندما وجد شارل مارتل أنه من الصعب توافر الأرض اللازمة لهذا العدد الكبير من الفرسان ، وأنه لا يستطيع إضعاف موارد الحكومة بتوزيع الأراضى الملكية على الجند ، بدأ يتطلع إلى أراضى الكنيسة ليجبر رجالها على منح إقطاعات من الأرض لجنوده . وعن هذا الطريق تمكن شارل مارتل من التغلب على ما واجهه من صعاب ، فكون جيشاً قوياً من الفرسان استغله فى طرد المسلمين من جنوب غاليا وفى محاربة السكسون فى الشمال . والمهم فى أمر هذا التنظيم الذى وضعه شارل مارتل لجيشه والذى اقتفى أثره فيه ببين القصير ثم شارلمان ، أنه قام على أساس إقطاعى واضح(5) .

---

(1) Ganshof : Feudalism; P. 3.

(2) Painter : A Hist of the Middle Ages; P. 70.

(3) Painter : Med. Society; P. 14.

(4) Ganshof : op. cit; P.P ; 16-17.

(5) Stephenson : Med. Feudalism; P. 11.

و إذا كانت بذور النظام الإقطاعى قد ظهرت فى دولة الفرنجة فى القرن الثامن فإن الظروف التى تعرضت لها هذه المماـكة بوجه خاص وغرب أوربا بوجه عام فى القرن التاسع ساعدت على نمو هذا النظام وتفرعه . ذلك أن الحروب العنيفة التى قامت بين لويس التقى و ابنائه ، والتى استمرت بين الأبناء بعد وفاة أبيهم كانت فى حد ذاتها كافية لأن تثير جواً من الفوضى أصبحت فيه الكلمة الأخيرة لقوة السلاح وحدها . ثم جاءت الأخطار الخارجية لتزيد من اضطراب الأوضاع، لأن إغارات الفيكنج والمسلمين والمجريين على غرب أوربا ووسطها فى القرن التاسع جعلت أهالى القرى والمدن والمؤسسات الدينية لا يأمنون على أنفسهم إلا فى ظل القوة المسلحة[1] . وفى هذه الأوضاع القلقة أصبح لزاما على الرجل العادى الحر أن يختار أحد طريقين ؛ فإما أن يصبح جنديا و إما أن يصبح قنا ، لأنه لا يستطيع البقاء بمفرده دون سيد قوى يحميه و يذود عنه . وهكذا أخذ الملوك وكبار الأمراء وملاك الأراضى يبحثون عن أتباع مسلحين يساعدونهم فى التغلب على ما واجههم من أخطار ؛ و بعبارة أخرى لجأ كل من يمتلك أرضاً أكثر من حاجته وحاجة أسرته إلى منح هذه الزياده — على هيئة اقطاعات — لاتباع له من الجنود[2] . أما صغار ملاك الأراضى فقد دفعتهم هذه الفوضى الشاملة التى تعرض لها غرب أوربا فى القرن التاسع إلى الدخول فى حماية من هم أقوى منهم وأقدر على الذود عنهم ، فيسلم المالك الصغير أرضه لسيد قوى ، ثم يعود فيتسلمها منه كإقطاع ، و بذلك يصبح فصلا أو تابعاً إقطاعياً له . وكان يحتفل عادة بقيام علاقة إقطاعية بين سيد وفصله فى حفل بسيط ، فيركع الفصل أمام سيده الإقطاعى و يضع يده بين يديه ، ثم يقسم على أن يظل تابعاً أميناً له و يؤدى كافة الخدمات والالتزامات الإقطاعيـة المتنوعة المفروضة على الإقطاع ، و يسمى هـذا القسم « يمين الولاء homagium » . و بعد ذلك يناوله السيد الإقطاعى حفنة من التراب إشارة إلى

(1) Thompson : op. cit.; vol. I; P. 279.
(2) Fliche : L'Europe Occidentale; P.P. 162-163.

أنه سلمه الإقطاع فعلا[١] . كما يسلم لفصله علماً وعكازاً وبراءة تثبت أوصاف الأرض الممنوحة ومساحتها ؛ وتسمى هذه العملية « التقليد investitura [٢] ».

وهكذا أخذت تتكون فى القرن التاسع طبقة من السادة الإقطاعيين والأفصال ، فأصبح المحارب أو الفارس الصغير الذى لا يمتلك من الأرض إلا قدراً بسيطاً فصلا لمالك أكبر — ربما كان كونت الإقليم … ، فى حين صار هذا الكونت فصلا لمالك أعظم ، قد يكون الدوق او الملك . على أن هذا النظام الهرمى الذى كان الملك فى قمته والفارس العادى فى أسفله ، لم يكتمل بناؤه بالصورة التى قد نتصورها فى القرن التاسع ، إذ ظلت هناك كثير من أراضى الملكيات الحرة (allods) التى لم تدخل ضمن التنظيم الإقطاعى منتشرة فى غرب أوربا حتى . حتى القرن الثانى عشر[٣] .

وهنا ينبغى أن نلاحظ أنه لم تكن هناك أية غضاضة فى تلك العصور فى أن يكون الفرد فصلا لغيره ، لأن هذا الفصل كان بدوره سيدا لمن هو دونه فى الدرجة فضلا عن أن هذه التبعية الاقطاعية تعنى أن صاحبها عضو فى طبقة المحاربين ، وتبعا لذلك يتصف بأخلاق الشجاعة والكرم والمروءة وهى الصفات التى عرف بها فرسان العصور الوسطى[٤] .

ومن الواضح أن عملية التطور الإقطاعى تعنى تنازل السلطة المركزية فى الدولة عن حقوقها وواجباتها بسبب ضعفها وعجزها عن مواجهة الأخطار المحيطة بها ، مما دفع الملك إلى اختيار بعض ذوى النفوذ والبأس لينعم عليهم بحقوق وامتيازات فى مناطق معينة مقابل شروط خاصة[٥] . لذلك لا ينبغى أن يقتصر تفسيرنا لهذه

---

(1) Painter ; A Hist. of the Middle Ages; P. 112.
(2) Cam Med. Hist ; vol 3; P. 450.
(3) Ganshof : op. cit ; P. 115 & Painter : Med. Society; P. 10.
(4) Stephenson : Med. Hist ; P. 234.
(5) Fliche : L'Europe Occidentale; P.P. 162-163.

العملية على جانبها الإقتصادي لأنهــا تمس فى الواقع جميع أركان النظام السياسى فى الدولة . فإذا أعلن الملك مثلا تنازله عن حق جباية الضرائب فى منطقة معينة لسيد معين ، فليس معنى ذلك أن الفلاحين فى هذه المنطقة استراحوا من عبء هذه الضرائب ، لأن الذى حــدث فعلا هو أنهم استمروا يدفعون الضرائب المقررة نفسها ولــكن للسيد الذى عينه الملك . وهكذا أصبح هذا السيد صاحب السيادة المباشرة وصاحب الحق فى الحصول على الالتزامات المفروضة على هؤلاء الفلاحين[١] . ومثل هذا الوضع يمكن أن يقال عن العدالة والقضاء ، لأن تنازل الملك عن حقوقه القضائية فى منطقة معينة من بلاده لفرد من أفصاله ، يعنى قيام هذا الفرد بما كان ينبغى أن تقوم به السلطة الملــكية فى هذا الميدان ، فضلا عن قيامه بجمع الرسوم القضائية من المتقاضين ؛ بمعنى أن الإقطاع كان يمثل أيضا وحــدة قضائية يتمتع فيها السيد الإقطاعى بحقوق قضائية واسعة على أفصاله[٢] . أما فى الجانب الحربى فإن المنح الملــكية الإقطاعية كانت تأتى مشروطة غالبا بأن يقوم الشخص المنعم عليه بمساعدة الملك ومناصرته فى وقت الحاجة . ومعنى ذلك أنه إذا كان الملك ينتظر معونة أفصاله الــكبار ، فإن هؤلاء الأفصــال لا بد أن يعتمدوا بدورهم على أفصالهم فى الحصول على هذه المعونه[٣] .

وهنا نلاحظ أن الــكنيسة قامت بدور كبير فى هذه العملية الطويلة المعقدة . ذلك أن كبار ملاك الأراضى من الديريين ورجال الأكليروس كانوا يتمتعون بمكانة سامية فريدة فى المجتمع ، الأمر الذى أحاط أشخاصهم وممتلــكاتهم بمسحه من القــدسية . لذلك كان معظم المنح التى أنعم بها ملوك الجرمان من نصيب الأسقفيات الــكبيرة ، ثم الأديرة العظيمة فيما بعد ، حتى يــكتسب هؤلاء الملوك

(1) Lyre : op. cit.; P. 102.

(2) Thompson : op. cit.; vol. 1, P 348.

(3) Ganshof : op. cit., P. 79.

تأييد رجال الدين وعطفهم[١] . ولكن يلاحظ فيما يتعلق بالإقطاعات الكنسية والديرية أنها كانت تعفى فى معظم الحالات من الواجبات والالتزامات الاقطاعية ، ويكتفى بأن يقوم أفراد الهيئة الدينية المنعم عليها بالإقطاع بالدعاء للواهب أو الترحم عليه . هذا إلى أنه كان يحدث فى كثير من الحالات أن يفى مقدم الدير أو الأسقف بالالتزامات العسكرية المفروضة على الإقطاع عن طريق توزيع جزء منه — أو كله — على أفصال جدد ينهضون بأعباء هذه الإلتزامات[٢] .

وكانت أهم مظاهر تطور العلاقات الاقطاعية بين السادة الاقطاعيين وأفصالهم هى تحول الإقطاع إلى منحة وراثية بعد أن كانت هذه المنحة فى أول أمرها مؤقتة أو مرهونة بمدى الحياة . ومن الواضح أن هذه الخطوة جاءت نتيجة طبيعية لتعذر منع ابن الفصل من الاستيلاء على أقطاع أبيه بعد وفاته . وقد حدث عند ما أزمع شارل الأصلع السفر إلى روما ليتوج امبراطوراً أن أصدر مرسوماً بأنه فى حالة وفاة أحد أفصاله فى غيابه فإن ابن ذلك الفصل له الحق فى الاستيلاء على إقطاع أبيه[٣] . وهنا نلاحظ أن الالتزامات المفروضة على الفصل ظلت رهناً بمشيئة السيد الاقطاعى طالما كان الاقطاع غير دائم ولا يورث ، أما وقد اتخذ الإقطاع صفة وراثية ، فإن هذه الالتزامات اتخذت شكلا ثابتاً بموجب عقد عرفى حدد الحقوق والواجبات المتبادلة بين السيد وأفصاله . وثمة ملاحظة أخرى على مبدأ توريث الإقطاع ؛ وهى أن الإبن الأكبر وحده كان له حق الاستئثار بوراثة الإقطاع . حقيقة إن الأرض يسهل تقسيمها ، ولكن الإقطاع كان وظيفة ، والوظيفة لا تقسم . فالإقطاع بمعناه وأهميته الحربية التى تقوم على أساس المسئولية الشخصية ، يعتبر وظيفة ، ولذلك حرص القانون الإقطاعى — بخلاف القوانين الرومانية والجرمانية — على أن ينص على انتقال الإقطاع كاملا فى حالة وفاة صاحبه إلى أكبر أبنائه . ومن الواضح أن الذى كان يورث فى هذه الحالة هو حق الحصول على الإقطاع تحت

(1) Eyre : op cit ; p p, 240-242.
(2) Stephenson : Med Hist.; p 237.
(3) Painter : Med. Society ; p. p. 16-17.

شروط معينة . فالإبن الأكبر أو الوريث ليس له حق شرعى فى الحصول على إقطاع أبيه ، إلا إذا أدى فروض الولاء والتبعية للسيد الإقطاعى (١) .

الحقوق والواجبات الإقطاعية :

اختلف النظام الإقطاعى فى نشأته من مكان إلى آخر فى غرب أوربا وفق الظروف والملابسات ، ولكنه قام فى جوهرة على أساس العلاقة الشخصية التى ارتبطت بحيازة الأرض (٢) . ذلك أن المتمتع بالأرض كان يتعهد بالتزامات معينة لسيده الإقطاعى مقابل تعهد السيد بالتزامات أخرى لفصله ، و بعبارة أخرى فإن كلا من الطرفين كانت له حقوق وعليه واجبات قبل الطرف الآخر . وهنا نلاحظ أن النظام الإقطاعى لم يعترف فى بداية تطوره بملكية الأفراد للأرض ملكية مطلقة ، لأن الملك كان — من الناحية النظرية — هو المالك الفعلى لجميع أراضى المملكة ؛ و إن كان الثابت من الناحية العملية أن لكل أرض سيدها حتى قيل « لا توجد أرض بلا سيد Nulle terre sans seigneur » (٣) . ومهما كان الأمر ، فإن العلاقة المتتابعة بين السادة الاقطاعيين وأفصالهم لم تتطلب نوعاً من الالتزامات الشخصية فحسب ، بل ترتب عليها ايضاً حقوق عامة والتزامات سياسية ، لأنه إذا كانت الوظيفة الأساسية لحكومات العصور الوسطى هى القيام بأعباء الحرب والعدالة ، فإن هاتين المهمتين نظمتا على أساس اقطاعى بحت فى أوربا العصور الوسطى (٤) . وتتضح الحقيقة كاملة بشرح الحقوق والواجبات الإقطاعية .

أما السادة الإقطاعيون فكانت لهم حقوق على أفصالهم ، وهى حقوق أصبحت بمثابة مهام أو التزامات ملقاة على عواتق الأفصال وتجب عليهم تأديتها والوفاء بها

---

(1) Stephenson : Med Hist ; p. 236.
(2) Ganshof : op. cit.; p·XVI.
(3) Eyre : op. cit.; p. 247·
(4) Fliche : L'Europa Occidentale ; p. p. 166-166.

فى حدود ما قضى به العرف الإقطاعى . وقد تنوعت هذه الالتزامات المفروضة على الأفصال تجاه سادتهم الإقطاعيين ، فظهر منها ما هو حربى وما هو مالى .وما هو اجتماعى ... إلى غير ذلك من أنواع التكاليف التى نهض بها الأفصال مقابل ما حصلوا عليه من حماية[١] .

ومن الطبيعى أن يكون التعاون فى ميدان الحرب هو المحور الأساسى للعلاقات الإقطاعية بين السيد وأفصاله ، لأن المهمة الأولى للسيد الإقطاعى كانت حماية أفصاله وأراضيهم ، فى حين كان الواجب الأول على هؤلاء الأفصال هو الخدمة فى جيش سيدهم[٢] . وهكذا أصبح المجتمع الإقطاعى يدور حول محور واحد هو الفارس المحارب ، فيتعهد الأمير الإقطاعى بالحضور فوراً على رأس عدد معين من الفرسان لمساندة الملك متى طُلب إليه ذلك ، و بالتالى يتعهد أفصال ذلك الأمير بمساندته وقت اشتباكه فى حرب مع عدو له[٣] . ومن السهل علينا أن نكشف مدى مافى هذا النظام من خطر لأنه يجعل كل عضو فى المجتمع الإقطاعى يقدم خدماته العسكرية لسيده المباشر ، حتى ولو قام هذا السيد بحرب تستهدف مصلحة خاصة أو ضد مليك البلاد . ولم يتم التخلص من هذا الخطر نسبياً إلا فى أواخر القرن الثانى عشر عندما نص القانون فى انجلترا ثم فى فرنسا على أن يتعاون الفرسان مع أميرهم الإقطاعى فى خدمة الملك ، ولا يساعدونه فى أى حرب خاصة[٤] .

والواقع أنه لم يكن هناك تحديد فى أول الأمر لمدى الخدمة العسكرية التى يؤديها الفصل لسيده ، وذلك فى الوقت الذى اشتدت إغارات النيكنج وغيرهم من الغزاة على غرب أوربا ، فسادت الفوضى وعظم الخطر وأصبح لزاما على الأفصال

(1) Thompson : op cit.; vol. 2; p. p. 701-702.
(2) Painter : Med. Society ; p. 18.
(3) Stephenson : Med Feudalism ; p. p 27-28.
(4) Eyre : op. cit.; p p. 247-248.

أن يهبوا لحمل السلاح دون قيد أو شرط وقتما يأمرهم سيدهم الإقطاعى[١] . ولكن الأفصال أخذوا — بمرور الوقت — يميزون بين نوعين من الحرب ، الحرب الهجومية والحرب الدفاعية . فإذا أغار عدو أو اعتدى معتد على أملاك السيد أصبح لزاما على أفصاله أن يقاتلوا معه حتى يردوا ذلك العدو . أما إذا قام السيد الإقطاعى بحرب هجومية لتوسيع ممتلكاته أو للاعتداء على ضيعة مجاورة أو حصن قريب ، فإن الأفصال اتجهوا فى هذه الأحوال نحو تحديد التزاماتهم تجاه سيدهم . وهناك شبه قاعدة عامة حددت الحد الأقصى للمدة التى يخدم فيها الفصل سيده فى حروبه الهجومية بأربعين يوما فى السنه[٢] .

ويرتبط بالخدمة العسكرية التى يؤديها الفصل لسيده قيام الأول بنصيبه فى حراسة قلعة السيد[٣] . ولم تكن هناك حصون إقطاعية فى غرب أوربا قبل القرن العاشر ، ولكن هذه الحصون أخذت تنتشر منذ ذلك الوقت حتى أصبح لكل أمير إقطاعى — فى القرن الحادى عشر — قلعة على الأقل يأوى إليها أفصاله وذووهم وقت الخطر ، ويتناوب هؤلاء الأفصال حراستها على مدار السنة . وكان السيد الإقطاعى يولى هذه القلاع اهتماما خاصاً — سواء كانت خاصة به أو بأفصاله — فلا يسمح لأحد من هؤلاء الأخيرين بهدم قلعة أو بناء أخرى إلا بإذن خاص منه[١] . أما المدة التى فرض على الأفصال قضاؤها فى حراسة قلعة سيدهم فقد تراوحت بين ثلاثين وأربعين يوما فى السنة .

وبالإضافة إلى هذه الواجبات الحربية وجدت واجبات أخرى اجتماعية فرضتها طبيعة العلاقات الإقطاعية بين السيد وأفصاله . وكانت هذه الواجبات كثيرة ومتنوعة ، أولها التزام الفصل بالحضور على نفقته الخاصة إلى مقر السيد الإقطاعى عند ما يطلب إليه ذلك . وكانت هناك أغراض متعددة تستدعى توجيه

---

(1) Painter ; Med. Society ; p. 18.
(2) Ibid.
(3) Ganshof ; op. cit ; p. p. 80-81.

هذه الدعوة ، أهمها رغبة السيد فى استشارة افصاله فيما يهم مجتمعهم الصغير من مصالح مشتركة[١] . و يبدو أن مبدأ الشورى هذا كان من المبادئ الأساسية التى سادت المجتمع الإقطاعى ، إلى درجة أن السيد الإقطاعى كان يجمع أفصاله ليأخذ رأيهم فى اختيار زوجة لنفسه أو لابنه أو زوجاً لابنته ، هذا فضلا عن استشارتهم قبل الإقدام على حرب خارجية أو المشاركة فى حملة صليبية مثلا . ومن هنا كان لزاماً على الفصل أن يقدم مشورته لسيده عند طلبها[٢] .

على أنه إذا كان للسيد أن يستشير أفصاله قبل الإقدام على عمل هام ، فإن الفصل كان ملزما بالحصول على موافقة سيده الإقطاعى قبل أن يزوج ابنته لأن هذا الزواج قد يترتب عليه انتقال جزء من إقطاع والد الزوجة — أو الإقطاع كله - - إلى زوجها ، مما يجعل موافقة السيد أمراً ضرور ياً لازماً[٣] . فإذا مات الفصل وترك إبناً صغيراً لا يستطيع النهوض بمهام الإقطاع والتزاماته ، أو ابنة لم تتزوج بعد ، ففى هذه الحالة يعين السيد الإقطاعى أحد أقارب الفصل المتوفى ليقوم بمهمة الوصاية و ينهض بمسئوليات الإقطاع . وقد جرت العادة أن يفضل فى القيام بالوصاية أكبر خال للوريث أو الوريثة نظراً لأنه لا يمتلك أى حق وراثى فى الإقطاع ، بعكس العم ، الذى ربما حاول التخلص من الورثة لتنتقل إليه حقوقهم فى الإقطاع[٤] . وفى كثير من الأحيان كان يتولى السيد الإقطاعى نفسه الوصاية على الوريث وأرضه . فإذا كان الوريث ذكراً ظلت وصاية السيد عليه قائمة حتى يبلغ سن الرشد ، وإذا كانت الوريثة أنثى أصبح واجباً على السيد أن يبحث لها عن زوج مناسب يستطيع أن يفى بكافة الالتزامات المفروضة على الإقطاع[٥] . ولا شك فى أن السيد الإقطاعى كان يرحب كثيراً بهذه الفرصة

(1) Stephenson : Med. Feudalism ; p. p. 30-31.
(2) Painter : Med. Society ; p. p. 21-22.
(3) Idem : p. 24.
(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 111.
(5) Ganshof : op. cit., p. p. 128-129

الأخيرة ، وذلك لأن كل واحد من السادة الإقطاعيين التف حوله عادة بعض الفرسان الشباب الذين يتوقون للحصول على إقطاعات خاصة بهم ، فلم يكن هناك طريق أمام السيد أيسر من أن يزوج أحد هؤلاء الشبان بإحدى وريثات الإقطاع . وقد أصبح هذا الطريق فى الواقع المخرج الوحيد أمام أى فارس بدون إقطاع ليصبح ذا مكانة فى المجتمع الاقطاعى(١) .

أما إذا مات الفصل دون أن يترك وريثاً يخلفه ، فإن اقطاعه ينتقل فى هذه الحالة إلى سيده الإقطاعى عن طريق الاستيراث (escheat) . وعلى الرغم من أن عملية الاستيراث هذه لم تكن شائعة إلا أنها تكررت كثيراً فى العصور الوسطى(٢) .

فإذا تركنا الواجبات الحربية والاجتماعية المفروضة على الأفصال تجاه سادتهم الاقطاعيين ، فإننا نجد أنفسنا أمام عبء ثقيل من الالتزامات المادية أو المالية(٣) . ذلك أنه صار لزاماً على الفصل أن يؤدى لسيده عدة مقررات ومكوس اقطاعية أصبحت بمثابة حقوق ثابتة للسيد . ومن هذه ضريبة الحلوان (relief) ، وهى أشبه شىء بضريبة الميراث أو التركات فى عصرنا الحديث ، وكانت تدفع كلما تولى على الإقطاع وريث جديد من سلالة صاحب الإقطاع المتوفى . ولم تكن هناك قاعدة ثابتة لتحديد قيمة المبلغ الذى يدفعه الفصل فى هذه الحالة ، وإن دلت بعض الشواهد على أن هذا المبلغ كان يساوى — فى معظم الحالات — دخل الإقطاع عن عام كامل(٤) .

وهناك أيضاً ضريبة المعونة (aid) ، وهى فى الواقع أموال يقدمها الفصل لسيده فى مناسبات خاصة . ذلك أنه كان مفروضا أن يحصل السيد الإقطاعى

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages ; p. 111.
(2) Stephenson : Med. Feudalism, p.24
(3) Eyre ; op. cit , p. 248.
(4) Thompson : op. cit., vol. 2, p. p. 702-703

على ما يحتاج إليه من نفقات إضافية أو استثنائية من أفصاله. فإذا وجد وريث الإقطاعي نفسه عاجزا عن دفع ضريبة الحلوان لسيده الأمير الإقطاعي، فإنه لن يجد أمامه في هذه الحالة غير أفصاله ليجمع منهم المبلغ المطلوب. وإذا أسر السيد الإقطاعي في حرب، وجب على أفصاله أن يجمعوا الفداء اللازم لإطلاق سراحه. هذا فضلا عن المناسبات السعيدة التي يتكلف السيد الإقطاعي نفقات طائلة في إحيائها والتي وجب على أفصاله أن يعاونوه في سد هذه النفقات؛ مثل تأهيل كبرى كريماته أو الاحتفال بتدشين أكبر أبنائه فارساً[1]. وكان المتبع في أول الأمر أن يسهم الأفصال في هذه النفقات بتقديم الخبز والنبيذ، ولكن استعيض بعد ذلك بالمال عن هذه المعونة العينية[2]. أما إذا أزمع السيد الإقطاعي القيام بمشروع باهظ النفقات، مثل الشروع في حملة صليبية أو بناء حصن جديد، فإنه لا بد من أن يعتمد في هذه الأحوال على معونة أفصاله. فإذا كان السيد الإقطاعي من رجال الدين - مقدم دير أو أسقف مثلا — فإنه يجد مبررا لجمع المعونة من أفصاله في الاحتفال بتقليد أحد رجال الدين وظيفة جديدة أو في القيام برحلة دينية إلى روما مثلا[3]. وهكذا تنوعت المعونة التي يقدمها الأفصال للسيد الإقطاعي، حتى انقسمت هذه المعونة في القرن الحادي عشر إلى قسمين أساسيين، الأول يشمل المعونة التي يفرضها السيد الإقطاعي على أفصاله كحق ثابت له بمقتضى العرف والتقاليد، والثاني المعونة التي يطلب السيد من أفصاله أن يجاملوه بها دون أن يكون فيها شيء من الإلزام[4].

ولم تقتصر الالتزامات ذات الصبغة الاقتصادية التي فرضها العرف الإقطاعي على الافصال على الحلوان والمعونة، وإنما وجدت ضريبة أخرى هي ضريبة «الضيافة». ولم تكن هذه الضريبة محدودة في أول الأمر، إذ كان على

(1) Stehpenson· Med. Feudalism ; p 30
(2) Painter : Med. Society ; 23.
(3) Stephenson : Med. History ; p. p. 237-238.
(4) Painter : Med. Society , p. 24,

الفصل أن يكرم سيده وحاشيته فى أى وقت يختار ذلك السيد أن يزور فصله . ولكن ساد الاتجاه — بمضى الزمن — نحو تحديد هذه الزيارات ، فأصبح السيد لا يستطيع زيارة فصله أكثر من عدد معين من المرات فى السنة ، على ألا يصطحب معه فى هذه الزيارات إلا عدداً محدداً من الاتباع والخيول . وفى بعض الحالات حدد العرف الإقطاعى ألوان الطعام التى على الفصل أن يقدمها إلى ضيوفه فى هذه المناسبات(١) .

وإذا كان النظام الإقطاعى يعتبر قبل كل شىء تعاقداً بين السيد وأفصاله على أساس من الحقوق والواجبات المتبادلة ، فإن هذه الفكرة تستلزم وجود حقوق للأفصال تجاه سادتهم الاقطاعيين أو بعبارة أخرى واجبات على هؤلاء السادة تجاه أفصالهم(٢) . حقيقة إن السيد الإقطاعى خرج من هذا التعاقد بنصيب الأسد نتيجة لأنه الطرف الأقوى صاحب النفوذ والسلطان ، ولكن هذا السيد كان مقيداً بقواعد وشروط خاصة والتزامات معينة يعيها ويدركها جميع الناس بحيث لا يستطيع أن يتهرب منها دون أن يدفع ثمناً غالياً . أما أهم الالتزامات التى ألقاها القانون الإقطاعى على كاهل السيد فكانت قيامه بحماية أفصاله ورعايتهم وتحقيق العدالة لهم(٣) . فإذا اعتقد الفصل أن سيده يسىء إليه ، فله أن يطلب عرض قضيته أمام محكمة من انداده ، هذا زيادة على أن الفصل كان يستطيع أن يفسخ العلاقة الإقطاعية ويتحلل من تبعيته إذا ثبت أن السيد الإقطاعى لا ينهض بمسئولياته الأساسية تجاهه(٤) . وبعبارة أخرى فإن الأفصال كانوا فى حل من عدم التقيد بالعقد الإقطاعى والتنصل من التزاماتهم تجاه سادتهم ، مادام هؤلاء السادة قد خرقوا بالتزاماتهم وتجاوزوا الحدود التى يفرضها عليهم العرف الإقطاعى . وكانت هذه العملية ـ عملية سحب الثقة من السيد الاقطاعى (diffidatio) وفسخ

(1) Stephenson : Méd. Feudalism ; p 30
(2) Eyre : op cit.; p. 247
(3) Ganshof : op. cit.; 85.
(4) dem ; p. p. 89-90.

العقد العرفى المعقود معه إذا أخل بأصول واجباته — من المبادىء الأساسية فى التنظيم الإقطاعى ، و بمقتضاه تنصل البارونات الانجليز من ولائهم وتبعيتهم للملك حنا (١١٦٧ — ١٢١٦)(١) . أما إذا حدث العكس وأدين الفصل بأنه أخل بواجباته والتزاماته تجاه سيده الإقطاعى ، فعندئذ كان يحق للسيد أن يحرمه من إقطاعه و يصادره . على أن هذه الحالة كانت قليلة ونادرة ، لأن الحكم بحرمان فصل من إقطاعه كان لا يصدر إلا من محكمة تتألف من أنداد الفصل المتهم ، الذين يجتمعون فى دوار السيد الإقطاعى أو قلعته للنظر فى القضية ومن الواضح أنه لم يكن من السهل أن يصدر هؤلاء الأفصال مثل هذا الحكم على ند لهم ، إذ يخشى كل منهم أن يرى نفسه فى يوم ما فى موقف زميله المحكوم عليه . وهنا نسجل أن الأفصال كانوا فى كثير من الحالات أرجح كفة من سيدهم الإقطاعى ، فإذا اتحدوا ضده فإنه يقف فى هذه الحالة مكتوف اليدين لأنهم جنوده والمصدر الوحيد للقوة التى يستند إليها . هذا إلى أن عقوبة حرمان الفصل من إقطاعه كانت من العقوبات التى يصعب تنفيذها لأن الفصل كان فى هذه الحالة يستميت فى التمسك بإقطاعه و يحاول إلقاء تبعة الخلاف على سيده الإقطاعى ، حتى يحل الاشكال فى النهاية بقوة السلاح(٢) . أما التهمة التى توجه إلى الفصل ولا يرجى له فيها شفاعة أو غفران فهى أن يعتدى على سيده الإقطاعى فيجرحه أو يقتله ، أو يغرى زوجته أو ابنته على المنكر . ذلك أن المفروض فى الفصل أن يحمى سيده الإقطاعى و يذود عنه وعن عرضه ، كما يذود بالضبط عن نفسه و بيته(٣) .

خصائص النظام الاقطاعى وأثره :

من الثابت أن المجتمعات الإقطاعية تباينت فى خصائصها ومميزاتها نتيجة لمدى تركيز الحقوق والوجبات الاقطاعية(٤) . لذلك يبدو أنه من الصعب — فى كثير

(1) Eyre : op cit.; p. 250.
(2) Stephenson : Med Hist.; p 238.
(3) Painter : A Hist. of the Middle Ages ; p. 112.
(4) Eyre : op. cit.; p 246,

من الأحيان ـ إصدار أحكام عامة تشمل جميع المجتمعات الاقطاعية ، لاختلاف عدد الأفصال الذين يتبعون السادة الإقطاعيين من جهة ، ولاختلاف مـــدى اتساع دائرة الحقوق والواجبات الاقطاعية من جهة أخرى . ولـكن إذا كان من الصعب التعميم فى الأحكام التى نصدرها على النظام الإقطاعى ، إلا أنه الممكن أن نتتبع الخطوط العريضة لذلك النظام عند ما وصل إلى مرحلة النضج فى القرن الثانى عشر .

وأول ما نلاحظه على النظام الإقطاعى أنه يعبر عن التطرف فى اعتماد المجتمع على علاقة التبعية الشخصية التى ترتبط بحيازة الأرض ؛ هذا مع ملاحظة أن العلاقات الإقطاعية بين الأفصال وسادتهم إنما هى روابط بين رجال أحرار بعضهم وبعض . فالفصل فى ظل النظام الإقطاعى رجل حر يتمتع بحريته كاملة — مهما كانت درجته فى سلم هذا النظام ؛ وكل ما هنالك هو أنه ارتبط بعقد عرفى مع سيده الإقطاعى بحيث فرض عليه هذا الرباط مجموعة من الواجبات وحقق له فى مقابلها مجموعة أخرى من الحقوق[١] .

ولم تلبث أحـكام العرف الاقطاعى التى حددت العلاقات الشخصية بين الأفصال وسادتهم أن تبلورت فى شكل قانون ثابت محدد ، وذلك فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر عندما أصبح النظام الاقطاعى بمثابة المحور الأساسى الذى دارت حوله الحياه العامة فى غرب أوربا[٢] . وكان أن أخذ يظهر هذا القانون الاقطاعى تدريجياً فى كتابات كبار فقهاء الاقطاع أمثال جلانفيل Glanvill وبراكتون Bracton فى انجلترا ، وبومانوار Beaumanoir فى فرنسا ، وحنا إبلين فى مملـكة بيت المقدس الصليبية ؛ وعندئذ أصبحت القوانين الاقطاعية بمثابة المرجع الأول الذى اعتمد عليه المعاصرون فى حـــل مشاكلهم السياسية والاجتماعية[٣] .

---

(1) Ganshof : op. cit.; p. p xv-xvi.
(2) Cam. Med. Hist.; vol.; 3; p. 458.
(3) Eyre : op. cit.; p. 250.

وكانت أهم مشكلة فى القانون الإقطاعى حينئذ ، هى مشكلة تعدد السادة الاقطاعيين للفصل الواحد. فعلى الرغم من أنه كان مفروضاً فى أوائل العصر الإقطاعى أن يكون للفصل سيد واحد ، إلا أن هذا الوضع لم يستمر طويلا ؛ لأن زواج رجل من امرأة ورثت إقطاعا يؤدى إلى استحواذه على ذلك الإقطاع فيصبح فى هذه الحالة فصلا للسيد الذى تتبعه أرض الزوجة فضلا عن تبعيته الأولى لسيده الأصلى. كذلك إذا دخل ابن فى تبعية سيد إقطاعى آخر غير الذى يتبعه أبوه ، ثم مات الأب وورث الابن إقطاعه فإنه يصبح فصلا لسيدين فى وقت واحد(1) . هذا إلى أن كثيراً من السادة الاقطاعيين لجئوا إلى شراء صداقة جيرانهم ومعونتهم عن طريق منحهم إقطاعات ، فيصبح المقطع فى هذه الحالة فصلا لسيد جديد علاوة على سيده الأول . وهكذا صار معظم أصحاب الإقطاعات فى القرن الثانى عشر أفصالا لأكثر من سيد واحد ؛ حتى أن كونت شامبنى كان فصلا لكل من ملك فرنسا ، ودوق برجنديا ، وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، ورئيس أساقفة ريمس ، زيادة على عدد آخر من كبار الأمراء الإقطاعيين(2) . ولا شك فى أن هذا التعقيد الذى أصاب العلاقات الإقطاعية أدى إلى كثير من الفوضى فى أوربا ، لا سيما عند ما نجد أحد الأفصال أن اثنين من سادته الإقطاعيين التحما فى حرب أحدهما ضد الآخر مما يتطلب منه تقديم المساعدة إلى الطرفين المتنازعين جميعاً(3) .

وللتخلص من هذا الوضع أصبح الفصل الاقطاعى لا يقدم ولاءه الشخصى إلا لسيد واحد يختصه بكل خدماته الشخصية ، فى حين يكتفى بتقديم بقية الالتزامات المادية — غير الشخصية — لبقية سادته الإقطاعيين ، إن وجدوا . وهكذا كان كونت أنجو — مثلا فصلا — لملك فرنسا وكونت بلوا Blois ، ولكنه اختص الأول بولائه الشخصى ؛ فإذا اشتبك ملك فرنسا مع كونت بلوا فى حرب فإن

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages; p. 113.

(2) Ibid.

(3) Ganshof op. cit.; p. p. 92 - 93.

كونت انجو كان عليه أن يساعد ملك فرنسا مساعدة شخصية ، فى حين يكتفى بإرسال معونة مادية لكونت بلوا[١] .

كذلك يلاحظ على النظام الإقطاعى فى القرن الثانى عشر أنه أخذ يربط عناصر كل مملكة من ممالك غرب أوربا برباط تعاقدى تحت زعامة الملك باعتباره ممثلا لقمة الهرم الاقطاعى . ذلك أن الملوك — بغض النظر عن الحقوق الكثيرة التى تمتعوا بها — أخذوا يفرضون حقوقهم الاقطاعية تدريجياً على أفصالهم ، ويتمسكون بهذه الحقوق ، مما زاد من قوتهم ونفوذهم وأدى بالتالى إلى نشأة ما يعرف باسم « الملكيات الاقطاعية »[٢] .

وثمة ملاحظة أخرى على النظام الاقطاعى فى غرب أوربا ، هى أن الكنيسة كان لها أثر واضح فى تطور هذا النظام ، لا سيما فيما يتعلق بالإقلال من الحروب والمنازعات بين الأمراء الإقطاعيين ، وتوجيه نشاط هؤلاء الأمراء وجهة أخرى تتفق وصالح المجتمع المسيحى . من ذلك ما نادت به الكنيسة من تحريم الحروب فى أوقات معينة أطلق عليها « هدنة الله Treve de Dieu »[٣] . ويبدو أن رجال الكنيسة آمنوا عندئذ بأن هدفا واحداً هو الذى يجب أن يستأثر بجهود أمراء أوربا وفرسانها ، ولم يكن هذا الهدف سوى الحرب الصليبية ضد المسلمين فى الأندلس ثم فى بلاد الشام[٤] .

وأخيراً نلاحظ أن النظام الإقطاعى أدى إلى وجود وحدات اقتصادية تكتفى نفسها بنفسها. فالضيعة الإقطاعية كانت فى حد ذاتها وحدة مكتفية اكتفاء ذاتياً، الأمر الذى عاق تقدم الحياة الاقتصادية فى بلدان غرب أوربا[٥] .

* * *

(1) Painter : A Hist of the Middle Ages; p. p. 113-114.
(2) Eyre : op. cit; p. 250.
(3) Fliche : L'Europe Occidentale ; p p. 184-189.
(4) Painter : Med. Society ; p. p 34-35.
(5) Eyre : op. cit ; 251.

وبعد ، فإنه من حق النظام الإقطاعى علينا أن نؤكد حقيقة هامة ، هى أن هذا النظام لا يعنى بأى حال الفوضى أو التعنت الاستبدادى فى أوربا العصور الوسطى . فالنظام الاقطاعى كان قبل كل شىء نظاما تعاقديا قام على أساس ثابت من الحقوق والواجبات المتبادلة بين السيد وأفصاله . وإذا كان كثير من الكتاب قد فسروا النظام الاقطاعى على أنه اصطلاح مرادف للانحلال السياسى ومناقض للسلطة المركزية ، فإن هذا الحكم جائر وبعيد عن الحقيقة والتاريخ . حقيقة إن العصر الإقطاعى جاء مصحوبا بانحلال الامبراطورية الكارولنجية وما تفرع عنها من أقسام وممالك كبرى ، ولكن هذا الانحلال لم يكن مصدره النظام الاقطاعى نفسه . وليس ذنب النظام الإقطاعى أن الملك الفرنسى كان ضعيفاً بدرجة لم تمكنه من بسط نفوذه والتمسك بحقوقه حتى فى أراضيه الخاصة (الدومين)[١] . وربما كان أقرب إلى الحقيقة أن نقرر أن النظام الإقطاعى نشأ كحل أو كإجراء لمواجهة الفوضى والأخطار التى واجهت أوربا فى القرن التاسع ؛ وبعبارة أخرى فإن هذا النظام كان الوسيلة الفعالة التى توسلت بها أوربا لايجاد نوع من الحكم يفى بحاجات البلاد الحربية والإدارية والقضائية وسط الأخطار الجسيمة التى ألمت بالمجتمع الأوربى منذ القرن التاسع[٢] . وهنا نستطيع أن نقرر أن هذا النظام نجح فعلا فى مقاومة هذه الأخطار بقدر الامكان وفى تهيئة الوسائل السلمية لحل المنازعات والخصومات . ذلك أن النظام الاقطاعى — كما سبق أن رأينا — كان له جانبه القضائى إلى جانب جوانبه الحربية والاقتصادية ؛ فقامت بتنفيذ القانون الاقطاعى محاكم الملوك ومحاكم السادة الاقطاعيين ، ونجحت هذه المحاكم فى إقرار العدالة بصورة واضحة وفى حل المشاكل الناشئة بين السيد وأفصاله أو بين الأفصال بعضهم وبعض[٣] . أما المنازعات التى نشبت بين أفصال متعددين لأكثر من

(1) Stephenson : Med. Hist., p. 252.

(2) Thompson : op cit , vol. 2, p. 699.

(3) Eyre : op. cit., p 249.

سيد واحد ، فلم يكن هناك سبيل لحلها إلا المفاوضة أو الحرب . وهناك طريق آخر كثر الالتجاء إليه كوسيلة لحل الخلافات القائمة بين اثنين من أفصال السيد الواحد ، هو طريق المبارزة أو التقاتل دون تدخل من جانب السيد الاقطاعى ، إلا إذا تعرض أحدهما لخطر يخشى منه عدم تمكنه من النهوض بواجباته الاقطاعية.

أما القاعدة التى قام عليها بناء الهرم الاقطاعى فكانت طبقة الفلاحين التى ظلت تشقى لتقدم ثمرة جهودها وكدها للاقطاعيين[1] . وعلى الرغم من أن الفلاح المزارع كان أقل تأثراً بتطور النظم الاقطاعية من الفارس المحارب ، إلا أن حياته هو الآخر تأثرت إلى حد كبير بنظام الضيعة (manor) وهو النظام الذى تأثر بدوره تأثرا واضحاً بالأوضاع الإقطاعية[2] . وربما بدا ذلك فى وضوح بدراسة أحوال المجتمع الأوربى فى ظل النظام الإقطاعى .

---

(1) Stephenson : Med. Hist. p. 239.
(2) Eyre : op. cit , p. 251.

الباب الثالث

المجتمع الأوربى

فى ظــــل النظام الإقطاعى

انقسم المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى إلى ثلاث طبقات : طبقة رجال الدين ، وطبقة المحاربين من النبلاء والفرسان ، وطبقة الفلاحين . أما الطبقتان الأوليان فكانتا تمثلان الهيئة الحاكمة من وجهة النظر السياسية ، والأرستقراطية السائدة من وجهة النظر الاجتماعية ، والفئة الثرية من وجهة النظر الاقتصادية ؛ فى حين كانت طبقة الفلاحين تمثل جموع الكادحين المغلوبين على أمرهم المحرومين من النفوذ والثروة . وكان لكل طبقة من هذه الطبقات الثلاث مكانتها ووظيفتها المعروفة فى المجتمع ، فرجال الدين كان عليهم أن يتعبدوا لله ويشبعوا حاجة الناس الدينية ، والنبلاء كان عليهم أن يحكموا ويحاربوا ، والفلاحون كان عليهم أن يعملوا ليسدوا الحاجات المادية للطبقتين السابقتين[1] . وقد سبق أن تعرضنا للوضع الاجتماعى لرجال الدين ، وبقى أن نتكلم عن النبلاء والفلاحين .

المجتمع الحربى والفروسية :

يلمس الدارس لأحوال أوربا فى العصور الوسطى فجوة واسعة بين طبقتى الفرسان المحاربين والفلاحين المزارعين. ذلك أنه كان من الصعب النادر أن يستطيع رجل وضيع المولد أن يصبح صاحب إقطاع ولو كان حراً . وكان يحدث فى بعض الأحيان أن يحصل مزارع على ثروة كبيرة ولكنه يظل مع ذلك وضيعاً فى نظر

---

(1) Thompson : op. cit. vol 2, p. 721.

الخاصة بحكم أصله ، ولا سيما أن الفواصل الاجتماعية وشرف المولد لم تكن وحدها هى العقبات القائمة فى وجه العامة ، و إنما وجدت لعقبة أخرى تمثلت فى التدريب الذى كان لا يستطيع الفلاحون أن يمروا به . فالمفروض فى أبناء النبلاء — إن لم ينخرطوا فى سلك الحياة الدينية — أن يتدربوا تدريباً عسكرياً منذ حداثتهم فيتعلمون ركوب الخيل واستخدام السلاح ، حتى إذا ما شب الواحد منهم انخرط فى سلك بلاط أحد الأمراء الاقطاعيين كتابع صغير (valot) أو سيد صغير (damoiseau) ليتعلم آداب السلوك فى المجتمع[1] . وفى بداية مرحلة الشباب يمكن أن يرتقى الفتى إلى مرتبة مساعد فارس ، وعندئذ يسمح له بالاشتراك فى المعارك مع الفرسان الذين يكبرونه سناً ليتعلم منهم فن الحرب . فإذا أثبت كفايته وصلاحيته ، احتفل فى سن العشرين أو الواحد والعشرين بتدشينه فارساً ؛ فيتم ذلك فى حفل كبير أصبح منذ النصف الأخير من القرن الحادى عشر بمثابة « تعميد » آخر للفارس يكتسب به مكانته فى المجتمع الإقطاعى[2] .

وكانت الفروسية تعبر عن مستوى معين من الأخلاق والسلوك يجب أن يتحلى بهما أفراد هذه الطبقة من المحاربين فى علاقتهم بعضهم مع بعض . فالفارس ينبغى أن يكون شجاعا إلى درجة المجازفة والتهور ، و يقاتل وفقا لقواعد خاصة دون أن يلجأ إلى الخديعة والأساليب الخسيسة للتغلب على خصمه . هذا بالإضافة إلى ما يجب أن يتحلى به الفارس من وفاء لأصدقائه وتبجيل للمرأة واحترام للعهد ، و إذا انتصر على خصمه عاملة معاملة كريمة[3] . على أنه يلاحظ أن هذا السلوك اقتصر على معاملة الفرسان والنبلاء بعضهم لبعض ، و بعبارة أخرى فإنهم لم يشعروا بضرورة اتباع هذا الأسلوب المهذب نفسه تجاه غيرهم من أبناء الطبقات الدنيا[4] .

(1) Stephenson ; Med. Feudalism, p. p. 45-46 & Cam. Med. Hist , vol 6, p. 802.

(2) Fliche : L'Europe Occidentale, p. 625

(3) Stephenson : Med. Feudalism, p. 46.

(4) Stephenson : Med. Hist., p. p. 239-240.

ويمكن أن نخرج من شعر الملاحم Epic Poetry وأغانى المآثر Chansons de geste بصورة واضحة عن حياة النبلاء الإقطاعيين وأحوالهم فى العصور الوسطى . ومن أمثلة هذه الأشعار أغنية رولان التى كتبها قسيس نورمانى من وحى الحروب التى دارت بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا فى أواخر القرن الحادى عشر[١] . وتدور قصة هذه الأغنية حول شخص رولان — كونت ماركيه بريتون — الذى خر صريعا فى ممرات البرانس عند عودة شارلمان من حملته الأسبانيه ، وما صحب هذه العودة من تعرض مؤخرة جيشه لهجمات جماعة الباسك ؛ وإن كانت الملحمة تصور المسلمين فى صورة الخصم لتبرز رولان فى هيئة البطل الصليبى المدافع عن المسيحية وكيانها[٢] . وترجع أهمية هذه الأنشودة التى ذاع صيتها من ايرلند حتى بيت المقدس إلى أنها تمدنا بكثير من المعرفة عن المثل الإقطاعية فى العصور الوسطى . ذلك أن الفكرة الأساسية التى سيطرت على أغنية رولان هى فكرة التبعية الإقطاعية ، وارتباط الفصل بسيدة و إخلاصه له ، فيبدو رولان مخلصا لسيده شارلمان يحارب من أجله فى الوقت الذى يحارب أيضا من أجل نفسه ومن أجل الحصول على الشهرة والمغانم . وفى خلال حوادث القصة يبدو رولان قاسيا على خصومه ، شديد الرفق بأصدقائه[٣] .

على أن هناك مصدراً آخر هاماً يمدنا بقسط وافر من المعلومات عن الحياة الاجتماعية للطبقة الحربية فى مجتمع أوربا الإقطاعى . ونقصد بهذا المصدر مطرز بايو Bayeux المحفوظ فى متحف بايو حتى اليوم والذى صنع من أجل تحلية كتدرائية المدنية . ويبلغ عرض هذا المطرز عشرين بوصة وطوله أكثر من مائتين وثلاثين قدما ، وهو محلى برسوم ملونة تصف الغزو النورمانى لانجلترا فى

(1) Pirenne; Cohen; Focillon ; La Civilisation Occidentale; p. 212.

(2) Painter : Med Society; p. 41.

(3) Stephenson : Med. Feudalsim; p. p. 50-51.

القرن الحادى عشر . وترجع أهمية هذه الرسوم إلى أنها تعطينا صورة واقعية عن الحياة الاجتماعية فى القرن الحادى عشر ، سواء فى الملابس أو النشاط الحربى أو العادات المنزلية[١] .

أما عن الملبس فكان النبلاء والفرسان يرتدون عادة القميص والجوارب الطويلة ؛ الأول عبارة عن صدار يربطه حزام من الوسط ، والثانية أشبه شىء بسراويل مشدودة على الساقين والفخذين بأحكام . وأحيانا فى حالات البرد أو الاحتفالات يرتدى الرجل معطفا يربط من أعلاه حول الرقبة أو حول الكتف الأيمن حتى لا يعوق مقبض السيف . وكان الرجال يقصرون شعور رءوسهم ويحلقون ذقونهم . أما المرأة فكانت ترتدى ثوبا بسيطا يمتد من أعلى الرقبة حتى الأرض وتربط شعرها بعصابة بعد تصفيفه . وكثيرا ما كان الرجال والنساء يلبسون عباءة فى الشتاء يطوى طرفها الأعلى فوق الرأس للوقاية من شدة البرد . ومن هذا يبدو أن ملابس طبقة المحاربين — حتى الأغنياء منهم — كانت بسيطة[٢] .

أما رداء الحرب ، فكان أيضا بعيدا عن التعقيد والتأنق ، فالفارس يكسو الجزء الأسفل من ساقيه بأربطة من القماش أو الجلد تمتد من الركبة إلى أسفل الساق لتقوم مقام الجرموق (الألشين أو التزلك) فى الأزمنة الحديثة[٣] . أما الجزء الأعلى من جسم الفارس فكانت تكسوه صُدرة مزرّدة (hauberk) تتألف من حلقات متداخلة من المعدن[٤] . ويراعى فى هذه الصدرة أن تكون مشقوقة طوليا من أسفلها حتى لا تعوق الفارس عن امتطاء فرسه . وأخيرا كان يلبس الفارس على رأسه خوذه حديدية مخروطية الشكل يمتد مقدمها إلى أسفل ليحمى

---

(1) Stephenson : Med. Hist ; p. 263,

(2) Stephenson : Med Feudalism; p p. 61-62.

(3) Thompson : op. cit.; vol. 2; p. 714

(4) Cam. Med. Hist.; vol. 6; p. 808.

أنف الفارس . هذا كله عدا الدرع الذى يحمله الفارس فى ذراعه الأيسر ، وهو مستطيل الشكل ويبلغ طوله أربعة أقدام تقريبا .

ومن الواضح أن الرداء السابق دفاعى الغرض منه حماية الفارس وصيانة جسده ، ولذلك كان لابد من أن يستكمل المحارب جهازه بعدة أسلحة هجومية يستخدمها فى مقاتلة خصومه . أما هذه الأسلحة فكان أهمها سيف صليبى المقبض مربوط بحزام على الجانب الأيسر ، ثم حربة يمسكها الفارس بيده اليمنى طولها ثمانية أقدام ، هذا عدا البلطة التى كثيرا ما استخدمها الفرسان ولاسيما فى إنجلترا وفرنسا(١) . ولم يكن من الضرورى أن يتقيد الفارس بلبس الرداء السابق فى حله وترحاله بسبب ثقله ، ولذلك جرى العرف على أنه لا يجوز مهاجمة فارس إلا بعد إعطائه فرصة ليرتدى رداءه الحربى(٢) .

أما الفرس الذى يمتطيه الفارس فكان مطهماً مزوداً بالسرج والركاب واللجام . ولعله من الواضح أن الفرس كان يمثل الجهاز الأساسى للفارس وبدونه لا يعتبر الفرد فارساً(٣) ؛ كما أن المجتمع الإقطاعى ظل ينظر شذراً إلى المحارب الذى يقاتل راجلا(٤) .

ولعل هذه الحقائق السابقة تساعدنا على فهم طبيعة الحروب الإقطاعية . فالخدمة العسكرية كانت تتطلب من فارس العصور الوسطى نفقات باهظة ، إذ ينبغى أن يكون لديه طاقم كامل من الملابس الحربية الثقيلة ، وفرس مطهم ، وتابع أو مساعد يمطيته ، وعدد من الخدم ، فضلا عن قدر كاف من الطعام يكفى هذه المجموعة وحيواناتها طيلة مدة القتال . وهكذا هيأ هذا النظام للحاكم أو للسيد الإقطاعى جيشاً قوياً بأقل قدر من النفقات . أما روح النظام فكانت ضعيفة

(1) Stephenson : Med. Feudalism; p.p. 63-64.

(2) Painter : Med. Society; 32.

(3) Stephenson : Med. Feudalism; p. 41.

(4) Idem; p. 43.

فى الحروب الإقطاعية ، إذ اعتقد كل فارس أنه زميل وحليف للقائد أكثر منه مرءوساً له[١] . هذا إلى أن الحرب من أجل السيد الإقطاعى كانت لا تمنع الفارس من الحرب من أجل نفسه . والواقع أن الحرب الإقطاعية كانت عبارة عن مناوشات بين فريقين ومحاولة لتدمير أراضى العدو ، أكثر منها حرباً منظمة بالمعنى الذى نعرفه . وقد دار الجزء الأكبر من هذه الحروب الإقطاعية فى الحصون أو حولها[٢] .

ومن الواضح أن حياة السلم كانت تعنى البطالة بالنسبة لمحاربين محترفين لا عمل لهم إلا الحرب . لذلك ابتكر فرسان العصور الوسطى تقليد المبارزة لمقاومة الملل الذى قد يعتريهم فى حالة عدم وجود حرب حقيقية . وكانت هذه المبارزات تتم بطريقة تمثيلية استعراضية تستهدف إظهار أكبر قسط من المهارة بأقل قدر من الإصابات والدماء . ففى اليوم والوقت المحدود يلتقى فريقان من الفرسان ينتمون عادة إلى بيتين أو إقليمين متنافسين[٣] . وبعد ذلك تبدأ المبارزة بين الفريقين وفقاً لقواعد معلومة ثابتة ، حتى ينتهى الموقف بإعلان فوز أحدهما على الآخر . ويحصل الفارس الفائز فى هذه الحالة على نصر معنوى ومادى كبير ، لأنه علاوة على ما يصيبه من صيت ذائع وشرف عريض ، يستولى أيضاً على فرس خصمه وأسلحته أو على مبلغ من المال مقابل هذه الأشياء[٤] .

أما الحصون الإقطاعية ، فكانت فى أول الأمر بمثابة المعاقل التى يلوذ بها أهل المنطقة فراراً من هجمات الأعداء وبخاصة الفيكنج . ولكن هذه الحصون تطورت مع تطور النظم الاقطاعية حتى غدا الحصن الاقطاعى مقر السيد وحاميته ، كما أصبحت الحصون تشيد منذ نهاية القرن العاشر من الكتل الحجرية الضخمة

(1) Stephenson : Med. Hist.; p. 241.
(2) Idem: p. 242,
(3) Painter : Med. Society; p. 28.
(4) Stephenson : Med. Feudalism, p. 74.

لتستطيع الثبات فى وجه المهاجمين . وهكذا صارت الحصون الاقطاعية مسرحاً لجزء كبير من النشاط الاجتماعى لطبقة الفرسان فى العصور الوسطى ، إذ لم يعد الحصن معقلاً فحسب بل أضحى المقر الطبيعى لإقامه الأمير الاقطاعى وأتباعه(١) .

وكان الطابق الأسفل من الحصن أو القلعة الاقطاعية يحوى الآبار ومخازن الطعام والأسلحة والعدد الحربية الثقيلة اللازمة لمقاومة حصار طويل ؛ والطابق الأعلى من القلعة مخصص لقذف السهام وغيرها على العدو المهاجم ؛ فى حين استخدم الطابق الأوسط منزلاً لاقامة السيد الاقطاعى وأسرته . وفى هذا الطابق الأوسط وجدت قاعة فسيحة وكنيسة صغيرة وعدد من الغرف المنفصلة(٢) . أما الطعام فكان يطهى فى مطابخ خارجية ثم يحمله الخدم مطهياً إلى الداخل . وهنا نشير إلى أن الأمير الاقطاعى كان يقضى وقت السلم عادة فى التنقل بين ضياعه الواسعة المجهز كل منها بدوار (manor-house) مشيد من جذوع الأشجار أو الحجارة . وعلى الرغم من أن كل دوار كان مزوداً عادة بما يكفى من أثاث وحاجات أساسية ، إلا أن الأمير كان يجلب معه عند حضوره إلى إحدى ضياعه ، كثيراً من اللوازم الاضافية . هذا إلى أن كثيراً من السادة الاقطاعيين كانوا لا يمتلكون حصونا ، ومن ثم اتخذوا الدوار مقراً دائماً لهم(٣) .

ومهما كان الأمر فإن مركز الحياة المنزلية عند النبلاء الاقطاعيين كان القاعة الكبيرة التى توجد فى الحصن أو فى الدوار(٤) . ومن الواضح أن هذه القاعة كانت جميلة ومريحة بالقدر الذى يتفق ومستويات العصور الوسطى ، ففيها شموع للإضاءة ومواقد مكشوفة للتدفئة ، وعلى حيطانها علقت بعض الأسلحة والأعلام ونحوها ، فى حين فرشت أرضها بالحصر . وفى هذه القاعة كان

---

(1) Evans : La Civilisation en France, p. 48.

(2) Stephenson : Med. Feudalism; p. 70.

(3) Fliche : L'Europe Occidentale, p. 57.

(4) Painter : Med. Society, p. 30

يجلس السيد الاقطاعى ليتقبل التبعية والخضوع من أفصاله أو ليعقد معهم مجلساً قضائياً أو غير قضائى(٢) . أما سهراته فكان يقضيها فى لعب الشطرنج والاستماع للرواة والقصاصين الذين يقومون بسرد بعض المنظومات القصصية القديمة أو التمثيليات الدينية(٣) . وفى نهاية الليل يأوى السيد وأسرته إلى غرفهم المخصصة للنوم ، وعندئذ يحضر الخدم والحاشية وسائدهم المصنوعة من القش ليناموا فى هذه القاعة حتى الصباح .

أما الطعام والشراب فكانا بعيدين عن الاعتدال . ومن المعروف أن الشراب المفضل فى جنوب أوربا — حيث تكثر مزارع الكروم — هو النبيذ، فى حين تسود الجعة فى الجهات الشمالية الغربية . وقد تألف طعام السيد الإقطاعى من لحوم الصيد — الغزال أو الخنزير البرى — مشوية ، و بجانبها لحوم الحيوانات المألوفة كالضأن ولحم البقر ، هذا عدا الطيور والفطائر والخضر والفاكهة(١) . أما فى أيام الصيام — حيث المفروض أن تحتجب اللحوم عن مائده الطعام — فكانت الصحون تكتظ بالأسماك والبيض . ومن الطبيعى أن يكون الخبز والجبن من الأصناف المألوفة ، وعلى العكس كانت الحلوى نادرة لأن أوربا لم تعرف قصب السكر حينئذ ، فاعتمدت فى تحلية الطعام على عسل النحل وحده . أما التوابل المستوردة من الشرق — كالفلفل — فكانت لا تتوافر إلا فى طعام كبار الأمراء(٢) . والمرجح أن أمراء أوربا وفرسانها لم يعرفوا الكثير من آداب تناول الطعام فى تلك العصور .

وفيما عدا المبارزة ، اعتاد الأمراء أن يقتلوا الوقت أيام السلم بالتلهى بالصيد أو غيره من وسائل التسلية . لذلك احتفظ الأمراء بعدد من طيور وحيوانات الصيد، كما اعتادوا أن يصطحبوا معهم نساءهم عند خروجهم للصيد .

---

(1) Evans : La Civilisation en France Au Moyen Age, p. 48.

(٢) محمد مصطفى زيادة : الاقطاع والعصور الوسطى بغرب أوربا ص ٣٢ — ٣٣ .

(3) Painter : Med. Society, p. 30,

(4) Stephenson : Med. Hist., p. p. 267-268.

أما إذا تطلبت الظروف أن يبقى السيد الإقطاعى داخل منزله أو قلعته ، فإنه فى هذه الحالة كان يقضى شطراً كبيراً من وقته فى معاقرة الخمر والمقامرة ولعب الشطرنج الذى عرفته أوربا عن طريق الحروب الصليبية . ومن الطبيعى ألا يكون لأفراد المجتمع الحربى من الاقطاعيين ولع بالقراءة والاطلاع ، بل إن أكثرهم جهلوا القراءة والكتابة واحتفظوا ببعض الكتبة الذين لا يعرفون أكثر من المبادىء الإساسية لضبط حسابات المزارع والضياع الخاصة بالأمير[1] .

المجتمع الزراعى ونظام الضيعة :

ذكرنا أن المجتمع الإقطاعى قام حول ثلاث شخصيات هامة : رجل الدين المتعبد والفارس المحارب والفلاح المزارع . وعلى الرغم من أن الفلاح كان أقل تأثراً بتطور النظم الإقطاعية من الفارس ، إلا أن حياته تكيفت إلى حد كبير بتلك النظم وتطورها[2] .

و إذا كان النظام الإقطاعى هو الذى حدد وضع طبقة المحاربين ونظم حياتهم العامة ، فإن هنالك نظاما آخر هو النظام السنيورى أو نظام السيادة Seignorial System حدد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للفلاحين والعمال ، مع ملاحظة الرباط الوثيق الذى يربط النظامين و يصل بينهما وهو رباط الأرض[3] . فالنظام السنيورى الخاص بالفلاحين وتنظيم العلاقة بينهم و بين الملاك الإقطاعيين لا يدخل فى صلب التنظيمات الاقطاعية و إنما يأتى على هامشها . ذلك أن النظام الإقطاعى قام على أساس العلاقة بين حر وحر وتبعية سيد لسيد آخر أقوى منه ، وذلك فى ظل اطار محكم من الحقوق والواجبات المتبادلة. أما النظام السنيورى فعلى العكس

(1) Stephenson : Med. Hist., p. p. 269-270.

(2) Eyre : op. cit., p. 251.

(3) Painter : Med Society, p. 43.

يمثل علاقة سيد حر يمتلك الأرض بمزارعين مستعبدين مرتبطين بالأرض[١] . فالعلاقة هنا بين سيد حر وقن خاضع مقيد بالأرض غير حر ، لا بين تابع حر ومتبوع حر[٢] . أما لماذا ارتبط القن بالأرض ، فإنما كان من أجل القيام بخدمات معينة ودفع ضرائب معلومة للسيد الاقطاعي المالك . فإذا عجز القن عن الوفاء بهذه الخدمات والأموال — مهما كانت شاقة و باهظة — فإنه فى هذه الحالة يكون عرضة لأن يلفظه المجتمع الذى يعيش فيه عن طريق البيع أو الاستبدال أو الطرد. وكانت العقوبة الأخيرة أشدها جميعاً وأقساها لأن معنى طرد القن أنه سيصبح دون سيد يحميه مما يعرضه لأخطار بالغة فى عصر عرف بالفوضى وعدم الاستقرار[٣] .

والواقع أن الفلاحين كانوا يمثلون أكثر عناصر السكان وأحطها قدراً فى أوربا العصور الوسطى . ومع أن أفراد هذه الطبقة تشابهوا إلى حد كبير فى ظروفهم وأحوالهم إلا أنهم تفاوتوا إلى درجة ما فى أصولهم وفى مدى الحرية التى تمتعوا بها[٤] . وتكونت طبقة الفلاحين فى أساسها من العبيد Slaves والأقنان Serfs الذين تقاربت ظروفهم جميعاً فاختلطوا وتداخلوا عن طريق ذوبان العبيد وانصهارهم وسط محيط الاقنان[٥] . ثم كانت فترة الظلام الذى سادت أوربا فى القرن التاسع نتيجة للحروب الأهلية من جهة والإغارات الخارجية العنيفة التى تعرض لها الغرب من جهة أخرى ؛ مما جعل الضعيف يبحث عن حماية القوى حتى ولو كلفه ذلك أن يضحى بحريته الشخصية فى سبيل سلامته ، مما ساعد على ظهور طبقة جديدة من الأقنان يرجع أفرادها إلى أصل حر ، ولكن الظروف التى أحاطت بهم

(1) Pirenne, Cohen, Focillon : La Civilisation Occidentale au Moyen Age, p. 16

(2) Thompson : op. cit., vol. 2, p. 722.

(3) Idem, vol. 2, p. 726.

(4) Cam. Med. Hist.; vol 7., p. 719.

(5) Heaton : Economic Hist. of Europe. p. 71

أجبرتهم على قبول هذا الوضع الجديد . وقد سرد أحد كتاب العصور الوسطى الطرق المختلفة التى أصبح بها الحر عبداً فقال إن أولها استعباد الفرد عقاباً له لعدم تلبيته داعى الحرب ، وثانيها أن يهب الفرد نفسه للكنيسة أو للدير ليصبح عبداً مرتبطاً بهذه الهيئة الدينية ، وثالثها البيع إذ تدفع الحاجة فرداً إلى أن يبيع نفسه لسيد غنى مقابل مبلغ من المال ، ورابعها أن يضطر الضعيف إلى التنازل عن حريته لسيد قوى يحميه من الأخطار التى تهدده[1] . ومهما كان الأمر ، فإن هذه الفئة الجديدة من الأقنان لم تلبث أن اختلطت بفئة العبيد القديمة لتنشأ منها جميعاً طبقة واحدة من أهل الفلاحة لها وضع اجتماعى ثابت فى الحياة الأوربية[2] .

وإذا كان النظام الإقطاعى لم يتحدد شكله ويتم تكوينه فى الغرب إلا فى القرنين التاسع والعاشر ، فإن الفضل يرجع أيضا إلى هذين القرنين فى تحديد نظام الضيعة Manorial Regime أو النظام السنيورى . ففى القرنين التاسع والعاشر ازدادت أعداد من فقدوا حريتهم حتى دخلت قرى حرة بأكملها فى دائرة العبودية وأخذت ملكيات صغار المزارعين تتكتل فى أيدى كبار الاقطاعيين[3] . حقيقة إن النظام الضيعى نفسه قديم ، ترجع جذوره إلى أصول رومانية وجرمانية بل ربما كليته أيضا ، ولكن الجديد هو أن أوربا العصور الوسطى اتخذت هذا النظام أساساً للحياة الاقتصادية فى الوقت الذى تلاشت أهمية المدن وضعفت التجارة . فإذا كان الرومان قد عرفوا نظام الضياع ، فإنهم عرفوه على اساس اعتماد هذه الضياع على التبادل التجارى مع المدن الزاهرة التى اشتهرت بها الحضارة الرومانية ، فتصدر الضياع إلى المدن إنتاجها الزراعى وتستورد منها إنتاجها الصناعى . أما فى أوربا العصور الوسطى ، فقد أصبحت الضيعة وحدة اقتصادية

---

(1) Coulton . The Med. Scene, p. 26.

(2) Cam Med. Hist., vol. 7, p. p. 719--720.

(3) Thompson: op. cit , vol. 2, p. 722.

قائمة بذاتها لا تربطها روابط تجارية بغيرها ، وعلى أهلها أن يعتمدوا على سواعدهم فى كل ما يحتاجون إليه[١] .

على أنه يجدر بنا أولا أن نتساءل عن ماهية الضيعة (Manor) التى نقصدها فى هذا البحث ، هنا نستطيع القول بأن الضيعة كانت وحدة نظام الملكية الزراعية فى تلك العصور ، بالضبط كما كان الإقطاع وحدة النظام الاقطاعى ، بمعنى أن الاقطاع كان يمكن أن يتألف من عدة ضياع . وكانت الضيعة أشبه شىء بمملكة أو عالم صغير ، يحكمها سيد يتمتع بسلطة شبه مطلقة ، ويمتلك جميع مقومات الاكتفاء الذاتى ، بحيث يشبع إنتاج الضيعة السيد والمسودين جميعاً[٢] . فالضيعة فى أوربا العصور الوسطى كانت تكفى نفسها بنفسها إلى حد كبير ، وتنتج جميع المواد الغذائية وغير الغذائية اللازمة لاستهلاك أهلها ، ما عدا بعض الكماليات كالتوابل التى يمكن لصاحب الضيعة أن يستوردها إذا أراد أن يستخدمها[٣] . أما الصوف فكانت النساء تقمن بصباغته وغزله فى فصل الشتاء فى حين قام الرجال بدبغ الجلود وصناعة النعال والسروج . وفيما عدا ذلك كان لكل ضيعة حدادها ونجارها[٤] . وبعبارة أخرى فإنه إذا كانت غالبية أقنان الضيعة قد اشتغلوا بفلاحة الأرض ، فإن هناك جزءاً من هؤلاء الأقنان اشتغلوا بسد حاجة الضيعة من مختلف المصنوعات اليدوية[٥] .

وهكذا ظلت الضيعة فى أوربا العصور الوسطى تتبع نظام الاكتفاء الذاتى من الناحية الاقتصادية ، بمعنى أنها ظلت — حتى القرن الثانى عشر على الأقل — فى غير حاجة ملحة إلى شىء من التبادل التجارى مع العالم الخارجى ، الأمر الذى

---

(1) Pirenne, Cohen, Focillon. op. cit , p. p. 12-13. & Pirenne : Economic and Social Hist., p. p 8-9.

(2) Boissonnade; op. cit ; p. 85.

(3) Eyre (op. cit.; p 252.

(4) Coulton : The Med. Scene; p p. 32-33.

(5) Boissonnade; op. cit ; p. 179.

ترتب عليه عدم وجود أسواق كبرى للمنتجات القروية فى ذلك العصر[1] . هذا مع ملاحظة أن الضيعة لم تكن وحدة اقتصادية فحسب ، بل كانت أيضا وحدة اجتماعية ودينية ، فاشترك أهلها فى إحياء حفلاتهم وتزاوجوا — عادة — بعضهم من بعض ، كما كان لكل ضيعة كنيستها وقسيسها[2] . وخلاصة القول أن الضيعة كان الطريق الذى توصلت به الغالبية العظمى من أهالى غرب أوربا فى القرن الثانى عشر للحصول على لقمة العيش[3] ، كما أن سياسة الاكتفاء الذاتى التى اتبعتها الضيعة تطلبت من أهلها أن ينصرف بعضهم إلى توفير مطالب الغذاء والكساء والمأوى ، فى حين انصرف البعض الآخر للنواحى الدفاعية والإدارية والروحية[4] .

ولم يكن نظام الضيعة بسيطا بالدرجة التى قد يتصورها البعض ، بل بلغ هذا النظام درجة من التعقيد تجعلنا نكتفى باستعراض معالمة الرئيسية . وهنا نلاحظ أنه إذا كانت الضيعة قد تألفت فى العادة من قرية وأراضيها ، إلا أننا نجد زمام القرية الواحدة — فى بعض الحالات — مقسما بين عدد من السادة الملاك ، وكل منهم يطلق على الجزء الخاص به اسم « ضيعة » ، كما نجد فى حالات أخرى تجمع بعض القرى المتقاربة لينشأ من تجمعها ضيعة واحدة . ولعل هذه الاستثناءات هى التى دفعت بعض الكتاب المحدثين إلى تفضيل اسم «القرية» للدلالة على الوحدة الاقتصادية والاجتماعية فى المجتمع الريفى فى أوربا العصور الوسطى ، بدلا من اسم «الضيعة»[5] . أما كولتون فيقول بأن القرية كانت الوحدة السياسية والكنسية فى حين كانت الضيعة الوحدة الاقتصادية . حقيقة إن الضيعة والقرية كثيرا

---

(1) Painter : Med. Society; p. p. 46-47.

(2) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit.; p. 59.

(3) Eyre : op. cit, cit., p. 252.

(4) Cam. Med. Hist.; vol 3; p. 473.

(5) Painter : Med. Society; p. 54.

ما يستخدمان فى معنيين مترادفين ، ولكننا نجد فى حالات أخرى عديدة أن القرية ضمت داخل زمامها ضيعتين أو أكثر[١] .

وكانت هذه الضياع مملوكة بالواحدة أو بالجملة ، فامتلك الدير الفلانى عشرين ضيعة ، وامتلكت الأسقفية الفلانية أربعين ضيعة وامتلك الأمير الفلانى خمس ضيعات . وربما بعدت هذه الضياع — المملوكة لفرد واحد أو هيئة واحدة — بعضها عن بعض خمسين أو مائة ميل ؛ مما يدل على أن نظام الضياع قام من الوجهة الاقتصادية على أساس مجتمعات قروية مبعثرة ترتبط بمالك معين ، قد يبعد عنها فى كثير من الأحيان[٢] . ومن الواضح أنه إذا كان المالك يمتلك ضيعة واحدة ، فإنه كان فى هذه الحالة يعيش فى دواره القائم بهذه الضيعة معتمدا على ماتدره ضيعته من إيراد وخيرات . أما إذا امتلك أكثر من ضيعة ، فإنه كان يختار إحداها لاقامته ، ويعين مشرفين أو وكلاء ينوبون عنه فى بقية الضياع . وفى معظم الحالات كان المشرف (bailiff) الذى ينوب عن صاحب الضيعة فى إدارتها يقيم فى دوارها الرئيسى (manor-house)[٣] .

وكان هذا الدوار يمثل قسطا وافرا من الثراء والترف بالنسبة لمستويات ذلك العصر . وجرت العادة أن تحيط به حديقة مسورة بها أشجار الفاكهة وخلايا النحل والمخازن التى يخزن فيها انتاج الضيعة ، فضلا عن الآلات والعربات والعدد المستخدمة فى فلاحة أراضيها[٤] . وعلى مقربة من الدوار قامت كنيسة شابية ملحق بها منزل قسيسها . وفى كثير من الأحيان كان الدوار والكنيسة هما المبنيان الوحيدان من الطوب فى الضيعة . أما الحقل الخاص بالقسيس فيكون بعيدا عادة عن أراضى السيد التى يقوم الأقنان بفلاحتها ، وإن كان الأقنان هم الذين يقومون

(1) Coulton : The Med Scene; p. 24.
(2) Gras : The Lagacy of the Middle Ages, p 435.
(3) Cam Med. Hist , vol 7, p. 719.
(4) Stephenson : Med. Hist., p. 259.

أيضا — فى غالبية الأحيان — بفلاحة أرض القسيس[١] . ومن مجموع الضياع التى يمتلكها السيد الإقطاعى تألف ما يعرف باسم الدومين ، الذى يمثل المصدر الحقيقى لقوته ونفوذه[٢] .

أما الفلاحون فكانوا يعيشون فى أكواخ من جذوع الأشجار وفروعها ، غطيت سقوفها وأرضيتها بالطين والقش دون أن تكون لها نوافذ . وامتازت هذه الأكواخ بالقذارة وحقارة أثاثها ، الذى تألف من سرير عبارة عن صندوق خشبى عليه وسادة محشوة بالقش وأوراق الأشجار الجافة ، ومنضدة صغيرة ، وبعض المقاعد الخشبية ذات ثلاثة الأرجل ، وصندوق وقليل من الآنية الحديدية والفخارية[٣] .ولم تستخدم أية وسيلة صناعية لإضاءة هذه الأكواخ، لأن الشموع اقتصر استعمالها على الكنائس ودوار السيد صاحب الضيعة ؛ هذا فضلا عن خطر الحريق فى قرية من هذا النوع القابل للاشتعال . وبالإضافة إلى ذلك فإن الفلاح لم يكن لديه ما يعمله بعد غروب الشمس ، فهو لا يعرف القراءة والكتابة ، وعليه أن ينهض صباحاً مع شروق الشمس ويأوى إلى فراشه مبكراً مع غروبها[٤] . وعند طهى الطعام أثناء النهار ، كان الدخان يتصاعد من فتحة صغيرة فى سقف الكوخ ، ولكن المطر كثيراً ما صار يتسرب من هذه الفتحة ليجعل أرضية الكوخ فى حالة زلقة موحلة . أما فى الصيف فكان يتم طهى الطعام خارج الأكواخ فى مكان عام بالقرية مخصص لذلك ، حيث تعلق قدور الطهى فى قضبان عالية فوق النار . وكان الفلاح هو الذى يبنى كوخه ويصنع أثاثه ، فى حين تقوم زوجته وبناته بعمل الخبز والطعام وغزل الصوف وصناعة ما يتدثرون به من ثياب بحيث لم يكن فى حاجة إلى شراء شىء من غيره[٥] . وهكذا عاش

---

(1) Thompson : op cit , vol 2, p. p 723-724.
(2) Boissonnade op. cit , p. 85
(3) Idem, p 98
(4) Thompson : op cit , vol 2, p 723
(5) Boiossonnade : op. cit , p 102

الفلاحون فى أوربا العصور الوسطى فى ظروف صعبة غير صحية مما أدى إلى انتشار كثير من الأوبئة والأمراض بين حين وآخر [١] .

وكانت الضيعة الواحدة تضم أنواعاً مختلفة من الأقنان على درجات متفاوتة من العبودية ، واختلفت أعمالهم والواجبات المفروضة عليهم باختلاف درجاتهم . وباستثناء العبيد الذين قد يكونون بالضيعة ، والذين اقتصر عملهم على الخدمة المنزلية داخل دوار السيد الإقطاعى دون أن تكون لهم وظيفة خارجية ، حتى أخذوا ينقرضون من المجتمع الأوربى منذ وقت مبكر يرجع إلى أواخر القرن الثانى عشر [٢] ؛ فإنه وجد داخل الضيعة أحياناً بعض الملاك الأحرار الذين يمتلكون مساحات من الأرض مقابل دفع رسوم معينة ، ولهم حرية بيعها أو شرائها [٣] . وكان أهم ما ميز هؤلاء المزارعين الأحرار حقهم فى حمل السلاح ، وفى تزويج بناتهم أو إلحاق أبنائهم بسلك الكهنوت دون التقيد بموافقة السيد الإقطاعى ، زيادة على حريتهم فى بيع مواشيهم وفق ماتطلبه مصالحهم الخاصة [٤] . على أن معظم فلاحى الضيعة كانوا من الأقنان المرتبطين بالأرض ، والذين يولد الواحد منهم ليجد أباه مرتبطاً بأرض معينة فيرتبط هو الآخر بنفس الأرض ولا يستطيع تركها متحملا ما يفرض عليه من أعباء ومهام شاقة [٥] . ومهما اختلفت أصول هؤلاء الأقنان فإن تفاوت أنصبتهم من الحرية كان ضئيلا لأنهم كانوا جميعاً مقيدين بقيود شديده تجعلهم غير أحرار [٦] . فالقن فى الضيعة كان يتحتم عليه حلق شعر رأسه ، لأن الشعر القصير أو الطويل من مميزات

(1) Eyre : op. cit., p. 254.

(2) Heaton : Economic Hist., of Europe, p. 90.

(3) Eyre : op. cit., p. 254.

(4) Heaton : op. cit , p. 91,

(5) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit., p. 58.

(6) Stephenson : Med. Hist.; p. p. 255-256.

الأحرار[١] ، كما كان لا يستطيع أن يدعى حق الملكية الشخصية ، لأن كل ما يمتلكه يعتبر خاصاً بالسيد الإقطاعى صاحب الضيعة . ولكن يلاحظ فى الوقت نفسه أن هذا القن لم يكن عبداً بمعنى الكلمة ، لأن سيده كان لا يستطيع التصرف فيه بالبيع مثلا أو أذيته جثمانياً دون ذنب أو محاكمة[٢] . وعلى هذا نستطيع القول بأن القن لم يكن عبداً ولا حراً ، وإنما كان بين هذا وذاك ، فهو لا يتمتع إلا بقليل من الحقوق المدنية قبل سيده ، ولكنه — خارج نطاق علاقته بسيده — يعتبر فى نظر الدولة والكنيسة حراً ، له ما للأحرار من حقوق وإرادة وحرية فى عقد أى اتفاق مع غيره[٣] . ثم إنه من الخطأ أن نظن أن مصالح الغالبية من أقنان الضيعة كانت تهدر فى سبيل مصلحة السيد الإقطاعى صاحب الضيعة ، لأن الواقع هو أن الضيعة تألفت من مجتمع ريفى له حكومة ذاتية وادارة إقطاعية تنظمه وتسيطر عليه لتحقيق الخير لجميع أهاليه وتنظيم أسباب العيش لهم ، فضلا عن تزويد السيد الاقطاعى بما يطمع فيه من أرباح[٤] .

وقد تفاوتت الضياع ، واختلفت بعضها عن بعض فى المساحة وعدد السكان ، فالضيعة الصغيرة ضمت حوالى خمس عشرة أسرة فى حين ضمت الكبيرة نحوا من خمسين أو ستين أسرة . واختصت كل أسرة من هذه الأسر بحصة ثابتة ، أو نصف حصة أو ربع حصة أو ثمن حصة تبلغ مائة وعشرين فدانا أو ستين أو ثلاثين أو خمسة عشر . كذلك اختلفت الحقوق والواجبات التى تحققت أو التزمت بها هذه الأسر وفق مساحة حصتها[٥] . على أنه يلاحظ أن هذه الأراضى كانت توزع على الفلاحين بشروط وقيود ، لأنها فى الحقيقة ملك للسيد الذى يمتلك الضيعة

(1) Boissonnade : op. cit., p. 99.
(2) Painter : Med. Society; p. 55.
(3) Cam. Med. Hist., p. 479.
(4) Cam. Med. Hist., vol. 3, p. 474.
(٥) محمد مصطفى زيادة : الاقطاع والعصور الوسطى ص ١٠٤ .

ومن فيها من اقنان ، ولذلك سميت (tenures)[١] بمعنى القابض أو الممسك لأن الأرض هى التى تمسك بالقن وتربطه بها ، وليس هو الذى يمسك بالأرض ويربطها بشخصه[٢] .

على أنه من المهم أن نلاحظ أن الضيعة لم تكن مجرد مجموعة من الأكواخ يتوسطها دوار السيد الإقطاعى ، وتحيط بها الأراضى الزراعية والمراعى والغابات ، وإنما كانت الضيعة فى حقيقة أمرها اتحاداً أو هيئة متعاونة من الفلاحين تعمل سويا فى فلاحة الأرض واستغلالها وسد كفايتهم من حاصلاتها . فمزارعوا الضيعة الواحدة كانوا يشتركون بعضهم مع بعض فى تحديد موعد حراثة الأرض وبذر البذور فيها وجمع المحصول منها بل فى تقرير أنواع المحصولات التى يزرعونها[٣] . وبالإضافة إلى الأراضى الزراعية المقسمة إلى حصص بين الفلاحين وجدت أرض مشاعة تشمل مراعى لرعى الماشية ومروجا تهيأ لها طعاما فى الشتاء ، فضلا عن الغابة التى يحصل منها أهل الضيعة على ما يلزم لهم من أخشاب[٤] . ولم تكن هذه الأرض المشاعة مقسمة إلى حصص مثل الأرض الزراعية ، وإنما كانت من الوجهة القانونية تابعة للسيد ، ومن ناحية العرف حقا مشاعا لجميع أهل القرية[٥] . ومع ذلك فقد وضعت عدة قيود تحدد أوقات الرعى ونوع الماشية وعددها ، بحيث تتمتع كل أسرة بنسبة مالها من أرض زراعية ، وذلك مراعاة للعدالة من ناحية وضمانا لحماية المرعى من سوء الاستهلاك من ناحية أخرى[٦] . وثمة ملاحظة أخرى على توزيع أراضى الضيعة واستغلالها ، وهى أن السيد

---

(١) من اللفظ اللاتينى (tenere) بمعنى يمسك .

(2) Thompson : op. cit., vol, 2, p. 726.

(3) Painter : Med, Society, p. 47.

(4) Heaton : op. cit., p. p. 103-104.

ومحمد مصطفى زيادة . الاقطاع ص ١٠٥ — ١٠٩ .

(5) Painter : Med. Society, p. p. 44-45.

(6) Cam. Med. Hist., vol. 3, p. 474.

الإقطاعى كان لا يقسم جميع أراضيها الزراعية بين الفلاحين إلا بعد أن يحتفظ لنفسه بمزرعة خاصة (demesne) ، تبلغ مساحتها عادة ثلث الأراضى الصالحة للزراعة فى الضيعة[1] ، وتمد السيد الإقطاعى بكل ما يحتاج إليـه من ضروريات الحياة[2] .

أما الطريقة التى اتبعت فى فلاحة أرض الضيعة فتمثل دورة زراعية محكمة تعرف بالحقول الثلاثة (Three Fields) . ذلك أن جميع الأراضى الصالحة للزراعة فى الضيعة كانت تقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم يزرع فى الربيع، وقسم يزرع فى الخريف ، والقسم الثالث يترك مراحا بغير زرع . وفى كل سنة يحدث تبادل بين هذه الأقسام فأرض الخريف تترك فى العام التالى مراحة بغير زرع ، وأرض الربيع تزرع فى الخريف ، والأرض التى كانت مراحة فى العام السابق تزرع فى الربيع . وهكذا اتبعت أوربا العصور الوسطى نظام الدورة الثلاثية فى الزراعة لعدم إجهاد الأرض من ناحية والحصول على محصول طيب من ناحية أخرى[3] . على أنه يبدو أن نظام الدورة الثلاثية هـذا لم يستخدم فى أوربا العصور الوسطى إلا فى المناطق الخصبة الأكثر تقدما ؛ أما غيرها من المناطق فقد شاع فيهـا نظام الدورتين فتقسم الأرض إلى قسمين أحدهما يزرع والآخر يترك مراحا بالتناوب[4] .

وقد فرضت طبيعة نظام الضيعة روح التعاون على فلاحيها ، وبخاصة أيام الحرث والحصاد لأن الفلاح الواحد لم تكن لديه الإمكانيات المادية التى تمكنه من العمل بتفرده فى هذين الموسمين[5] . فإذا فرض أنه امتلك محراثاً فإنه كان لا يمتلك الثيران اللازمة لسحبه ، ولا سيما أنه كان من العسير شق الأرض الصعبة

---

(1) Painter : Med. Society; p 50

(2) Boissonnade : op. cit.: p.p. 85 87.

(3) Heaton : op cit ; p p. 101-102.

(4) Painter : Med. Society; p. 44.

(5) Pirenne , Cohen, Focillon : op. cit.; p. 0J.

بالمحراث البدائى المعروف حينئذ . هذا إلى أن الثيران التى عرفتها أوربا العصور الوسطى لم تكن سمانا قوية كالتى تعرفها اليوم ، وإنما كانت عجافا هزيلة ، بحيث أثارت تغذيتها بالكلأ والحشائش مشكلة دائمة فى ضيعة العصور الوسطى[(١)] . لذلك كانت تربط جميع ثيران الضيعة — وهى عشرون أو أكثر — فى المحراث لتعمل سويا فى حرث الأرض ، الأمر الذى تطلب من الفلاحين تعاونا واشتراكا فى حرث جميع أراضيهم[(٢)] . وهذا التعاون نفسه كان مطلوبا أيضا فى وقت الحصاد ، لأن الشيلم والحنطة والشوفان وغيرها كان لا بد من تخزينها بسرعة عند تمام نضجها خوفاً من تساقط حباتها وضياعها[(٣)] . لذلك كان الحصاد موسم نشاط كبير ، إذ يشترك فى العمل بالحقول جميع من بالضيعة من رجال ونساء وأطفال حتى يتم تخزين الحبوب فى أسرع وقت ممكن . وهنا يصح أن نلاحظ أن هذا النظام الذى سارت عليه الضيعة الأوربية فى العصور الوسطى كان تعاونياً لا شيوعياً ، لأنه بعد أن يتعاون جميع فلاحى الضيعة فى إعداد الأرض وزرعها وجمع المحصول ، كان هذا المحصول يقسم فى النهاية بنسبة الحصص التى فى حيازة كل أسرة من أسر الضيعة[(٤)] .

أما الماشية الموجودة فى الضيعة من ثيران وخنازير وأغنام وغيرها ، فكانت المتقدمة منها فى السن تذبح قبل حلول الشتاء وتقدد لحومها وتملح ليرسل نصيب الأسد منها إلى دوار السيد المالك . كذلك كان يذبح ما لا تدعو الحاجة إلى بقائه من صغار الماشية فى الخريف فى حين تبقى البقية الباقية لتقضى فصل الشتاء على الدريس والحشائش المجففة التى كثيراً ما كانت تنفذ قبل حلول الربيع فتسوء حالة الماشية

(1) Painter : Med. Society; p. 45

(2) Heaton : op. cit ; p. 97.

(3) Thompson : op. cit.; vol 2; p. 727.

(4) Stephenson : Med. Hist.; p. 257.

حتى أنها لا تستطيع السير إلى المرعى فى أوائل الربيع التالى إلا فى صعوبة بالغة[١] .

أما عن العلاقة بين السيد الإقطاعى صاحب الضيعة والأقنان المشتغلين بفلاحة أرضها ، فقد حددتها — فى ظل النظام السنيورى أو نظام السيادة — مجموعة من الحقوق والواجبات التى ألقت العبء الأكبر من المغارم على كواهل الفلاحين[٢] . وقد اختلفت الواجبات المفروضة على الفلاحين تجاه سيدهم الإقطاعى من مكان إلى آخر نتيجة لاختلاف العادات والملابسات ، ولكنه يمكن مع ذلك تقسيمها إلى ثلاثة أقسام : الخدمات ، والمقررات ، والاحتكارات . أما الخدمات فكان أولها تسخير الأقنان فى فلاحة المزرعة الخاصة بالسيد الإقطاعى (demesne) فيحرثونها ويبذرون بذرها له بالتناوب[٣] . ويسمى هذا النوع من السخرة الخدمة الأسبوعية (week work) لأن المقصود بها أن يرسل صاحب كل حصة فلاحاً ليعمل فى مزرعة السيد عدداً من الأيام فى الأسبوع يتناسب مع حصته . هذا فضلا عن السخرة الفصلية (boon — work) التى تفرض على الفلاحين فى مواسم جمع المحصول وحصاده[٤] . ومن الواضح أن هذه الخدمة الفصلية كانت مصدر متاعب للفلاحين لأنها تفرض عليهم فى الوقت الذى يكونون أحوج إلى ذلك الجهد والوقت لبذله فى جمع محصولاتهم الخاصة[٥] . وهناك نوع آخر من السخرة كان يفرض على الأقنان عند ما يطلب منهم إنشاء طريق أو حفر خندق أو إصلاح جسر ، إلى غير ذلك من الأعمال المرهقة ، التى كان السيد الإقطاعى يسخر فيها أقنان ضيعته .

---

(1) Painter : Med Society; p.p. 45-46

(2) Heaton : op. cit.; P. 92

(3) Painter : Med. Society; P. 50.

(4) Cam. Med. Hist.; vol. 3; p. 476 & Eyre : op. cit ; p. 253.

(5) Heaton : op. cit.; p. 93.

أما المقررات فتشمل عدة مكوس وضرائب ، أولاهـا ضريبة الرأس (Census, chefage) التى يتعين على كل قن أن يدفعها سنوياً للسيد صاحب الضيعة إما نقداً أو عيناً من الزبد والشمع وغيرها . ويبدو أن هذه الضريبة كانت تافهة و بسيطة ، ولـكن الغرض الأساسى منها هى أن تظل رمزاً للعبودية[١] . وهناك مكس آخر (Champart) تقرر على إنتاج الأرض والماشية ، ومقداره عشر ذلك الإنتاج . وكانت هذه الضريبة تتناول كل ما تخرجه الأرض من حبوب وخضر ، فضلا عن الماشية والدجاج والبط والاوز والبيض وغيرها[٢] . وأخيراً تأتى مجموعة أخرى من الضرائب المتفرقة مثل ضريبة الولاية (Taille) وضريبة « الجبن » التى يدفعها الأقنان مقابل السماح لهم برعى ماشيتهم فى مراعى الضيعة ، وضريبة الأسمـاك التى يدفعونها مقابل السماح لهم بالصيد فى البركة أو النهر ... الخ[٣] .

أما الاحتـكارات فـكانت عديدة ، ولا بد للفلاحين من قبولها صاغرين . فالسيد صاحب الضيعة هو الذى يمتلك طاحونة وفرنا ومعصرة بل أحياناً البئر الوحيد فى الضيعة . وفى هذه الحالة يصبح كل قن ملزماً بإحضار غلته إلى طاحونة السيد لطحنها ثم يحمل خبزه إلى فرن السيد لخبزه ، وكرومه وزيتونه وتفاحه إلى معصرة السيد لعصرها . . . كل ذلك مقابل أجر معين يقدمه القن لسيده إما نقداً أو عيناً[٤] . فإذا امتلك فرد طاحونة يدوية أو غير ذلك من الأجهزة التى من حق السيد الاقطاعى وحده أن يحتكرها اعتبر ذلك جرماً خطيراً يحاكم عليه[٥] .

(1) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit ; p. 62.

(2) Heaton : op. cit ; p. 05.

(3) Painter : Med, Society; p. 50.

(4) Boissonnade: op. cit; p. 6.

(5) Painter : Med, Society; p. 51.

وفيما عدا الالتزامات السابقة ، تعرض الأقنان لأعباء أخرى فى حالة الوفاة أو الزواج أو الوراثة أو انتقال حق التمتع بالأرض من فرد إلى آخر[1] . فالقن كان لا بد له من الحصول على موافقة السيد صاحب الضيعة إذا أراد أن يتزوج ، فإذا اختار امرأة من نفس الدومين كانت المسألة سهلة و بسيطة ، أما إذا رغب فى الزواج من امرأة من دومين آخر — أى تنتمى إلى سيد آخر — فإن السيد الأول كان يخشى فى هذه الحالة أن يفقد القن ولذلك يعارض فى مشروع الزواج[2] . ولما كان من المستحيل منع زواج فرد من المرأة التى اختارها لنفسه ، فقد لجأ السادة الاقطاعيون فى القرن الحادى عشر إلى فرض مبلغ كبير من المال(Formariage Formarier) على القن الذى يطلب الزواج من خارج الدومين[3] . فإذا استطاع القن الوفاء بالمبلغ فإنه يصعب فى هذه الحالة أن يظل هو فى ضيعة وزوجته فى ضيعة أخرى ، لا سيما أن الكنيسة نفسها عارضت مبدأ تمزيق الأسرة ، ولذلك كانت الزوجة تنتقل إلى الضيعة التى يعيش فيها الزوج مقابل بدل يرسله صاحب الضيعة الأخيرة إلى صاحب الضيعة التى أتت منها الزوجة . أما إذا أراد القن تزويج إحدى بناته فكان عليه أن يدفع لسيده رسما معيناً (merchet)[4] .

و إذا كان السيد الإقطاعى يحصل على جميع الضرائب والمكوس السابقة من الأقنان باعتباره مالك الأرض وحاميها ، فإن هناك نوعاً آخر من الحقوق القضائية حصل عليها بوصفه نائب الملك فى ضيعته[5] . ذلك أن صاحب الضيعة باشر جميع ما كان للملك من حقوق قضائية ، كما صارت محكمته تعالج — فى معظم الأحيان — مختلف أنواع القضايا ، وتوقع على المذنبين فيها شتى أصناف العقوبات بما فيها عقوبة الإعدام . ومن الواضح أن هذه الحقوق القضائية عادت بفوائد جمة

(1) Cam. Med. Hist ; vol. 7.; p. 720.
(2) Thompson : op. cit.; vol. 2; p. 730.
(3) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit. p. 61.
(4) Lyre : op. cit.; p. 253 & Heaton : op. cit.; p. 95.
(5) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit.; p 59.

على السادة الاقطاعيين ، لأنهم كانوا يفرضون غرامات مالية على المذنبين فى كثير من القضايا الصغرى ، فى حين كان السيد يستولى على جميع ممتلكات الشخص الذى يحكم عليه بالإعدام . هذا بالإضافة إلى ما ترتب على مباشرة هذه الحقوق القضائية من ازدياد نفوذ السادة الإقطاعيين وسيطرتهم على الأقنان[1] .

و يلاحظ أن الأقنان كانوا لا يمتلكون - فى ظل هذا النظام — شيئا من الأرض التى يعملون عليها ، و بالتالى ليس لهم حق النزول عنها بالبيع أو تقسيمها بين ورثتهم ، ومع ذلك فإن ارتباطهم بهذه الأرض كان مدى الحياة ثم صار وراثياً . وقد لجأ السادة الاقطاعيون — عند وفاة أحد الأقنان — إلى فرض ضريبة ميراث (Heriot) على أبنائه وورثته الذين سيحلون محله و يرثونه فى الانتفاع بالأرض ، لا فى ملكيتها . وكانت هذه الضريبة غالبا فرسا أو ثوراً قويا اعترافا بما للسيد من حق فى المنقولات الزراعية الخاصة بالأرض[2] . هذا عدا ما كان للسيد من حق فى أن يرث جزءا من تركة قنة المتوفى ، أو التركة كلها[3] .

***

و بعد فإنه يبدو مما سبق أن القن كان يحيا حياة شاقة مليئة بالمتاعب والآلام فى ظل نظام السيادة أو النظام السنيورى . حقيقة إن العائلة التى تمتعت بثلاثين فدانا — وما يتبعها من حصة فى الغابة والمرعى — استطاعت فى السنوات العادية أن تحيا حياة مستريحة ، ولكن الفجوة بينها و بين الجوع لم تكن واسعة ، بحيث كان مألوفا أن يتضور الجميع جوعا فى سنى الشدة .

وكان طعام القن الأساسى يتألف من الخبز الأسمر والبيض و بعض الخضر العادية كاللفت والفول والبازلاء . ور بما أسعدته الظروف فى إحدى المناسبات

---

(1) Painter : Med. Society; p p. 51-54.

(2) Cam. Med Hist.; vol. 3; p. 478

(3) Pirenne, Cohen, Foc illon : op. cit.; p. 61.

يأكل دجاجة أو غيرها من الطيور ، ولكنه كان لا يستطيع أن يتذوق اللحم والسمك إلا نادراً[١] . أما شرابه فكان النبيد أو الجعه . ومع ذلك فإنه يبدو أن القن ظل قانعاً راضياً بحياته ، ولا سيما أن هذه الحياة — مع ما فيها من ألوان البؤس — لم تخل من بعض ضروب الترويح والتنفيس . فإذا حضر إلى الضيعة أحد الحواة أو المهرجين ، استبقاه صاحبها ، وعندئذ يجتمع الفلاحون فى الدوار المشاهدة والترويح عن أنفسهم[٢] . وهنا نلاحظ أن البارون أو السيد الإقطاعى لم يختلف وقتذاك عن القن فى عقليته اختلافا واضحاً ، إذ كان ما يدخل السرور إلى قلب أحدهما كفيلا بإدخال السرور إلى قلب الآخر[٣] .

والواقع أنه على الرغم من قسوة الوضع الذى عاش فيه القن ، إلا أنه — كما سبق أن أشرنا — لا يمكن اعتباره عبدا من الناحية العملية ؛ لأن القانون حفظ له بعض الحقوق تجاه أرضه وتجاه سيده ، بحيث أنه لم يكن غريبا إذا شب خلاف بين قن وسيده أن تصدر المحكمة الاقطاعية حكمها فى صالح الأول[٤] . حقيقة إن القن بدا فى كثير من الحالات عاجزا أمام استبداد سيده ، ولكنه استطاع أن يضمن لنفسه فى ظل هذا النظام — نظام السيادة (Seignorial regime) — نوعا من الحماية لا سيما ضد الخطر الخارجى . و بعبارة أخرى فإن هذا النظام لم يكن جحيما لا يطاق ، فقد فيه القن كل أمل فى الخلاص ؛ لأنه على الرغم من قسوته وشدته ترك بعض الثغرات والمخارج أمام القن ليحيا حياة أفضل[٥] .

ثم كان أن أخذ نظام الأقنان فى الانهيار نتيجة للتطورات الاقتصادية والاجتماعية التى بدأت تجتازها أوربا منذ أواخر القرن الحادى عشر[٦] . وقد أخذت هذه

---

(1) Painter : Med. Society; p. 40.
(2) Thompson : op. cit.; vol. 2; p. 732.
(٣) محمد مصطفى زيادة : الاقطاع والعصور الوسطى بغرب أوربا ص ٣٢ .
(4) Eyre : op. cit.; p. 253.
(5) Boissonnade : op. cit ; p.p. 143-144.
(6) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit.; p p. 62-63.

التطورات فى الظهور قبيل الحروب الصليبية ، ولكن هذه الحروب عجلت بها نحو الأمام ؛ حتى أن الحملة الصليبية الأولى وحدها فتحت الباب أمام عشرة آلاف قن تركوا أرضهم التى ارتبط بها آباؤهم وأجدادهم بحجة الاشتراك فى النشاط الصليبى . ثم كانت نشأة المدن وتطورها ، مما فتح بابا جديدا أمام الأقنان لهجرة الأرض والنزوح إلى المدن . ولم يلبث أن استكشف أصحاب الضياع أن نظام العبيد والأقنان غير اقتصادى[١] ، وأنه من الأوفر لهم والأجدى عليهم استخدام عمال مأجورين من الأحرار فى فلاحة أرضهم لأن هؤلاء الأخيرين يعملون بعزيمة أقوى وروح أسمى وبالتالى يأتون بإنتاج أوفر[٢] . وهكذا أخذ كبار الملاك يحررون أقنانهم بالجملة وفق شروط خاصة تصدر بها براءة من المالك[٣] . وكان أن ثارت فى القرن الثانى عشر حركة كبرى لاحياء الأرض البور وتطهيرها واستصلاحها (grands défrichements) نشأ عنها زيادة الانتاج والدخل ، وفى الوقت نفسه تحسين أحوال المزارعين[٤] . ذلك أن كبار الأمراء والسادة الاقطاعيين اضطروا إلى عرض شروط مغرية على الفلاحين ليقوموا بإحياء هذه الأراضى وفلاحتها ، مما ساعد على هدم النظم القديمة تدريجيا[٥] . هذا إلى أن النشاط التجارى فى القرن الثانى عشر وما ترتب عليه من التوسع فى استخدام النقود ، أدى تدريجيا إلى أن أخذ الفلاحون يدفعون ما عليهم من التزامات نقدا لا عينا ، وإن ظلت بعض أسماء الضرائب والمكوس محتفظة بأسمائها القديمة.[٦] وإذا كان نظام الأقنان قد ظل قائما فى جميع أنحاء أوربا فى القرن الثالث عشر ، إلا أنه كان آخذا حينئذ فى الاحتضار السريع[٧] .

---

(1) Coulton : The Med. Scene; p. 23.
(2) Cam Med Hist ; vol 7; p p. 728-729
(3) Painter : Med. Society; p p. 59-60.
(4) Pirenne, Cohen, Pocllon : op. cit.; p. 65.
(5) Painter : Med. Society; p.p. 57-58.
(6) Idem; p. 59.
(7) Cam Med. Hist : vol. 7; p. 727.

مركز المرأة فى المجتمع :

أما عن مركز المرأة فى مجتمع أوربا العصور الوسطى فكان ثانويا بحتاً . ويبدو أن المصالح العائلية أو المالية هى التى تحكمت دائماً فى اختيار الزوجة ، إذ كان يراعى فيها — بقدر الإمكان — أن تكون وريثة إقطاع أو على الأقل وريثة جزء كبير من الأرض . وبعد الزواج يصبح مطلوبا منها أن تضع مولوداً ذكراً ، فإن اخفقت فى هذه المهمة كان من السهل على زوجها غالباً أن يغرى الاسقف بفسخ الزواج[1] .

وقد فرض النظام الإقطاعى فى أوربا العصور الوسطى على المرأة أن تكون دائماً تحت وصاية رجل ، أبوها فى أول الأمر ثم زوجها بعد ذلك . أما الأرملة فتكون تحت وصاية سيدها أو أكبر أبنائها . حقيقة إنه كان من حق المرأة أن ترث إقطاعا ، ولكنها لا تستطيع أن تباشر حقها فى حكمه إلا عن طريق زوجها . ولعله من الواضح — بعد عرضنا لقواعد النظام الإقطاعى — تفسير هذه الظاهرة فى ضوء عجز المرأة عن القيام بأعباء الوظيفة الأساسية لطبقة الإقطاعيين وهى الحرب[2] .

أما الكنيسة ، فاتخذت فى العصور الوسطى موقفاً متناقضاً من المرأة ، إذ اعتبرتها من ناحية شريكة آدم التى حرضته على المعصية والخطيئة وهى لذلك لا تستحق إلا كل احتقار وامتهان ؛ كما نظرت إليها من ناحية أخرى على أنها تمثل مريم العذراء أم المسيح وهى لذلك جديرة بكل احترام وتقدير[3] . وإذا كانت النظرة الأولى جعلت الكنيسة تطالب رجالها بعدم الزواج على أساس

---

(1) Stephenson : Med. Hist ;p. 268.

(2) Painter : Med. Society; p. 29.

(3) Crump, Jacob : The Legacy of the Middle Ages, 402.

أن المرأة عامل من عوامل الغواية ، فإن النظرة الثانية جعلتها تساعد فى نشر فكرة سمو المرأة(١) .

على أن الفضل يرجع إلى الطبقة الأرستقراطية فى تطور فكرة تبجيل المرأة فى العصور الوسطى ، إذ أصبح هذا التبجيل صفة من الصفات الأساسية التى يجب أن يتحلى بها الفارس ، حتى قال بعض الكتاب « إن الفارس نصير الله والمرأة »(٢) . وتتضح هذه الفكرة واضحة فى أشعار التروبادور ، التى تظهر كيف كان جمال المرأة ورقتها وعقلها تستهوى قلب الرجل وحبه ؛ وأن المحب لم يستهدف شيئاً غير ادخال السرور على قلب محبوبته ، فلا يأبه بطعام أو شراب ولا يتأثر لحر أو برد فى سبيل الفوز بابتسامة رقيقة منها(٣) .

ومع ذلك فإنه من الملاحظ أن المرأة لم تتمتع بأى حق قبل زوجها . حتى أن كتاب العصور الوسطى أيدوا حق الزوج فى ضرب زوجته و إيذائها إذا خالفته . وكل ما فعلته الكنيسة إزاء هذا الوضع هو تحديد حجم العصا التى يصح للزوج أن يستخدمها فى ضرب زوجته !(٤)

ولكن على الرغم من أن المرأة كانت شريكا مغبونا للرجل فى ظل النظام الإقطاعى ، إلا أنها احتلت المكانة التالية له مباشرة فى الحصن والضيعة . و بعبارة أخرى فإنها لم تتمتع بحقوق تجاه زوجها ولكنها تمتعت بكل ما لزوجها من حقوق تجاه غيرها(٥) . وهناك أمثلة كثيرة من العصور الوسطى لنساء حملن الرسالة أثناء غياب أزواجهن فى الحرب أو بعد وفاتهم ، فقمن بإدارة الضياع والدفاع عنها أو بجمع الأموال لفدية الزوج الأسير(٦) .

---

(1) Coulton : Life in the Middle Ages, vol. 4; p. 23.
(2) Crump, Jacob : The Legacy of the Middle Ages; p.p. 405-406.
(3) Painter : Med. Society; p. 36.
(4) Idem. P. 29.
(5) Idem. p. 30.
(6) Stephenson : Med. Hist.; P. 268.

وإذا كانت سيدات الطبقة الارستقراطية والطبقة البورجوازية قد تمتعن بقسط من الراحة والتسلية ، فإن الفلاحات وزوجات الأقنان حرمن من هذه النعمة، لأن قسوة الحياة كثيراً ما أجبرتهن على مشاركة أزواجهن فى الكفاح والعمل من أجل لقمة العيش . لذلك أسهمت الفلاحة بسهم وافر فى الحياة الأوربية فى العصور الوسطى ، وقامت فى داخل المنزل بكل ما احتاجت إليه الأسرة من طعام وشراب وملبس ، فعملت فى جز أصواف الأغنام وغزلها ونسجها ، وتربية الدواجن ، وصناعة مستخرجات الألبان ؛ هذا كله زيادة على تربية أولادها . أما خارج المنزل فقد اسهمت فى بناء الأكواخ وقطع الأعشاب وجمع المحصول وتخزينه[1] . ومع ذلك فإن العرف الإقطاعى شمل زوجة القن بشىء من الرعاية ، إذ جرت العادة على اعفائها — وهى فى حالة الوضع — من ضريبة الدجاجة التى عليها أن تقدمها سنويا قبل الصيام الكبير ، فضلا عن حصولها فى هذه الحالة على بعض المساعدات المادية[2] .

أما فى المدن فقد اشتغلت المرأة بصناعة الجعة والنبيذ بالإضافة إلى غزل الأصواف . ويبدو أن هذه الحرف فتحت بابا للعمل أمام غير المتزوجات من الأرامل والعانسات ، على الرغم من حرص بعض النقابات على تحريم اشتغال النساء بأعمال معينة حتى لا ينافسن الرجال بسبب رخص أجورهن[3] . وهناك فريق آخر من النساء أقبلن على الحياة الديرية وانخرطن فى سلكها لاشباع الناحية الدينية فى نفوسهن ، فضلا عن أن هذه الحياة هيأت لهن قسطاً من الثقافة الراقية والعمل المنتج[4] .

---

(1) Coulton : Life in the Middle Ages; vol 1, P. 217.
(2) Crump, Jacob : The Legacy of the Middle Ages, P. 428.
(3) Boissonnade : op. cit.; P. 221.
(4) Coulton : Life in the Middle Ages; vol 4; P.P. 5-22 & Crump, Jacob : op. cit ; P.P. 412-413.

الباب الرابع

المدن والتجـــارة

إحياء المدن والتجارة :

كانت المدن بمثابة المكان المختار الذى أخـذ الأقنان ينزحون إليه عندما انحل النظام الزراعى القائم على أكتافهم . والواقع إن نشأة المدن فى العصور الوسطى جاءت ثورة بالغة الخطورة ، لا فى الميدانين السياسى والإقتصادى فحسب ، بل فى الميدان الاجتماعى أيضاً . ولم تكن هناك ثمة علاقة تربط المدينة الأوربية التى ظهرت فى العصور الوسطى بالمدن القديمة التى عرفها العصر الرومانى ؛ والتى بلغت أقصى درجات التقدم والنشاط فى القرنين الأول والثانى للميلاد(١) . ذلك أن المدن القديمة أصابها الذبول نتيجة للأخطار التى تعرضت لها الإمبراطورية الرومانية ، فتناقصت مساحتها وقلت أهميتها ولم تعد منذ القرن الخامس مركزاً للنشاط الحيوى فى أوربا(٢) . و إذا كانت هذه المدن قد احتفظت بشيء من الأهمية فى العصور المظلمة ، فمرجع ذلك أنها أصبحت مراكز أسقفية : و بعبارة أخرى فإن أهميتها أصبحت تنحصر فى الدور الذى قامت به فى التنظيم الكنسى بعد أن فقدت مكانتها فى التنظيم الإدارى(٣) . أما أهالى المدن الرومانية القديمة فقد أصبحوا أقناناً ، وأن استمر كثير منهم يعملون كعمال وصناع وبخاصة فى الأديرة . وهكذا لم تعد المدينة الرومانية التى قدر لها البقاء تحت نفوذ رجال الدين ، أكثر من مركز

(1) Painter : Med. Society, p. 63.
(2) Eyre : op. cit, p. 256.
(3) Cam. Med Hist., vol. 6, p.507.

ديني لا تمتلك من آثار النشاط التجارى أو الصناعى إلا القدر الذى يكفى حاجة المؤسسات الدينية ورجال الدين وأتباعهم[١] .

ومن الثابت أن الإقتصاد الأوربى اتخذ طابعاً زراعياً بحتاً منذ نهاية القرن الثامن ، فأصبحت الأرض المصدر الرئيسى للثروة ، واعتمدت جميع طبقات المجتمع على ما تدره الأرض من خيرات ، وبذلك انعدمت التجارة أو كادت تنعدم ، وأصبحت الأرض وحدها هى الأساس الذى قام عليه بناء الحياتين الإقتصادية والإجتماعية فى أوربا[٢] . أما النشاط التجارى الذى وجد فى أوربا بين القرنين الثامن والعاشر ، فقد اقتصر على التجارة المحلية الضيقة من جهة ، والعلاقات التجارية بين بعض المدن الإيطالية والدولة البيزنطية من جهة ثانية ، ثم على النشاط التجارى الذى قام به الفيكنج فى بحر الشمال والبحر البلطى وسهول روسيا من جهة ثالثة . وربما ساعد على انحطاط التجارة فى هذه الفترة موقف الكنيسة نفسها التى ظلت تنظر إلى الكسب التجارى على أنه غير حلال ، وأن الأرض الزراعية وحدها هى المورد الطيب الذى يمكن أن يعيش عليه الإنسان[٣] .

ثم كان أن ظهرت فى العصر الإقطاعى مجتمعات من الأقنان ، اختاروا العيش بجوار القصور والحصون والأديرة للاحتماء بها[٤] . وقد أدت كثافة هذه المجتمعات فى بعض الجهات وتمتعها بالسلم والحماية إلى تمكينها من القيام بنشاط صناعى محدود ؛ حتى أن الأقنان الذين كانوا يعملون صيفا فى فلاحة الأرض ، أخذوا يشغلون وقتهم فى الشتاء بالنجارة وصناعة الجلود أو الأوانى الفخارية ليبيعوا إنتاجهم فى أقرب سوق محلى[٥] . وهكذا بدأت هذه المجتمعات الجديدة تعتمد

---

(1) Pirenne ; Economic and Social Hist. of Med. Europe, p. 5
(2) Pirenne, Cohen, Focillon : op cit., p p 10-12
(3) Idem; p. 29
(4) Pirenne: Medieval Cities; p. p. 72-76.
(5) Cam Med. Hist. vol. 6; ps; 477,514

شيئاً فشيئا على القرى والمناطق الريفية المجاورة فى الحصول على قوتها وفى تصريف إنتاجها الصناعى البسيط[١] . أما النشاط التجارى فإن الفضل فى إحيائه لا يرجع إلى هذه المجتمعات بقدر ما يرجع إلى التجار الجائلين و بخاصة اليهود ، الذين قاموا باستيراد السلع والبضائع لبيعها للنبلاء وأتباعهم[٢] . وقد بلغ من سيطرة اليهود على التجارة الأوربية فى ذلك العهد المظلم من العصور الوسطى أن لفظ يهودى Judaeus أصبح مرادفاً للفظ تاجر mercator[٣] . وكان هؤلاء التجار فى أول الأمر متنقلين لا يعرفون حياة الإستقرار فى منطقة بعينها ، ولكنهم أخذوا يستقرون تدريجياً بعد ذلك ليجعلوا من بيوتهم مخازن تجارية حقيقية[٤] .

ولم يلبث الأمراء المحليون أن سمحوا لهؤلاء التجار بالإقامة بجوار حصونهم نظراً للفائدة التى تعود عليهم من وراء فرض ضرائب على تجارتهم من ناحية وإثارة نوع من النشاط والحركة فى المنطقة من ناحية أخرى[٥] . وكان أن أقام التجار فى القرن الحادى عشر شبه حظائر مسورة متاخمة لحصون الأمراء ، تمتعوا فيها بقسط من الحرية الشخصية لم يتوافر للأقنان فى الضياع المجاورة[٦] . وهكذا أخذت هذه المجتمعات التجارية تتطور سواء كانت مرتبطة بإحدى المدن الأسقفية أو خارج سور دير من الأديرة أو بالقرب من بعض الحصون الاقطاعية — لتنشأ منها مدن العصور الوسطى ؛ كما تطورت الحقوق المحدودة التى حصل عليها تجار هذه المجتمعات من الأسقف أو مقدم الدير أو السيد الاقطاعى لتصبح نواة للعهود والبراءات الاعفائية التى تمتعت بها المدن فيما بعد[٧] .

---

(1) Pirenne : Economic and Social Hist; p. p. 42-44
(2) Cam. Med Hist ; vol. 6; p. p 509-511.
(3) Pir nne, Cohen, Focillon : op. cit.; p 15.
(4) id-m; p. p. 40-41.
(5) Painter: Med Society; p.p. 72-73 &Cam, Med. Hist.,vol 6, p.510
(6) Cam Med Hist.; vol. 6; p. 477,
(7) Pirenne : Economic and Social Hist., p. p. 71-74.

وإذا كانت الفترة الواقعة بين سنتى ٥٠٠ ، ١٠٠٠ تقريباً تمثل عهداً مظلماً فى تاريخ المدن الأوربية ، إذ اختفت فيها الحياة المدنية من أوربا وصحب ذلك ذبول التجارة والصناعة[١] ؛ فإنه يمكن تلخيص العوامل الرئيسية التى أدت إلى مولد مدينة العصور الوسطى فى القرن الحادى عشر فى إحياء التجارة ، وظهور طبقة التجار وقيام المجتمعات التجارية البدائية التى سبقت الإشارة إليها[٢] . ومعنى ذلك أن المدينة الأوربية مرت بأدوار شاقة قبل أن تصبح مركزاً تجارياً وصناعياً واضح المعالم ، لأنها ظلت أمداً طويلا تصور الطابع العام للمجتمع الزراعى الذى ساد العصور الوسطى[٣] . هذا إلى أن سكانها ظلوا قلة صغيرة لا يتصورها العقل ، حتى أن المدن الكبرى — مثل مينز وكولونيا فى ألمانيا ، وميلان وبافيا فى إيطاليا وباريس وليون فى فرنسا — لم يزد سكان إحداها فى القرن الحادى عشر على بضعة آلاف نسمة على أقصى تقدير[٤] . ولسنا فى حاجة إلى القول بأن العامل الجغرافى لعب دوراً هاماً فى نشأة المدن وتطورها ، فبعضها مثل البندقية وبيزا استمدت أهميتها من كونها موانى تطل على البحر ، والبعض الآخر — مثل كريمونا — كانت ملتقى عدة روافد هامة لنهر معين ، ونوع ثالث — مثل فيرونا وسينا وبولونيا — كانت تتحكم فى ممرات أو طرق رئيسية ... وهكذا[٥] . هذا إلى أن الإقليم بأجمعه كانت له فى بعض الأحيان ظروفه التى ساعدت على نشأة المدن وازدهارها . فإيطاليا تقع عند منتصف الطريق بين الشرق والقسطنطينية من جهة والغرب من جهة أخرى ، مما شجع مدنها على القيام بدور الوسيط التجارى بين الشرق والغرب . ومثل ذلك يقال عن فلاندرز وشامبنى فى الوساطة بين جنوب أوربا وشمالها[٦] .

---

(1) Cam. Med Hist.; vol. 5; p, p. 209-210.
(2) Cam. Med. Hist ; vol 6, 477.
(3) Pirenne : Med Cities; p p 60-76.
(4) Boissonnade : op cit , d. 203.
(5) Cam Med Hist., vol. 5; p. 208.
(6) Idem; p. p. 208-209.

ثم كان أن وجدت حالة من السلام والاستقرار فى القرن الحادى عشر مكنت التجار من مباشرة نشاطهم ، و بالتالى ساعدت على ازدهار المدن . هذا بالاضافة إلى ما كان من حركة الإصلاح الكنسية التى ترتبط فى التاريخ باسم ديركلونى، وما ترتب على كل ذلك من إقبال على إزالة الغابات وتجفيف المستنقعات . وأخيراً جاءت الحروب الصليبية لتضيف عاملا قويا إلى العوامل التى أدت إلى تحطيم نظام الضياع (manorial-system) ، وتشجيع التجارة والصناعة ، بحيث لم تعد الأرض المصدر الوحيد للثروة[١] .

وهنا نلاحظ أن التوسع الاسلامى فى حوض البحر المتوسط منذ القرن السابع حطم وحدة ذلك البحر وأضعف النشاط التجارى فيه ، ولكنه لم يقض على ذلك النشاط تماما . ذلك أن فشل المسلمين فى الاستيلاء على القسطنطينية ترك الباب مفتوحا أمام التبادل التجارى بين المدن الايطالية — و بخاصة البندقية — من ناحية ، وأراضى الدولة البيزنطية من ناحية أخرى[٢] . ومع هذا فإنه يمكن القول بأن النشاط التجارى فى غرب أوربا انحط إلى أسفل درجاته فى القرن العاشر ، وظل على ذلك حتى بدأت الحروب الصليبية فى نهاية القرن الحادى عشر ، لتضاعف من النشاط التجارى للمدن البحرية[٣] فظهرت أمالفى وجنوا و بيزا ومرسيليا ونار بون و برشلونه لتنافس البندقية فى ذلك النشاط . وكان البنادقة بوجه خاص يحملون إلى أسواق مصر والشرق الرقيق والجوارى من الصقالبة المجلوبين من شاطىء دالماشيا فضلا عن الأخشاب والحديد ؛ و يستوردون بدلا منها مختلف الحاصلات الشرقية[٤] .

---

(1) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit., p. 31 & Cam. Med. Hist., vol. 5, p. 636.

(2) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit., p. p. 19-21.

(3) Painter : Med., Society ps., 64, 69.

(4) Pirenne : Economic and Social Hist., p. 18.

وعند ما تكدست البضائع المستوردة من الشرق فى هذه الموانى ، أخذت تشق سبيلها نحو وسط أوربا وغربها عن طريق السهل اللمباردى وممرات جبال الألب وطريق الراين ، مما أثار نشاطاً كبيراً فى المدن الواقعة على هذا الطرق . على أن هذا النشاط التجارى فى جنوب أوربا ووسطها صحبه نشاط مماثل فى شمالها ، حيث غدا إقليم فلاندرز فى القرن الثانى عشر ، مركزاً رئيسياً لهذا النشاط ، بفضل انهاره وموانيه التى جعلته على اتصال بشمال أوربا ووسطها وجنوبها[١] . ومن المعروف المسلم به أن الدافع الرئيسى للنشاط التجارى يرجع إلى وجود مجتمعين أو أكثر ينتج كل منهما نوعا خاصاً من المنتجات التى يحتاج إليها غيره ، مما يحتم على كل مجتمع مبادلة الفائض من إنتاجه بما هو فى حاجة إليه من انتاج المجتمع الآخر[٢] . وفى ضوء هذا الاعتبار — زيادة على أهمية الموقع الجغرافى — يمكننا أن نفسر انتعاش مدن لمبارديا وفلاندرز فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، إذ تقع الأولى بين الشرق والغرب ، فى حين تقع الثانية بين الشمال والجنوب[٣] . وهكذا أخذت تزداد قوافل التجار المسافرين بطريق البر أو النهر أو البحر ، ولم يعد هؤلاء التجار من اليهود وحدهم ، وإنما شاركهم اللمبارديون والتسكانيون والبنادقة والجنوية والفلمنكيون والبروفنساليون[٤] . كذلك استتبع هذا النشاط التجارى كثرة المعارض والأسواق الكبيرة فى مختلف أنحاء أوربا ، بعد أن أضحت الأسواق المحلية الصغيرة لا يمكنها النهوض بمطالب المستهلكين والتجار .

ويحتل القرن الثالث عشر أهمية كبرى فى التاريخ التجارى لأن طرق

---

(١) اشتهر اقليم فلاندرز فى العصور الوسطى بصناعة الأجواخ والمنسوجات الصوفية ونحوها ، حتى أن شارلمان لم يجد شيئا يهديه الى معاصره الخليفة هارون الرشيد أجل وأثمن من بعض هذه الأقمشة الصوفية التى ينتجها إقليم فلاندرز .
(أنظر Pirenne, Cohen, Focillon, op. cit., p. 30.)

(2) Painter : Med. Society; p. 66.

(3) Idem; p p. 66—69.

(4) Boissonade : op. cit.; p p. 162—163.

التجارة القديمة استبدلت بها أخرى جديدة[١] . فاستيلاء الحملة الصليبية الرابعة على القسطنطينية سنة ١٢٠٤ عطل طريق القسطنطينية التجارى ؛ كما اتاحت الحرب الصليبية ضد الهراطقة الألبيجنسيين فرصة لملوك فرنسا للحصول على منافذ تجارية جديدة على البحر المتوسط ؛ فدخلت مرسيليا و برشلونة فى دائرة النشاط التجارى مع الشرق . أما فى شمال أوربا فإن الفرسان التيتون نهضوا بتجارة بروسيا ليتسع نطاقها شرقا على شاطىء البحر البلطى ، كما أسسوا موانى ليباو وميمل وريفال[٢] . ثم كان أن دمر المغول مدينة كييف سنة ١٢٤٠ وبالتالى قطعوا الطريق التجارى بين البحرين البلطى والأسود ، فأخذت نوفجرود فى أقصى الشمال تعمل على توطيد علاقاتها التجارية مع موانى استوانيا وشمال ألمانيا واستفادت فعلا من ذلك[٣] . ولم يقف تأثير المغول فى طرق التجارة عند هذا الحد، بل إن استيلاءهم على العراق و بغداد سنة ١٢٥٨ أدى إلى تركيز التجارة بين الشرق والغرب فى طريق البحر الأحمر وموانى مصر المملوكية من ناحية وطريق طرابيزون من ناحية أخرى[٤] . ومن الواضح أن هذه التغييرات وغيرها أثرت فى النشاط التجارى للمدن الأوربية الناشئة تأثيراً بالغاً ، حتى بلغت قيمة ما تستورده البندقية سنويا من بضائع الشرق عن طريق دولة المماليك وحدها مليون دوكات[٥] .

ويمكن القول بأن الفترة الواقعة بين سنة ١٠٧٥ — وهى السنة التى نجحت فيها ثورة كولونيا ضد أسقفها — وسنة ١١٨٣ — وهى السنة التى حصلت فيها مدن الحلف اللمباردى على حقوقها فى الحكم الذاتى من الامبراطور فردريك بربروسا

(1) Cam. Med. Hist; vol. 6; p.p. 478 – 479.

(2) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit.; p.p. 128—129.

(3) Rambaud : Hist de la Russie; p.p. 126—131.

(4) Thompson : op. cit.; vol. 2; p. 737.

(5) Boissonnade :op cit,; p. 289.

تصور دور البطولة فى تاريخ نشأة المدن فى أوربا العصور الوسطى[١] . ولم تلبث أن أصبحت المدن الإيطالية بوجه خاص مثلاً احتذته بقية المــدن الأوربية فى بروفانس وحوض الراين وفلاندرز للحصول على سيادتها . وعلى ذلك فإن نشأة المدن جاءت بطيئة وتدريجية ، على الرغم مما نسمع به من ثورات قامت بها بعض المدن مثل ميلان وكامبراى وكولونيا وغيرها[٢] . و بفضل هذه الخطوات التدريجية أخذت المدن تنتزع من سادتها الاقطاعيين اعترافات بحقوقها ، فازداد عدد البراءات والعهود الاعفائية التى حصلت عليها تدريجياً[٣] . ومع أن هـــذه البراءات اختلفت كثيراً فى تفاصيلها ، حتى أنه ليصعب العثور على براءتين متشابهتين لمدينتين مختلفتين ، إلا أنها اتفقت جميعاً فى روحها وفى خاتمتها التى تنص على حرية الأرض التى قامت عليها المدينة وأن كل من يعيش فى هذه المدينة سنة ويوما واحداً يعتبر حراً[٤] . وهكذا أخذت قبضة الأمراء تخف عن المدن فى النواحى الإدارية والقضائية والمالية ، وكلما تنازل أمير عن حق من حقوقه تلقفته المدينة فى صورة إعفاء ، حتى تــكتمل جميع هذه الإعفاءات فى البراءة التى تعبر عن سلطة المدينة ودستورها والتى حرصت كل مدينة على حفظها فى أرشيفها .

على أنه يلاحظ أن هذه البراءة التى حصلت عليها المدينة بعد جهد شاق ، لم تــكن امتيازاً عاماً تمتع به جميع سكانها ، وإنما قصدت بها فئة محدودة فقط من هؤلاء السكان اختلفت باختلاف ظروف المدينة ، فربما كانت مجموعة التجار أو الصناع أو غيرهم[٥] . وكانت هذه الفئة المحدودة تمثل الهيئة الممتازة التى يختار منها محافظ المدينة وموظفوها والتى تتمتع بالامتيازات المدنية كاملة . وفى بعض

---

(1) Thompson : op. cit.; vol. 2; p. 737.

(2) Cam. Med. Hist.; vol. 5; p.p. 218—219.

(3) Idem; p. 231 & vol 6; p, 5 9.

(4) Painter : Med. Society; p. 72

(5) Pirenne, Cohen, Focillon ; op. cit ; p p. 48—49.

الأحيان لجأ أفراد هذه الأقلية الممتازة إلى التوسع فى منح الامتيازات التى يتمتعون بها لغيرهم من سكان المدينة لا سيا القادرين الأثرياء ، فى حين ظلت بقية الطبقات محرومة من هذه الامتيازات ومن الاشتراك فى الحكم . وهكذا ظلت مدينة العصور الوسطى أرستقراطية فى جوهرها وحكومتها ، على الرغم من أنها بدت ديموقراطية عند الموازنة بينها و بين الهيئات الإقطاعية الممتازة(١) . ولعل هذا الانقسام السياسى والاقتصادى والاجتماعى بين سكان المدينة الواحدة هو السر فى اضطراب تاريخ المدن فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، إذ ظل الصراع مستمراً بين البورجوازية والطبقات الدنيا ، و بين أصحاب العمل والطبقات الكادحة . ومن ذلك أن نقابات التجار والصناع التى بدأت فى شكل اتحادات بين أفراد أحرار متكافئين لم تلبث أن تحولت إلى هيئات احتكارية تتحكم فى رءوس الأموال وفى الأسعار وفى تنظيم الأجور وساعات العمل(٢) .

ولم تكن نشأة المدن فى أوربا العصور الوسطى ظاهرة محلية ، و إنما اتخذت هذه النشأة طابعاً عالمياً ، فبدأت واضحة فى لمبارديا وفلاندرز ، ثم أخذت تنتشر بسرعة فى بقية بلاد الغرب . ومن الطبيعى أن تختلف المدن فى تاريخ نشأتها ، ولكنها اتفقت جميعاً فى العوامل والظروف الأساسية التى صحبت هذه النشأة وأدت إليها(٣) . ففى جميع الحالات جاءت نشأة المدن نتيجة لانتعاش التجارة والصناعة ، أما الخلاف بين المدن بعضها و بعض فمرجعه اختلاف الظروف السياسية المحلية أو تباين الأوضاع الاقتصادية والجغرافية(٤) . وهنا نلاحظ أن عنصر التقليد والمحاكاة كان قوياً واضحاً فى نشأة المدن ، فتستعير مدينة ناشئة دستور مدينة أخرى تكبرها عمراً وتأخذ عنها نظمها ؛ مما جعل المدن تتخذ شكل مجموعات

(1) Boissonnade : op. cit , p. 205

(2) Thompson : op cit. vol., 2, p. 733

(3) Pirenne : Med. Cities; p. 74.

(4) Cam. Med. Hist.; vol. 5; p 208.

أو عائلات تضم كل مجموعة أو عائلة المدن المتشابهة فى نظمها أو التى أخذت هذه النظم عن مصدر واحد[١] .

وكانت كل مدينة عندما يتم تأسيسها تحيط نفسها بسور يحدها ويحميها . ولم يلبث أن تطالب نمو المدينة واتساعها قيام ضواحى حولها تسكنها الطبقات الفقيرة ، حتى تزداد أهمية هـذه الضواحى فيقام سور جديد خارجها بعد هدم السور الأول وتضم الفئات الجديدة من سكان الضواحى إلى صلب المدينة[٢] . وفى خارج البوابة الرئيسية للمدينة كانت تقام المشانق العمومية لشنق من يستحق الإعدام . كذلك جرت العادة بحفر خندق عميق حول سور المدينة الخارجى ، وعلى هذا الخندق يقام جسر متحرك أمام البوابة ، يرفع ويدلى حسب الحاجة . وإذا كانت مداخل المدينة متسعة لتسمح للعربات المحملة بخيرات المناطق الريفية المجاورة بدخولها فى سهولة ، فإن شوارع المدينة الداخلية نفسها كانت ضيقة ، يبلغ عرضها عشرة أقدام أحيانا ، كما امتازت بالقذارة نتيجة لإلقاء القمامة والفضلات من نوافذ المنازل دون اكتراث بمن فى الطريق من المارة[٣] . ولما كانت هـذه المدن تعتمد فى الغالب على مياه الآبار لا الأنهار ، فإن الأمراض كانت كثيرة الانتشار فيها ونسبة الوفيات عالية بين سكانها نظرا لسهولة تلوث مياه الآبار من جهة ، وإهمال العناية بالقواعد الصحية من جهة أخرى . فإذا ما أقبل الليل ، فإن الظلام الدامس كان يعم شوارع المدينة ، وعندئذ يكثر انتشار اللصوص وقطاع الطرق بحيث يصبح الخروج إلى الطريق العام ليلا أمرا محفوفا بالمخاطر .

وكانت المدن الإيطالية من أولى المدن الأوربية التى قامت برصف طرقها ، ومنها انتقل هذا التقليد إلى غيرها من المدن ، وإن ظلت الغالبية العظمى لا تحاول

(1) Thompson : op. cit.; vol. 2; p. 739.

(2) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit ; p. 51.

(3) Painter : Med Society; p. 82.

وصف طرقها بسبب ارتفاع النفقات[1] . ولما كانت مساحة المدينة محدودة بأسوارها العالية ، فإن أراضي البناء داخلها صارت باهظة القيمة ، مما دفع الملاك إلى إنشاء المبانى العالية ذات الطوابق المتعددة ، والحصول على إيجارات مرتفعة من السكان[2] . وقد لجأت حكومات المدن إلى تحديد ارتفاع المبانى لمنع ازدحام السكان من جهة وحتى لا يصل أى مبنى إلى مستوى ارتفاع كتدرائية المدينة أو مبناها الحكومى من جهة أخرى . وكان يحدث فى بعض الأحيان أن يشترك عدة أفراد فى امتلاك مبنى أو منزل واحد بحيث ينفرد كل منهم بملكية عدة غرف فى المنزل . وهكذا يبدو أن أهم ما ميز منازل المدن الأوربية فى العصور الوسطى هو اكتظاظها بالسكان ، حتى أن الغرفة الواحدة — مع ضيقها — كانت تضم أحيانا أكثر من ثلاثة أشخاص . أما سوق المدينة فكان فى ميدانها الرئيسى العام ، وهو الميدان الذى تطل علية أيضاً كنيستها ومبناها الحكومى .

وقد رحبت المدن عادة بنزلاء جدد من الأقنان يسهمون فى توفير الأيدى العاملة اللازمة ، ويعيشون فى الضواحى القريبة خارج أسوارها . وشجع على هجرة الأقنان إلى المدن أن الفرد كان يتمتع بحريته كاملة داخلها ، فيتخلص من كل أثر للعبودية التى لازمته فى حياة الضيعة ، حتى قيل ، « إن جو المدينة يخلق الحرية[3] » . ولكن تساهل المدينة فى هذه الناحية كان لا يعنى بأى حال تساهلها فى منح حقوق المواطنة لغير أهلها . فالأفراد الذين لا ينتمون إلى المدينة يعتبرون أغرابا أو أجانب ، ليس من اليسير عليهم أن يصبحوا مواطنين فيها[4] . وقد اشترطت معظم المدن على من يريد أن يتمتع فيها بحقوق المواطنة أن يعيش فيها مائة يوم ويوم وأن يدفع مبلغاً كبيراً من المال ، أو يشترى عقارا فيها ضمانا

---

(1) Ibid.

(2) Thompson : op. cit.; vol. 2; p. 740.

(3) Pirenne : Med. Cities; p. 193.

(4) Boissonnade : op. cit.; p. 201.

لحسن نواياه ، و بعد ذلك يقسم على احترام نظم المدينة وقوانينها و يضمنه بعض المسئولين من أهل المدينة حتى لا يخرق قوانينها (١) . وقبل هذا وذاك يجب أن يثبت أن حالته المالية مرضية وأنه مستعد لخدمة المدينة والدفاع عنها إذا حاق بها خطر . فإذا تم كل ذلك وحصل على حقوق المواطنة ، أصبح من حقه استخدام مراعى المدينة وصيد السمك فى مياهها ، كما تقوم المدينة من جانبها بحمايته وحماية تجارته من المنافسة الأجنبية ، وتسمح له بشراء لوازمه بسعر سوق المدينة ، هــذا كله بالإضافة إلى إعفائه من الخدمات الشخصية وتخويله حق المحاكمة أمام جماعة من زملائه المواطنين ، إذا حدث منه ما يستوجب ذلك .

و بعد ، فإنه يلاحظ أن مدن العصور الوسطى لم تسكن بالإتساع والعظمة وكثرة السكان التى قد نتصورها . فبالرمو بلغ عدد سكانها نصف مليون فى القرن الثانى عشر ، وفلورنسا بلغ سكانها مائة ألف فى القرن الثالث عشر ، فى حين زاد سكان البندقية قليلا عن مائة ألف ، ومثلها باريس وميــلان (٢) . على أن صغر مدن العصور الوسطى نسبياً لا ينبغى أن يجعلنا نقلل من أهميتها السياسية والإقتصادية فقد سبق أن رأينا كيف كانت مدن العصبة الهانزية تنازل الملوك وتحتفظ بأسطول ضخم لمقاومة القرصنة فى بحر الشمال (٣) . أما البندقية فقد أضحت فى أواخر العصور الوسطى أعظم قوة بحرية فى أوربا ، وصار لها مستعمرات ومراكز وأحياء تجارية على البحر الأدرياتى وفى بلاد الشرق الأدنى . وحسبنا أن البندقية استطاعت أن تحارب بمفردها الإمبراطورية العثمانيــة (١٤٦٦ — ١٤٧٥) ، كما حاربت الإمبراطورية الغربية وأسبانيا وفرنسا (٤) .

أما فى الناحية الإقتصادية فإن نشأة المدن فى القرن الحادى عشر ، جاءت

---

(1) Idem; p. 197.

(2) Idem; p. 203,

(3) Eyre : op. cit.; p. 727. & انظر الجزء الأول من هذا كتاب ص ٥٥٤

(4) Lodge : The Close of the Middle Ages; p.p. 512 – 513.

إنقلاباً إقتصادياً شاملا ، إذ جعلت المدينة من نفسها سوقاً مركزياً محلياً يتعارض مع الفكرة التى قامت عليها التكتلات الإقطاعية للضياع ، مما ترتب عليه إنهيار نظام الاكتفاء الذاتى للضيعة وقيام العلاقات المتبادلة مع المدينة ، فيرسل إنتاج الريف إلى أقرب مدينة ليباع فيها بدلا من إرساله إلى مقر المالك الاقطاعى[١] . هذا بالاضافة إلى أن إقتصاد المدن إستتبع التوسع فى نظام الأجر النقدى بدلا من نظام الخدمة الاقطاعية . حقيقة إن التقدم فى استعمال النقود سار سيراً حثيثاً ، بحيث لم يكن هناك حتى منتصف القرن الثالث عشر سوى القليل من النقود الفضية فى غرب أوربا[٢] ، ولكن الفضل يرجع إلى مدن العصور الوسطى فى إبتداع كثير من العملات الأوربية الحديثة مثل الجنيه والشلن والبنس . أما النقود الورقية -- فى صورة تعهدات أو كمبيالات — فيرجع إستخدامها فى المدن إلى القرن الثالث عشر حتى عودلت بالنقود المعدنية فى مدينة كومو حوال سنة ١٢٥٠[٣] .

وقد امتازت مدن العصور الوسطى بنوع من التخصص التجارى أملته الملابسات والعوامل الجغرافية . فمدن العصبة الهانزية فى الشمال عرفت بتجارة الجلود والفراء والشمع والقمح ، وهى المنتجات الواردة من روسيا ، و بالحديد والنحاس والأخشاب والأسماك واللحوم المقددة ، وكلها من واردات سكندناوه[٤] . أما المدن الايطالية فكان نشاطها الأساسى مركزاً فى حاصلات الشرق ، إذ قامت باستيراد التوابل والعاج والحراير والبخور والعطور والمصنوعات الزجاجية وغيرها لتصدرها إلى مختلف البلاد الأوربية[٥] . وأما مدن فلاندرز فكانت بحكم موقعها بين الشمال والجنوب تتجر فى حاصلات الجهتين بالاضافة إلى صناعة الأصواف وغزلها[٦] .

---

(1) Gras : The Legacy of the Middle Ages; p. 436.

(2) Painter : Med. Society; p. 91.

(3) Gras : The Legacy of the Middle Ages; p. 441.

(4) Pirenne, Cohen, Focillon; op. cit.; p.p. 130—131.

(5) Pirenne : Economic and Social Hist.; p.p. 143—145.

(6) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit ; p.p. 126—127.

والخلاصة أن المدينة الأوربية فى العصور الوسطى اشتملت على مختلف العناصر الكفيلة بالتقدم ، والتى بشرت بما سوف يتمخض عنه المستقبل من آمال فى خلق نظام إقتصادى جديد ، وأهم هذه العناصر هى التنظيم التجارى والنمو الرأسمالى وحب المغامرة والبعد عن تزمت رجال الدين[١] .

القومونات :

وثمة ظاهرة واضحة فى نشأة المدن ، هى الاختلاف فيما بينها فى مقدار ماحصلت عليه من حريات . فهناك فريق من المدن لم يكتف بالحريات العادية التى حصلت عليها بقية المدن ، وإنما استطاعت بفضل تضافر مختلف العناصر داخل المدينة أن تحصل على سلطة سياسية عظيمة ، وهذه المدن هى التى نعرفها باسم القومونات (Communes)[٢] . وقد ظهرت هذه القومونات أول الأمر فى إيطاليا ، وبصفة خاصة فى لمبارديا وتسكانيا ، فى الوقت الذى كانت السلطة السياسية فى المدن الإيطالية فى أيدى الأساقفة الذين اعتمد عليهم أباطرة الدولة المقدسة فى توطيد نفوذ الإمبراطورية . ولكن حدث قرب نهاية القرن الحادى عشر أن أخذت العناصر الأساسية من سكان هذه المدن تتبرم من حكم الأساقفة ، فاتفق التجار والصناع والنبلاء وغيرهم — فى بعض هذه المدن — على تأليف اتحاد أو تحالف (قومون Commune) الغرض منه تحطيم نفوذ أسقف المدينة[٣] . وكان أن ظهر عجز الأساقفة أمام ذلك التحالف المسلح بين مختلف العناصر التابعة لهم داخل المدينة وخارجها ؛ فساموا لهم بمطالبهم ، وسمحوا لهم — مجبرين — بكل ما يطمعون فيه من نفوذ سياسى ، وبذلك ظهرت هذه القومونات فى صورة قوة سياسية عظمى فى إيطاليا . وقد رأينا أثناء الكلام عن النزاع بين البابوية والإمبراطورية

---

(1) Gras : The Legacy of the Middle Ages; p. 460.

(2) Cam. Med. Hist.; vol. 5; p.p. 220—223.

(3) Pirenne : Med. Cities; p.p. 177 - 178.

كيف حاول الأباطرة إخضاع هذه القومونات فى شمال إيطاليا ، وكيف استماتت القومونات بدورها فى الدفاع عن حرياتها واستقلالها ؛ الأمر الذى أدى — فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر — إلى صراع طويل بين الأباطرة من جهة والقومونات الإيطالية من جهة أخرى[١] . وكان أن خرجت القومونات ظافرة من هذا الصراع فى النهاية ، مما حقق لها استقلالا سياسياً تاماً[٢] .

وقد أدى الاستقلال السياسى الذى أحرزته هذه المدن الى تقدم سريع فى الميادين الاقتصادية والحضارية . ذلك أن أهل القومونات أخذوا يهجمون على أمراء المناطق المجاورة الذين لم يتضامنوا معهم وأجبروهم على الخضوع لسلطة القومون . وبعد ذلك بدأت المدن الكبرى تسعى لفرض سيطرتها على المدن الصغيرة المجاورة حتى أنتهى الأمر أخيرا بأن دخلت القومونات فى صراع بعضها مع بعض بسببه التنافس السياسى والإقتصادى[٣] . هذا إلى أن بعض القومونات أخذت تعمل على تأمين نفسها و إقرار النظام فيها عن طريق تفويض شئون الحكم فيها لفئة من أفرادها الأقوياء ، مما أدى إلى قيام بعض الأسرات التى استبدت بالحكم والتى ارتبطت أسماؤها بأسماء المدن التى قامت فيها[٤] .

على أن ظاهرة قيام القومونات لم تقتصر على تسكانيا ولمبارديا فى إيطاليا ، وانما أخذت تمتد هذه الحركة منذ أواخر القرن الحادى عشر إلى فرنسا وفلاندرز ثم المانيا وانجلترا ، حيث اجتمع فى كثير من هذه البلاد التجار والصناع والنبلاء ضد الاساقفة وانتزعوا منهم السلطة والنفوذ . وهكذا يمكن القول بأن العصر الذهبى للحركة القومونية فى غرب أوربا امتد بين سنتى ١١٠٠ ، ١٤٠٠[٥] .

---

(١) أنظر الجزء الأول من هذا كتاب س ٣٤٣ وما بعدها .

(2) Eyre : op. cit. p.p. 345—346 & 165—166.

(3) Cam. Med. Hist.; vol. 5; p. 224.

(4) Stephenson : Med. Hist ; p. 322.

(5) Cam. Med.; vol. 5; p. 624.

وليس هناك من شك فى أن نجاح هـذه الثورات ضد اساقفة المدن إنما يرجع إلى موقف الملوك والأمراء الاقطاعيين الذين رحبوا بإضعاف نفوذ الأساقفة السياسى .

ومع أن اصطلاح « قومون » يعنى المدينة التى ارتبطت عناصر سكانها فى حلف ، وحصلوا على استقلالهم عن طريق ثورة مسلحة[١] ، الا أن المؤرخين درجوا على إطلاق هذا الاصطلاح على كافة المدن التى تمتعت بنفوذ سياسى واسع . على أننا نستطيع أن نحدد القومون بأنه المدينة ذات السلطة السياسية المستقلة ، بمعنى أن أهلها يختارون حكامهم وموظفيهم دون أن يكون هناك مندوب من قبل سيد أو حاكم خارجى يتحكم فيها . أما التزامات القومون نحو السلطة السياسية العليا فى الدولة — كالامبراطور أو الملك — فكانت محددة بمبلغ معين من المال يدفع سنويا وقسط معلوم من الخدمة العسكرية[٢] .

النقابات :

نصت البراءات التى حصلت عليها المدن على حق تجارها فى تأليف نقابات أو اتحادات ، فإذا لم تنص البراءة على ذلك فإن السبب يرجع قطعاً إلى قيام النقابة فعلا قبل حصول المدينة على براءتها ؛ لأن الذى كان يحدث فى كثير من الحالات هو أن يبدأ التجار بتأليف نقابة لهم لتقوم هذه النقابة بمفاوضة السيد الإقطاعى للحصول على براءة تضمن للمدينة حريتها[٣] .

وهكذا ارتبط تجار المدن فى العصور الوسطى فى هيئة نقابات الغرض منها حماية أنفسهم من اعتداء الأمراء ونهبهم من ناحية ورعاية مصالحهم فى الأسواق البعيدة من ناحية أخرى .[٤] ثم كان أن أخذت نقابات التجار هذه فى تنظيم

(1) Painter : Med. Society; p. 74.
(2) Cam. Med. Hist'; vol. 5; ps. 223, 234.
(3) Painter : Med. Society, p. 75.
(4) Pirenne : Med. Cities; p.p. 186—188.

شئون التجارة داخل المدينة ذاتها،ففرضت على كل فرد خارج النقابة يريد مباشرة نشاط تجارى فى المدينة أن يخضع لتعاليم النقابة وأن يدفع رسما معينا مقابل السماح له بمباشرة نشاطه .[١] كذلك حرصت نقابة التجار على حماية مستوى الإنتاج والبضائع والتمسك بمبادىء الكنيسة الخاصة بالإمانه وعدم الغش[٢] . وهكذا ظلت نقابات التجار تنظم الحياة التجارية فى العصور الوسطى طالما كانت هذه الحياة بسيطة وخالية من التعقيد ؛ فلما أخذت الأمور تتبدل ظهرت نقابات أصحاب الحرف ، الأمر الذى يعنى الفصل بين التجارة والصناعة[٣] .

وكان الغرض الأساسى من قيام النقابات الأخيرة هو رعاية المصالح الإقتصادية لأعضائها ، فلا يسمح لصانع أن يباشر حرفة فى مدينة إلا إذا كان عضوا فى النقابة التى تضم المشتغلين بهذه الحرفة ، كما حرصت النقابة على عدم إستيراد بضائع تضر الإنتاج المحلى للمدينة . وهكذا كانت كل نقابة تحتكر سوق المدينة فى دائرة اختصاصها ، فى الوقت الذى تحرص على عدم قيام منافسة بين أعضائها[٤] .

وقد قامت نقابات أصحاب الحرف على أساس اختيار الأعضاء وانتقائهم ، فكان لا يسمح لفرد بعضويتها إلا بعد أن يقدم أدلة كافية على ولائه الدينى و إخلاصه السياسى ، فضلا عن مهارته الفنية وكانت النقابة الواحدة تضم عدة فئات من الصبيان والعمال والأسطوات[٥] . أما الصبى فكان يدفع رسما ليقبل فى الحرفة ، ويتعهد بطاعة أستاذه وتنفيذ تعاليمه والحرص على مصالحه ورعاية أمواله وأسراره[٦] . وفى مقابل ذلك يمده الأسطى بالمسكن والملبس والمأكل ،

(1) Heaton: Economic Hist.of Europe; p.p.201—252.

(2) Painter : Med. Society; p.p 80—81

(3) Gras : The Legacy of the Middle Ages; p. 445.

(4) Painter : Med. Society, p.p. 80—81.

(5) Boissonnade : op. cit , p.p. 212 - 214.

(6) Heaton : op. cit., p. 205.

فلا يستطيع الصبي أن يبيت خارج منزل أستاذه الذى له حق الإشراف على سلوكه وأخلاقه ؛ زيادة على الإشراف المهنى . وبعد أن يقضى الصبي فى الحرفة مدة تتراوح بين عامين وسبعة يصبح عاملا يستطيع أن يشتغل مقابل أجر يومى زهيد[١] . أما العامل فمن الممكن أن يصبح أستاذاً أو أسطى[٢] عندما يثبت إجادته لصنعته وتفوقه فيها ، كأن ينتج قطعة فنية تشهد على براعته ، وعندئذ يستطيع أن يشتغل لحسابه الخاص إذا توافر لديه رأس المال اللازم لذلك[٣] . على أن الرغبة فى الاحتكار والاستئثار بأرباح المهنة لم تلبث أن جعلت أعضاء النقابة الواحدة يحرصون على عدم إشراك منافس جديد معهم حتى جاء وقت أصبح من الصعب على العامل أن يصبح أسطى إلا إذا كان ابنا لأسطى أو زوجا لابنته[٤] . وهنا نلاحظ أن جميع الإنتاج الصناعى كان منزلياً ، بمعنى أن الصبى والعامل والأسطى كانوا يعملون جميعاً فى منزل الأخير أو فى دكان ملحق به ، ويبيع الأسطى إنتاجه من نافذة منزله أو فى سوق المدينة على أقصى تقدير[٥] .

ولم تلبث النقابات أن تكاثرت فى كل مدينة وتفرعت ، حتى شملت جميع الصناعات والحرف فوجدت نقابات لكل من القماشين والصيارفة والأطباء والقصابين وصناع الأحذية والسروجية ، فضلا عن الخبازين والزياتين والنجارين والحدادين وأصحاب الفنادق وغيرهم[٦] . وبازدياد التخصص فى الصناعة أو التجارة ازداد عدد هذه النقابات ، مما أدى إلى كثير من الخلافات بين بعضها وبعض حول حدود كل منها وتخصصها[٧] . ومن الأمثلة المعروفة جيداً عن العصور

---

(1) Painter : Med Society; p.p, 81—82.

(٢) اسطاد كلمة فارسية معناها معلم عربت الى أستاذ بمعنى معلم الثقافة واسطى بمعنى معلم الحرف .

(3) Stephenson : Med. Hist., p.p. 560—561.

(4) Painter : Med. Society, p. 82.

(5) Boissonnade : op. cit., p. 722.

(6) Gras : The Legacy, p. 445 & Cam. Med. Hist. vol. 5, p, 237.

(7) Boissonnade : op. cit., p. 215.

الوسطى أنه حُرم على صانع الأحذية أن يصلح حذاء مستعملا ، كما حرم على الاسكافى أن يصنع حذاء جديداً ، وذلك من باب احترام التخصص[1] .

على أنه يلاحظ أن النقابات كانت أعظم من مجرد تنظيمات اقتصادية تستهدف الربح وترعى مصالح أعضائها ، إذ أنها حرصت دائما على اتقان الصنعة ورفع مستواها بحيث أصبح من الممكن تحديد متوسط لأسعار الإنتاج تتفق مع مستوى ذلك الإنتاج[2] . حتى طريقة البيع وتحديد المقاييس والمكاييل والموازين المستعملة عينتها النقابة بطريقة تضمن حقوق كل من البائع والمشترى . كذلك حرصت النقابة على أن يراعى أعضاؤها حقوق بعضهم بعضاً فحرمت على الاسطوات الاستغناء عن العمال وطردهم دون مبرر ، وفى الوقت نفسه اجبرت العمال على البقاء فى عملهم مدداً معينة يتفق عليها . هذا بالاضافة إلى ما لجأت إليه النقابات من تحديد تكاليف الإنتاج من جهة وأسعار البيع من جهة أخرى[3] . ثم إن أهمية النقابة لم تقتصر على الجانب الاقتصادى فحسب ، وإنما بدت أيضاً واضحة فى الجانب الاجتماعى . فأعضاء النقابة الواحدة كانوا يشتركون جميعاً فى إحياء الأعياد العديدة فضلا عن الحفلات الخاصة بهم[4] . كذلك قامت النقابة بخدمة أعضائها اجتماعياً عن طريق تحقيق نوع من التضامن الاجتماعى وتقديم المساعدة إلى من يصاب منهم بمرض أو عجز[5] . فإذا مات أحد أعضاء النقابة ، اشترك بقية الأعضاء فى تشييعه واهتموا بأمر أسرته وأولاده[6] . أما فى الجانب السياسى فإن النقابات غدت على جانب كبير من النفوذ وبخاصة فى المدن الحرة حيث نجحت النقابات فعلا فى السيطرة على الأداة الحكومية ، بعد سلسلة من الثورات

(1) Gras : The Legacy, p. 446
(2) Boissonnade : op. cit., p.p. 202—208.
(3) Pirenne : Economic and Social Hist., p 186.
(4) Boissonnade : op. cit. Hist , p, p. 223 - 224.
(5) Heaton : op, cit , p p, 208—209,
(6) Painter : Med. Society, p. 83.

امتاز بها تاريخ المدن الأوربية و بخاصة فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر[١] .

ولكن يبدو أن ازدياد نفوذ النقابات وسلطانها سرعان ما أدى بالتالى الى التعسف فى استخدام ذلك النفوذ والسلطان[٢] . ذلك أن النقابات لجأت الى حماية أعضائها من المنافسة عن طريق تحديد عدد الصبيان الذين يقبلون للاشتغال بالحرفة من جهة ، وعن طريق مطالبة السلطة الحاكمة فى المدينة بفرض ضرائب على البضائع الأجنبية المستوردة من الخارج من جهه أخرى[٣] . ولم يلبث أن ازداد تعسف النقابات ، حتى غدا من الصعب على العامل العادى أن يدخل دائرتها[٤] . وهكذا بعد أن كان الصبى يعمل فى منزل الأسطى ، أصبح يتسلم المواد الخام اللازمة لعمله من رئيس النقابة ليصنعها فى منزله . وفى هذه الحالة أصبح العامل أكثر تعرضا للبطالة ، فأنشأ يكدح حتى لايتعرض لقطع أجره أو لكى يحصل على أجر أعلى ، مما جعل العمال فى نهاية العصور الوسطى مجرد مجموعة من الأفراد لايفرق بينهم إلا نوع العمل . و إذا كان نظام النقابات قدحرص على الاحتفاظ للحرفة بمستوى عال ، فإن هذا النظام كان له من جهة أخرى أثر واضح فى عرقلة التقدم الصناعى وتأخير تطوره ، لأن كل نقابة اشترطت على المشتغلين بالصنعة عدم استعمال آلة أو وسيلة جديدة لاتقرها النقابة ، مما قتل روح الابتكار والتجديد[٥] .

طرق النقل :

وقد اعترضت التجارة فى أوربا العصور الوسطى عقبات كأداء أهمها ضعف وسائل المواصلات وصعوبة انتقال التجار ونقل البضائع من مكان إلى آخر . ذلك

(1) Taylor : Med. Mind; vol, I, p,p, 341—342,
(2) Heaton: op, cit,, p: 204.
(3) Painter : Med. Society; r,p. 80—81.
(4) Boissonnade, ; op. cit.; p. 201,
(5) Pirenne : Economic and Social Hist. p. 186

أن الطرق العظيمة المرصوفة بالأحجار ، التى أقام الرومان منها شبكة قوية ضخمة ربطت مراكز الامبراطورية ومدنها بعضها ببعض لم تلبث أن اختفت وعفى عليها الزمن ؛ كما انهارت الجسور المقامة على الأنهار نتيجة للاهمال الذى تعرضت له كافة المرافق العامة عند انحطاط أحوال الإمبراطورية[١] . ولم تكن الطرق التى عرفتها أوربا العصور الوسطى أكثر من سبل بدائية غير ممهدة تكسوها الأتربة الكثيفة ، التى سرعان ما تتحول إلى أوحال عند هطول الأمطار ، زيادة على ما يعترضها من حفر خطيرة جعلت المشى فيها ليلا أمرا محفوفا بالمخاطر[٢] . أما الجسور فغدت قليلة ونادرة ، الأمر الذى تطلب من المسافر فى كثير من الحالات أن يخوض فى الماء بنفسه أو يبحث عن معدية يعبر بها النهر . وفى هذه الظروف لم يجد تجار العصور الوسطى وسيلة لنقل بضائعهم سوى استخدام البغال والخيل ، فى حين اضطر صغار التجار إلى حمل بضائعهم على ظهورهم والتنقل بها سيراً على الأقدام من مكان إلى آخر[٣] . أما العربات فبدأ إستخدامها أول الأمر فى إيطاليا حيث حرصت المدن على تحسين الطرق والاحتفاظ بها فى مستوى مناسب ، ثم لم يلبث أن بدأ استخدام نوع من العربات البدائية فى فرنسا وألمانيا ، وإن ظلت القاعدة المتبعة هى عدم استخدام العربات إلا فى نقل البضائع إلى الأسواق المحلية[٤] .

حقيقة إن هناك عدة محاولات بذلت فى الشطر الأخير من العصور الوسطى لصيانة الطرق والاحتفاظ بها فى مستوى يمكن معه استخدامها ؛ ومن ذلك ما قامت به الهيئات الكنسية من جهود مبكرة لإصلاح الطرق وصيانتها[٥] . ولكن ملاك الأراضى الذين تقع ضياعهم على الطرق العامة ، والذين كان من

---

(1) Boissonnade : op. cit , p. 28,
(2) Pirenne : Economic and Social Hist,, p 88.
(3) Heaton : op cit , p, 204.
(4) Painter : Med. Society, p.p. 80 –81.
(5) Boissonnade : op. cit. p, 201.

المفروض أن يتحملوا نصيبهم في صيانة الطرق، أو على الأقل يخصصوا جزءا من الضريبة التي يجمعونها من العابرين لهذا الغرض ، لم يحاولوا النهوض بواجبهم . وهكذا استمر الأمراء يجمعون ضريبة من المارين بحصونهم أو بأراضيهم[١] ، دون أن يكون لهذه الضرائب ثمرة سوى مضاعفة تكاليف السفر والنقل[٢] . ومع أن التاجر كان يضيف ضريبة الطرق هذه إلى أثمان بضاعته ، إلا أنها — مع ذلك — عادت عليه بالغرامة ، لأن ارتفاع ثمن البضائع من شأنه أن يقلل من فرص البيع .

أما الكنيسة فكان إنشاء الطرق وصيانتها أمر على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة لها[٣] ، حتى أعلنت أن رعاية الطرق تعتبر من أعمال البر والتقوى التي يجازى صاحبها عليها بحسن الثواب والغفران ، بالضبط كالإحسان والحج . لذلك وجدت من بين المنظمات الدينية في العصور الوسطى منظمة عرفت باسم « إخوان الجسر Fratres Pontis » الغرض منها المساهمة في بناء الجسور على الأنهار وصيانتها[٤] . كذلك دأبت الحكومات الأوربية في العصور الوسطى على تشجيع إنشاء الطرق وتأمينها . من ذلك ما حاوله هنرى الأول ملك انجلترا من إنشاء طرق عمومية واسعة بحيث يتسع عرضها لمرور عربتين متقابلتين ، كما أصدر التعليمات بتطهير الأراضي الواقعة على جانبي الطرق المؤدية إلى الأسواق من الأشجار والأحراش حتى لا يتخذها قطاع الطرق والنهابة أوكاراً يختفون فيها . والواقع إن الطرق التجارية في أوربا العصور الوسطى كثيراً ما تعرضت لنهب الأمراء والجند المأجورين والمجرمين العاديين ، حتى وجد التجار أنه لا بد لهم من الإعتماد على أنفسهم في حماية أرواحهم وبضائعهم[٥] . لذلك كان التاجر الكبير

---

(1) Painter : Med Society, p. 70.
(2) Pirenne : Economic and Social Hist, p. 67.
(3) Painter : Med Society, p. 70.
(4) Boissonnade : op. cit , p 104.
(5) Pirenne : Economic and Social Hist., p. 93.

يستأجر أحيانا بعض الحراس المسلحين لحراسة متاجره عند نقلها من مكان لآخر، وإن كان الغالب هو تجمع التجار عند سفرهم على هيئة قوافل لصد أى عدوان مشترك[١] . هذا فى الوقت الذى أخذت المدن ذات المصالح المشتركة ترتبط بعضها مع بعض فى هيئة أحلاف لحماية تجارها وبضائعها ، كما فعلت مدن العصبة الهانزية[٢] .

أما الفنادق فكانت فى أول الأمر نادرة وغير مأمونة مما جعل الكنيسة تؤدى خدمة هامة عن طريق إقامة مؤسسات لها فى المناطق المنعزلة ، لا سيما أن الأديرة كانت ترحب بكل من يمر بها ، دون تمييز بين فقير وغنى . وبانتعاش التجارة وكثرة الأسفار ازداد عدد الفنادق والخانات ، واعتاد التجار أن ينزلوا فيها أثناء أسفارهم .

ولعل سوء أحوال الطرق البرية وصعوبة السير فيها ، كانت من العوامل التى شجعت على تفضيل النقل النهرى ، بحيث أصبحت القوارب والنقالات النهرية على درجة من الكثرة استلزمت قيام موانى نهرية ونقابات لعمال النقل المائى فى كثير من مدن فرنسا وإيطاليا وألمانيا التى تقع على أنهارها الكبرى[٣] . ولكن النقل النهرى لم يسلم هو الآخر من عدة عقبات أهمها تجمد مياه الأنهار فى فصل الشتاء ، وأخطار الفيضانات فى الربيع ، وقلة عمق مجارى الأنهار[٤] . هذا بالإضافة إلى أن الطرق النهرية لم تسلم هى الأخرى من مكوس مثل المكوس المفروضة على الطرق البرية[٥] ، كما أن الأمراء الذين حرصوا على جمع هذه المكوس لم يهتموا كذلك بالمحافظة على سلامة مجرى النهر وتأمينه : الأمر الذى

---

(1) Pirenne : Med. Cities, p. p. 120-121.
(2) Heaton : op. cit., p. 160 & Cam. Med. Hist., vol. 5, p. 230.
(3) Boissonnade : op. cit., p. 161.
(4) Pirenne : Economic and Social Hist., p. 90.
(5) Heaton : op. cit., p. 150.

دفع تجار المدن النهريه إلى تأليف اتحادات لجمع هذه الضرائب واستغلال حصيلتها فى تطهير مجارى الأنهار و بناء أحواض للسفن (١) .

أما النقل البحرى ، فعلى الرغم مما اعترض سبيله هو الآخر من أخطار ، إلا أنه أحرز تقدما كبيراً عن النقل البرى فى العصور الوسطى (٢) . وكانت السفن فى أول الأمر تلتزم السير قرب الشاطىء وعلى مرأى منه خوفا من الغرق من ناحية أو من أن تضل الطريق وسط البحر من ناحية أخرى . ولم يكن ذلك إلا بعد أن شاع استخدام البوصلة فى القرن الرابع عشر — بعد أن عرفها الأور بيون عن العرب — عندما تجاسرت السفن على شق البحر فى شىء من الجرأة والإطمئنان (٣) . وقد تبع ذلك تقدم المعلومات البحرية الخاصة بالمواقع الجغرافية واتجاه الرياح ، بالإضافة إلى التقدم الذى أحرزه فن بناء السفن وتصميمها . وهكذا نسمع عن سفن البندقية أن الواحدة منها كانت تحمل أيام الحروب الصليبية ما يقرب من ألف راكب ، و إن كان هؤلاء الركاب مكدسين بعضهم فوق بعض . و يبدو أن سفن البحر المتوسط كانت أكبر حجما من السفن المستخدمة فى البحر البلطى أو بحر الشمال بسبب قلة عمق الموانى الشمالية . وهنا نلاحظ أن السفن فى العصور الوسطى ظلت تسير بالمجداف والشراع (٤) ، و إن كانت عملية التجديف هذه مرهقة وشاقة بحيث تطلبت تسخير العبيد الذين كانوا يربطون أحيانا بالسلاسل فى أماكنهم لمواصلة التجديف ليل نهار .

على أن البحار لم تخل هى الأخرى من قراصنة يهددون السفن وينهبون ما بها من متاجر ، الأمر الذى أدى بالسفن التجارية إلى التجمع فى شكل أساطيل لترد أى عدوان ، أو ربما قامت بحراستها فى بعض الأحيان سفن

---

(1) Pirenne : Economic and Social Hist., p. 90.
(2) Boissonnade : op. cit., p. 173.
(3) Stephenson : Med. Hist., p. 227.
(4) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit, p 82.

مسلحة[١] . وكانت هذه الأساطيل التجارية تقوم بسفريات موسمية ، فى الوقت الذى يعتدل الجو وتهدأ البحار فى الربيع والصيف[٢]. ومع أن المدن البحرية عاشت دائماً فى خوف من تعدى القراصنة على سفنها ، إلا أنها لم تتورع عن تحريض القراصنة على مهاجمة سفن المدن الأخرى المنافسة لها ، مما أدى إلى كثير من الحروب التجارية بين المدن بعضها و بعض ، وهى الحروب التى اتخذت طابعاً عاما من القرصنة والسلب[٣] . ولكن نمو التجارة ونشاط الحركة التجارية فى البحار أواخر العصور الوسطى تطلبت تطهير هذه البحار من القراصنة ، أو على الأقل تطهير الجهات التى اعتبرتها بعض المدن مناطق نفوذ لها[٤] . فالبندقية مثلا اعتبرت البحر الأدرياتى منطقة نفوذ لها ، فقامت بتطهيره من القراصنة ، كما قامت مدن العصبة الهانزية بتطهير بحر الشمال والبحر البلطى . أما الصعوبة الأخرى التى اعترضت النقل البحرى فكانت تتمثل فى المبدأ السائد حينئذ وهو أنه إذا جنحت سفينة وألقى الموج بها أو ببضائعها على الشاطىء ، فإنها تصبح غنيمة لصاحب الأرض التى جنحت السفينة إليها[٥] . لذلك دأب الفلاحون وصيادوا السمك — بتحريض من سادتهم الإقطاعيين — على وضع عقبات فى طريق السفن عند بعض الأماكن القريبة من الشاطىء لاصطياد سفن التجار . وعلى الرغم من القوانين المشددة التى وضعها بعض ملوك انجلترا — مثل هنرى الأول — لمنع هذا العبث ، إلا أنه كان من الصعب القضاء عليه قضاء تاما .

ومهما كان الأمر ، فإن النقل البحرى — مع جميع هذه العقبات — امتاز عن غيره من طرق النقل التى عرفتها أوربا العصور الوسطى ؛ وذلك بعدم وجود

(1) Pirenne; Economic and Social Hist., p. 91.
(2) Boissonnade : op. cit., p. 174.
(3) Cam. Med. Hist., vol. 5; p. p. 240-241.
(4) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit., p. 87.
(5) Boissonnade : op. cit , p. 173.

مكوس أو ضرائب على السفن التى تعبر البحر ، كما امتاز بعظم الحمولة التى تستطيع السفن البحرية نقلها ، مما أدى إلى ازدياد استخدام هذه الوسيلة من وسائل النقل .

وأخيراً نلاحظ أنه إذا كانت التجارة فى العصور الوسطى قد تعرضت لكثير من المكوس الداخلية التى عاقت سبيلها ، فإن عدم وجود رسوم جمركية على الحدود السياسية بين مختلف البلدان خفف من حدة البلاء . ولم يكن ذلك إلا فى القرن الخامس عشر عندما أخذت تظهر فى أوربا سياسة حماية الإنتاج المحلى ، وفرض رسوم جمركية على البضائع المستوردة من الخارج (1) .

الأسواق :

لم يقتصر النشاط التجارى فى أوربا العصور الوسطى على الأسواق المحلية — اليومية أو الأسبوعية — فى المدن والمناطق المجاورة ، حيث كان يتم تبادل الإنتاج المحلى وبيعه ، وإنما ظهر هذا النشاط واضحاً كذلك فى المعارض أو الأسواق الكبرى (Fairs) التى امتازت بها تلك العصور (٢) .

والواقع أن أوربا لم تعرف فى العصور المظلمة أسواقا تجارية كبرى ، إذا استثنينا بعض الأسواق ذات الشهرة الدينية مثل سوق سانت دينس St. Denys — قرب باريس — ؛ وهى التى كانت مثل أسواق الموالد فى البلاد الإسلامية — تجتذب إليها عدداً كبيراً من العملاء الذين يفدون إليها من مختلف البلاد المسيحية بقصد الزيارة والتبرك ثم البيع والشراء . وفيما عدا هذه الأسواق ذات الصبغة الدينية ، لم تعرف أوربا فى القرنين التاسع والعاشر سوى أسواق محلية أسبوعية يذهب إليها أهل المنطقة من الأقنان والفلاحين لبيع بضع دجاجات أو بيضات أو قطع صغيرة من النسيج . ومن الواضح أن المعاملات التجارية التى كانت تتم

---

(1) Pirenne : Economic and Social Hist , p. 92

(2) Boissonnade op cit., p. 170.

فى هذه الأسواق جاءت على نطاق ضيق وفى حدود مبالغ صغيرة ولكفاية أغراض ومجتمعات محدودة[١] .

على أن ازدياد النشاط التجارى منذ القرن الحادى عشر استلزم قيام أسواق كبرى فى جنوب أوربا وغربها للقيام بالعمليات التجارية الواسعة النطاق . ولا توجد ثمة علاقة تربط هذه الأسواق الكبرى (Fairs) بالأسواق المحلية الصغيرة (local markets) التى عرفتها أوربا من قبل ، لأنه فى حين كانت الأخيرة تستهدف سد الحاجات اليومية البسيطة للمنطقة المجاورة ، إذا بالأولى على العكس عبارة عن اجتماعات دورية يلتقى فيها تجار محترفون لاتمام صفقات تجارية كبيرة — بالجملة غالباً — ؛ مع العمل على اجتذاب أكبر عدد ممكن من الناس وأعظم قدر مستطاع من البضائع ، بغض النظر عن احتياجات المنطقة المحلية التى يقام فيها السوق[٢] .

وأبرز مثل لهذا النوع من الأسواق الكبرى التى عرفتها أوربا العصور الوسطى كانت سوق شامبنى ، وهو الإقليم الذى هيأه موقعه الجغرافى ليكون ملتقى تجار الجنوب بتجار الشمال[٣] . وقد دأب أمراء شامبنى مدة ثلاثة قرون على العناية بالمصالح التجارية لإقليمهم ، نظراً للفوائد العظيمة التى عادت عليهم من وراء ذلك ، مما أكسب أسواق شامبنى شهرة واسعة[٤] . والمعروف أن هذه السوق — وأمثالها — سارت وفق تنظيمات دقيقة أشرف على تنفيذها موظفو الكونت الذى يتبعه السوق ، كما روعى تسلسل مختلف أسواق الإقليم زمنيا ، بحيث تستغرق السنة بأكملها ولا يأتى اثنان منها فى وقت واحد . وكان التجار يحضرون قبل موعد افتتاح السوق بأسبوع لإعداد بضائعهم وتنظيم عرضها . وفى

---

(1) Pirenne , Economic and Social Hist., p. p. 10-11.
(2) Idem; p. p. 97-98.
(3) Painter : Med. Society; p. 76.
(4) Idem; p. 77.

المدة المحددة لعمل السوق ، كان يعلن عن فتح أبوابه صباح كل يوم وعن غلقها في المساء عن طريق دق الأجراس ، ولا يجوز التعامل التجارى فى السوق إلا في الفترة المحدودة بين دق الجرس فى الصباح والمساء . وفى الأيام العشرة الأولى من سوق شامبنى كان لا يسمح إلا ببيع الأصواف ، ثم تباع الجلود والفراء فى الأيام العشرة الثانية ، وفى العشرة الثالثة تباع البضائع التى توزن وتكال ؛ وأخيراً تترك خمسة أيام للتجار يجردون فيها بضائعهم ويتممون على حساباتهم ، ويدفعون ما عليهم من رسوم لموظفى السكونت ، مع مراعاة ختم العقود الهامة بخاتم السوق [١] . وبفحص هذه العقود يمكننا أن نأخذ فكرة عامة عن البضائع التى كانت تعرض فى السوق ، مثل الحراير والتوابل المستوردة من الشرق ، والأصواف الآتية من فلاندرز وإيطاليا ، والأتيال الوافدة من بريتانى ، والفراء المحضرة من روسيا وسكندناوه ، والمنتجات الحديدية والجلدية المجلوبة من ألمانيا ، والنبيذ والخمور الواردة من فرنسا وأسبانيا [٢] .

على أن أسواق شامبنى نزلت بها ضربتان أدتا إلى زعزعة مركزها ، الأولى عندما لجأ فيليب الرابع — فى سبيل السيطرة على فلاندرز — إلى فرض رسوم باهظة على البضائع الفلمنكية المخصصة لأسواق فلاندرز ، والثانية افتتاح البنادقة سنة ١٣١٧ لخط ملاحى جديد يتجه رأساً إلى انجلترا وفلاندرز [٣] . ومهما كان الأمر فإن هذه الأسواق الكبرى تمتعت بمركز وامتيازات واسعة فى ظل القانون ، فكانت الأرض التى يقام عليها السوق تحظى بنوع من الضمان والسلام بحيث يتعرض من تحدثه نفسه بتعكير صفو هذا الجو السلمى لأشد أنواع العقوبات [٤] . أما التجار الذين يقصدون السوق فكانوا تحت حماية (conduit) الأمير الذى

---

(1) Boissounade : op cit., p. 172
(2) Painter : Med. Society, p. 77
(3) Heaton : op. cit., p 170,
(4) Painter : Med Society; p. 77.

يقع السوق داخل منطقة نفوذه . هذا عدا وجود مشرفين وملاحظين للأسواق (custodes nundinarum) يعملون على حفظ النظام فيها و يفصلون فى المنازعات التى تنشأ بين التجار ، و يحملون أختام السوق لختم المعاملات التى تتم بين التجار [١] .

نشأة المصارف :

ولما كان كثير من الأمراء الإقطاعيين يتمتعون بحق سك العملة الخاصة بهم فإن الأسواق الأوربية وجدت نفسها فى حاجة إلى صيارفة يبدلون النقود للتجار ، كل بالعملة التى يطلبها والتى يستطيع أن يتعامل بها فى بلده . و يعتبر عمل هؤلاء الصيارفة النواة الأولى للنظام المصرفى الرأسمالى ، وذلك لأن الصراف فى العصور الوسطى كان يحتفظ عادة بصندوق قوى متين يضع فيه نقوده ، مما جعل بقية الأفراد يلجئون إليه لإيداع أموالهم فى مأمن عنده [٢] . ولم تلبث أن استخدمت فى إيطاليا الحوالات والكمبيالات المالية كوسيلة لتجنب نقل المعادن النفيسة من ذهب وفضة ، ثم أخذ موظفو البابوية ينشرون هذا النظام فى مختلف أنحاء أوربا [٣] . كذلك أخذ يظهر نظام الدفع أو الشيكات بحيث إذا كان لاثنين من التجار ودائع مالية عند صراف واحد فإن أحدهما يستطيع دفع حساب الآخر بإرسال ورقة إلى الصراف يأمره بدفع المبلغ لزميله [٤] . ولم تستخدم هذه الوسيلة فى المعاملات المالية داخل البلد الواحد ، و إنما استخدمت بين مختلف البلدان ، حيث بدأ بها الداوية والإسبتارية فى القرن الثانى عشر ثم حاكاهم كثير من التجار فى القرن التالى [٥] . وعندما استكشف الصراف أن الودائع التى لديه أكثر من حاجة عمله اليومى بدأ

---

(1) Pirenne ; Economic and Social Hist., p. 99.
(2) Stephenson : Med. Hist., p. 563.
(3) Cam. Med. Hist., vol. 5, p. 240.
(4) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit., ps. 91,107.
(5) Painter : Med. Society; p. 91.

يفكر فى استغلالها فى الإقراض بفائدة، مما جعل الصيارفة يقومون بوظيفة أخرى من وظائف البنوك . وهنا نلاحظ قاعدة عامة ، وهى أن صيارفة العصور الوسطى جمعوا بين مهنتى إقراض الأموال والتجارة . وكان ملوك أوربا وأمراؤها يعانون فى القرن الثانى عشر ضيقا ماليا شديدا ، بسبب كثرة النفقات والمطالب ، فى الوقت الذى أخذت ثروة التجار تزداد إزدياداً يسترعى الإنتباه نتيجة لازدياد النشاط التجارى . لذلك لم يجد أفراد الطبقة الأرستقراطية وسيلة لسد مطالبهم سوى الإقتراض بفائدة من التجار ، وعندئذ لم يستطع الأخيرون رفض مطالب الحكام ورغباتهم مما شجع مبدأ القروض ذات الفائدة(١) .

والمعروف أن اليهود انفردوا أول الأمر — فى أوربا العصور الوسطى — بإقراض الأموال بفوائد ، مما مكنهم من السيطرة على الحياة المالية فى أوربا ؛ لأن الكنيسة حاربت أكل الربا الذى نهى عنه الإنجيل والمسيح (٢) . وهكذا شاءت الظروف أن لا تنافس اليهود فئة أخرى فى ميدان النشاط المالى فى أول الأمر . ولكن اتساع نطاق النشاط التجارى جعل من الممكن التهرب من تعاليم الكنيسة الخاصة بتحريم الفوائد المالية (٣) ، كأن يتعهد المقترض بدفع ألف فلورين فى وقت محدود بدون فائدة ، ولكنه لا يتسلم من المقرض فعلا إلا تسعمائة فلورين ، وبذلك تكون فائدة القرض مائة فلورين لم تدون فى العقد (٤) . كذلك هناك

---

(1) Pirenne : Economic and Social Hist., p. p. 127-129.

(٢) « إن اقرضت فضة لشعبى الفقير الذى عندك فلا تكن له كالمرابى ، لا تضعوا عليه ربا . » (العهد القديم — سفر الخروج — الاصحاح الثانى والعشرون — ٢٥) وكذلك « وإذا افتقر أخوك وقصرت يده عندك فاعضده غريبا أو مستوطنا فيعيش معك ، لا تأخذ منه ربا ولا مرابحة بل أخش إلهك فيعيش أخوك معك ؟ فضتك لا تعطه بالربا وطعامك لا تعطه بالمرابحة . » (العهد القديم — سفر اللاويين — الإصحاح الخامس والعشرين ٣٥ — ٣٧)

وكذلك « بل أحبوا أعداءكم واحسنوا واقرضوا وانتم لا ترجون شيئا » .

(العهد الجديد — انجيل لوقا — الإصحاح السادس — ٣٥) .

(3) Cam. Med. Hist.; vol. 6; pp. 491 - 492.

(4) Boissonnade : op. cit. p. 166.

وسيلة أخرى تحايل بها أحد التجار الإيطاليين فى أوائل القرن الثالث عشر ، عندما أقرض الحكومة الإنجليزية مبلغا من المال على أن تسدد الحكومة قيمة هذا المبلغ بالأصواف . وهنا روعى فى العقد أن تكون قيمة الأصواف التى تسلم للتاجر أكبر من قيمة المبلغ الذى دفعه للحكومة ، و بذلك حصل التاجر على فائدة القرض [١] .

وعن هذه الطرق استطاع الإيطاليون أن يشتغلوا بأعمال الصيرفة ليحلوا محل اليهود ، لا سيما بعد أن أخذ الناس يفرقون بين نسبة الفائدة المعتدلة والربا الفاحش ، و بعد أن أتت ثورة الحروب الصليبية كذلك بكثير من التشريعات والقوانين التى تستهدف الحد من نشاط اليهود [٢] . ذلك أنه لم يتيسر للإيطاليين أن يحلوا محل اليهود إلا بعد أن أخذت الدول الأوربية مثل انجلترا وفرنسا ثم أسبانيا تضطهد اليهود وتطاردهم بالجملة من بلادها [٣] .

وكان أن ظهرت عدة بيوت مالية كبيرة فى إيطاليا أهمها بنك القديس جورج فى جنوا الذى ربما كان أشهر البنوك الأوربية ، فى العصور الوسطى [٤] . على أن البابوية فضلت دائما أن تعامل بنوك فلورنسا التى ظهر معظمها فى القرن الثالث عشر ، والتى تعتبر أول نماذج للبنوك الدولية ، إذ كان لبعضها فروع امتدت من انجلترا وفلاندرز غربا حتى أطراف البحر المتوسط شرقا ، كما قامت بتقديم استشاراتها المالية للملوك والبابوات [٥] .

---

(1) Painter : Med Society; p 89.
(2) Heaton : op, cit., p. 164
(3) Pirenne : Economic and Social Hist ; p. 134.
(4) Oras : The Legacy of the Middle Ages; p. 442.
(5) Cam. Med. Hist ; vol. 6; p. p.486-487.

الباب الخامس

التعليم والمدارس والجامعات

التعليم فى أوائل العصور الوسطى :

يحسن بنا أن نبدأ هذا الموضوع بالإشارة إلى حقيقة جديرة بالاهتمام ، وهى أن التعليم فى أوربا العصور الوسطى لم يقتصر على المؤسسات الأكاديمية المعروفة من مدارس وجامعات فحسب ؛ وإنما امتد بحيث أصبح بلاط كل أمير إقطاعى بمثابة مدرسة لتعليم صغار النبلاء ليكونوا فى المستقبل فرساناً صالحين مؤهلين خلقياً وحربياً . هذا إلى أن بيوت الأسطوات من أصحاب الحرف والتجار ، صارت هى الأخرى معاهد لتعليم الصبيان وتربيتهم وتهيئتهم للحياة العملية(١) . وليس هناك من شك فى أن هذه الاتجاهات وأشباهها أسهمت فى تربية نسبة محدودة من أبناء العالم الغربى فى عصر ضعف التعليم العام وقل الإقبال عليه .

أما فيما يتعلق بهذا التعليم العام فيلاحظ أن العصور الوسطى ورثت النظم الرومانية ، وذلك عن طريق المؤسسات الكنسية والديرية التى احتفظت بالطابع العام للتعليم القديم ، على الرغم من أن الكنيسة غيرت كثيراً فى أفق المعرفة القديمة ومادتها ؛ حتى قيل بأن نمو الكنيسة فى الغرب جاء مصحوباً بتدهور سريع فى الدراسات الكلاسيكية(٢) . على أن الفجوة بين العصور القديمة والوسطى لم تكن متسعة فى نظم التعليم مثلما كان الحال فى مواد الدراسة ، فظلت المدارس على وضعها دون تغيير كبير فى نظمها وإن اختلفت فى مظهرها العام(٣) .

---

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages; p.465.
(2) Lane-Poole : Illustrations of the Med. Thought; p. 5.
(3) Eyre : op. cit; p. 324.

وكما أخذ التعليم الرومانى عن اليونان أخذ التعليم فى العصور الوسطى عن الرومان ، وبخاصة عن مدارس البلاغة الإمبراطورية[١] . ذلك أنه كانت هناك فى أوائل عصر الامبراطورية الرومانية مرحلتان من المدارس تساعدهما الدولة فى المدن الكبرى ، كما كان هناك نظام لمنح الدرجات العلمية وتعيين المدرسين[٢] . أما المرحلة الأولى أو الإبتدائية من المدارس فكانت تلقن فيها القراءة والنحو والحساب والموسيقى ، فى حين اهتمت مدارس المرحلة الثانية أو العليا بالبلاغة والخطابة والأدب مع شىء من الدراسات القانونية والفلسفية[٣] على أن مدارس البلاغة هذه لم تلبث أن اختفت فى القرن الخامس ، وإن ظلت المدارس العلمانية — التى سارت وفق الأسلوب الرومانى فى التربية — منتشرة فى أجزاء من غاليا وإيطاليا حتى نهاية القرن السادس . ذلك أنه من المعروف أن العصر الذى أعقب غزوات البرابرة وسقوط الإمبراطورية فى الغرب كان أحلك العصور فى تاريخ أوربا الثقافى[٤] . ومهما كانت أهمية الدور الذى قامت به الكنيسة فى الاحتفاظ بذلك الشعاع الخافت الذى ظل مضيئاً فى سماء غرب أوربا فى القرن السابع ، فمن الثابت أن كتب النحو التى اعتمد عليها طلاب ذلك العصر كانت كتابات دوناتوس وسرفيوس وهما من علماء القرن الرابع وكلاهما وثنى ؛ فى حين ظل كتاب برسكيان عن «قواعد النحو» — الذى ألفه باللاتينية حوالى سنة ٥٠٠ فى ثمانية عشر جزءاً — يمثل المرجع الأول فى ذلك العلم[٥] .

على أن أهم ما يميز ذلك العصر هو أن التعليم أخذ يخضع خضوعاً تاماً لسيطرة الكنيسة ، نتيجة لانحلال السلطة العلمانية وازدياد نفوذ البرابرة فى المجتمع الغربى .

---

(1) Cam. Med. Hist.; Vol. 5; p. 765.

(2) Adamson : The Legacy of the Middle Ages; p. 255.

(3) Thompson : op. cit.; vol. 2; p. 742.

(4) Rashdall : The Universaties of Europe in the Middle Ages; Vol. I; p. p. 26-27.

(5) Taylor : The Mediaeval Mind; vol. 2; p. p. 150-151

من جهة ، واتساع نفوذ الكنيسة تدريجياً من جهة أخرى . وهنا نلاحظ أن الكنيسة أقرت تدريس الفنون الحرة — التى كانت تلقن للتلاميذ فى المدارس الوثنية — ولكن على أسس مسيحية ، لأن الكنيسة وجدت هذه الفنون أساسية ولا بد منها لفهم الكتاب المقدس نفسه(١) . وهكذا ظهر من النحويين المسيحيين مارتيانوس كابلا الذى كان أول من حدد الفنون السبعة الحرة بالنحو والبلاغة والمنطق والحساب والهندسة والفلك والموسيقى(٢) . ولعل نظرة تحليلية يلقيها الباحث على هذه المجموعة من الدراسات تكشف له أنها تنقسم إلى قسمين : دراسات إنسانية ودراسات علمية . وقد أدرك الفيلسوف بيوثيوس (٤٧٥ — ٥٢٤) هذا الفارق فقسمها إلى مجموعة ثلاثية تشمل النحو والبلاغة والمنطق، ومجموعة رباعية تشمل الحساب والهندسة والفلك والموسيقى(٣). ثم كان أن أقر كاسيدور هذا التبويب ، وعن طريقه انتقل إلى المدارس الديرية ، مما جعل كاسيدور هذا صاحب أهمية كبيرة فى التعليم فى أوربا العصور الوسطى(٤) .

وقد ظلت المدارس فى الغرب حتى سنة ٦٠٠ تهيئ تعليما ابتدائيا عاما لإعداد الأفراد للحياة ، ولكنها لم تلبث أن تحولت كلية لإعداد رجال الدين للمستقبل . ويلاحظ أن الجرمان أظهروا نفوراً قوياً من التعليم ، حتى أن ثيودريك — ملك القوط الشرقيين — حرم إرسال أبناء القوط إلى المدارس محتجاً بأن الصغار الذين يشبون على الخوف من عصا المعلم لن تكون لديهم فى المستقبل الشجاعة الكافية لمواجهة السيوف والحراب(٥) . وهكذا لم يكد ينتهى القرن السابع إلا كان التعليم فى غرب أوربا قد أصبح دينياً بحتاً ، داخل مدارس ديرية

---

(1) Adamson : The Legacy; p. 256.

(2) Eyre : op. cit.; p. 327.

(3) Cam. Med. Hist.; Vol. 5; p. 765.

(4) Eyre : op cit.; p. p. 324-325.

(5) Thompson : op. cit ; vol. 2 ; p. 743.

وأسقفية ، واستمر الوضع على ذلك حتى القرن الثانى عشر [١] . وهنا نشير إلى أن مدرسة القصر المشهورة فى الدولة الميروفنجية لم تكن مدرسة بالمعنى الذى نفهمه من هذا الإصطلاح ، وإنما كانت تقليداً لمدرسة تريف فى أواخر عصر الإمبراطورية الرومانية . فكان الغرض منها تدريب الشباب حربيا وتعليمهم ركوب الخيل وحمل السلاح ، بالإضافة إلى بعض المعلومات اللازمة لمباشرة الوظائف العامة مثل مبادىء القانون المدنى والكنسى . وفى هذه المدرسة كان يتدرب غلمان البلاط الميروفنجى [٢] .

ومهما كان الأمر ، فإننا نعود فنقول إن الإنتقال من التعليم القديم إلى تعليم العصور الوسطى لا يعنى تغييراً كبيراً فى طريقة التعليم بقدر ما كان هناك من تغيير فى روح التعليم ومواد الدراسة . وقد بدأت هذه الثورة حوالى سنة ٦٠٠ عندما ازداد نفوذ البابوية فى توجيه التعليم ورسم سياسته ، فأصبح التعليم منصبا على الإنجيل واللاهوت ، الأمر الذى جعل الدراسات الإنسانية تحاول فى مشقة بالغة الإحتفاظ بكيانها ضد الخطر الذى أخذ يهددها لعدة قرون [٣] . ذلك أن المدارس الأسقفية والديرية غدت لا تهتم إلا بتدريب اللاهوت والموسيقى الدينية والكتاب المقدس وسير القديسين المليئة بالمعجزات والخرافات، بحيث أصبح التعليم لا يستهدف غرضا إلا إعداد النشء ليصبحوا من رجال الدين [٤] . بل إن البابا جريجورى العظيم (٥٩٠ - ٦٠٤) اشتهر بكراهيته للأسلوب البلاغى الكلاسيكى وتفضيله اللاتينية الدارجة ، بالإضافة إلى اعتقاده الراسخ فى عدم جدوى كافة الدراسات التى لا تساعد فى فهم العقيدة المسيحية [٥] .

---

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages; p. 466.
(2) Davis : Charlemagne; p. 108.
(3) Taylor : The Med. Mind ; vol. 2, p. 318.
(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages; p. 466.
(5) Cam. Med. Hist.; vol. 3; p. 487.

وهكذا لم يقدر البقاء للدراسات الراقية والثقافة الإنسانية — بما فيها معرفة اللغة اليونانية — إلا فى أيرلند[١] ، التى انبثق نور المعرفة من أديرتها إلى كالدونيا (سكتلند) ونور ثمبرلاند ، ثم بقية أنحاء انجلترا[٢] . ولم يلبث أن امتد بريق هذه الحركة العلمية إلى صاب القارة عن طريق المؤسسات والأديرة الأيرلندية التى قامت فى غاليا الفرنجية وألمانيا ولمبارديا ، وبصفة خاصة دير سانت جال ودير بوبيو[٣] . وكان من المحتمل أن تقضى الحركة البندكتيه على هذا الإشعاع العلمى ، لولا جهود القديس بونيفيس (ت ٧٥٥) وزملائه من رجال البعثات التبشيرية التى غادرت انجلترا إلى القارة[٤] . حقيقة إن الهدف الأساسى لرجال هذه البعثات التبشيرية كان نشر الديانة المسيحية الكاثوليكية ، ولكن هذا الهدف كان لا يمكن أن يتحقق دون أن يحصل رجال الدين على قسط من الثقافة اللاتينية ، حيث أن اللاتينية كانت لغة الكنيسة الغربية[٥] . وهكذا فإن الفضل يرجع إلى الأديرة التى أسسها القديس بونيفيس فى فولدا وهرسفلد ، وإلى المدارس الأسقفية والديرية التى أحياها ذلك القديس ، فى إنقاذ الحياة العلمية فى العصور المظلمة ، وفى تمهيد الطريق لما قام به شارلمان من إصلاح المدارس وإثارة الحركة الفكرية الكبرى التى تعرف باسم النهضة الكارولنجية[٦] .

شارلمان والعناية بالتعليم :

اهتم شارلمان بنشر التعليم ورفع مستواه والإكثار من المدارس ، فكتب إلى رؤساء الأديرة والأساقفة يشكو من جهل رجال الدين وكثرة الأخطاء المتوافرة فى المخطوطات الدينية ، بل فى الإنجيل نفسه ؛ ويأمرهم بالعناية بالمدارس

(1) Idem; p 501
(2) Poole: Illustrations of the Hist. of Med. Thought; p p. 8- .
(3) Thompson : op. cit ; vol. 2; p 747.
(4) Eyre : op cit ; p. 240.
(5) Taylor : op. cit ; vol 1.; p. p 198-200.
(6) Cam Med. Hist ; vol 5; p. 772

والتعليم لإصلاح هذه الأوضاع[٢] . وقد استعان شارلمان فى هذه الحركة الواسعة بخلاصة المواهب التى انجبتها انجلترا وأسبانيا و إيطاليا ، مثل بولينوس النحوى — وهو من أكويليا — و بطرس البيزى و بولس الشماس من لمبارديا ، وثيودلف من أسبانيا ؛ وعلى رأس هؤلاء جميعاً ألكوين الذى وفد من يورك والذى كان أبرز أعلام النهضة الكارولنجية[٢] . وكان ألكوين هذا بمثابة « وزير التعليم » فى عهد شارلمان ، زيادة على كونه معلماً خاصا لأمراء القصر بل الإمبراطور نفسه[١] . ولم تلبث أن أصبحت مدرسة تورز — بفضل إشراف ألكوين وتوجيهه — مركز الثورة الثقافية فى الإمبراطورية الكارولنجية . ففى هذه المدرسة لم يقف نشاط ألكوين عند العناية بالخط وتجميله فحسب[٢] ، و إنما امتد إلى مراجعة الكتب الدينية وتصحيحها ثم توزيعها بعد ذلك على الأديرة لنسخها فى صورتها الجديدة[٣] .

حقيقة إن الغرض الرئيسى الذى دفع شارلمان إلى هذه الحركة كان دينيا يستهدف تصحيح الإنجيل وكتب الصلوات وغيرها من الكتب الدينية المتداولة[٣] ، ولكن الحركة امتدت حتى شملت أيضا حفظ التراث اللاتينى الكلاسيكى ورعاية المخطوطات القديمة ؛ حتى أن أقدم مالدينا من المخطوطات يرجع تاريخ إعادة نسخها إلى العصر الكارولنجى ، باستثناء بعض الكتابات القليلة التى عثر عليها رجال النهضة الإيطالية فى القرن الخامس عشر والتى نسخت قبل العصر الكارولنجى[٤] .

(1) Lavisse : op. cit.: Tome 2, Livre 1; p. p. 342-343.
(2) Foligno : Latin Thought: p. 68.
(3) Rashdall : op. cit : vol. 1, p. 28.
(4) Cam. Med. Hist.; vol. 3, p. 517.
(5) Guizot: Hist. de la Civilisation en France; Tome 2; p.p. 199-201
(6) Thompson : op. cit : vol. 2; p 745

أما مدرسة القصر التى عرفها بلاط الملوك الميروفنجيين من قبل ، فقد نظّمها شارلمان فى بلاطه بمدينة آخن على أسس جديدة . ذلك أنه جعل منها مجمعا للعلماء والأدباء ، فضلا عن صفتها الأساسية كمدرسة لإعداد جيل من الناشئين لخدمة الملوك ومعاونتهم[١] . وخير شاهد على الروح الجديدة التى نفخها شارلمان فى هذه المدرسة ، تلك الأسماء التى تسمى بها أعضاؤها والتى أرادوا أن يتشبهوا فيها بالسلف من أعلام الحكمة والأدب ؛ فشارلمان داود ، وألكوين فلاكوس وانجلبرت هومر . . . وقد أظهر الإمبراطور شارلمان شغفا كبيراً بجميع نواحى المعرفة لا سيا الفلك ، كما كان يتكلم اللاتينية ويقرؤها على الرغم من قلة درايته بالكتابة[٢] .

وهكذا انتشرت المدارس الأسقفية والديرية فى جميع أنحاء إمبراطورية الفرنجة ، كما قدر لبعض هذه المدارس البقاء والإستمرار بعد سقوط هذه الإمبراطورية مثل مدارس ريمس وليون وفرييرو كورفى وفولدا وباڤيا[٣] . وكان نظام التعليم الرسمى فى الإمبراطورية الكارولنجية يشمل الأولاد من الأحداث دون البنات ، وإن وجدت بعض أمثلة لنساء متعلمات فى أوربا القرن التاسع . وهنا نلاحظ أن بعض المعاصرين حبذوا فى العصور الوسطى تعليم بنات النبلاء القراءة ، لما فى ذلك من توسيع الأفق وإنارة الفكر ، ولكنهم عارضوا مبدأ تعليمهن الكتابة حتى لا يستخدمنها فى تحرير رسائل غرامية[٤] .

ومهما كان الأمر فقد كان التعليم فى هذا العصر عاما ، فلم يقتصر على رجال الدين وحدهم كما يتضح ذلك من منشور أصدره ثيودلف — أسقف أورليان — لأتباعه من رجال أسقفيته ، يحثهم فيه على تعليم الأهالى بصفة عامة سواء فى المدن

(1) Eyre : op. cit.; p. 325.
(2) Taylor : op. cit.; p 214.
(3) Eyre : op. cit ; p. 811.
(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages; p. 465.

أو فى الريف[١] . وهناك مرسوم آخر صدر سنة ٨٠٢ ينص على أن « يبعث كل فرد إبنه لتعلم القراءة والكتابة بشرط أن يبقى هذا الإبن فى المدرسة حتى يكتمل تعليمه » . أما المرسوم الصادر سنة ٨٠٥ فينص على أهمية الحساب « الذى يجب أن يتعلمه كل فرد على الوجه الصحيح » . و يبدو أن الحساب والفلك كانت لهما أهمية خاصة فى ذلك العصر لمعرفة حساب الأيام والأعياد الدينية . ولكن من الواضح أنه كان عسيرا أن يتقدم علم الحساب بالطريقة اللازمة لإجراء العمليات الحسابية من جمع وطرح وضرب . . . بالأعداد الرومانية التى لم يعرف غرب أوربا غيرها حينئذ ؛ لأن الأعداد الهندية واستخدام الصفر فى الحساب لم تعرفها أوربا إلا عن طريق العرب فى القرن الثانى عشر[٢] .

وعلى الرغم من أن ثيودلف — أسقف أورليان - كان يحلم بنوع من التعليم أوسع أفقا عندما كتب إلى رجال أسقفيته يحثهم على تعليم الصغار بدون أجر مكتفين بما يقدمه الخيرون من منح اختيارية ؛ إلا أن التعليم ظل فى العصر الكارولنجى يستهدف تدريب رجال الدين وإعدادهم ليكونوا قساوسة أو رهبانا صالحين[٣] . وهكذا أصبحت لكل دير وكل كتدرائية مدرستها الخاصة بتعليم صغار رجال الدين . وهنا يلاحظ أن هذه الحركة العلمية الضخمة لم تندثر بسرعة عقب وفاة شارلمان ، إذ انعقد مجمع كنسى سنة ٨٢٩ حث لويس التقى على أن يحذو حذو أبيه فى تشجيع المدارس والتعليم . هذا إلى أن البابا أيوجين الثانى أمر سنة ٨٢٦ بضرورة وجود مدرسة على الأقل فى كل أسقفية[٤] . هذا و إن كان المرسوم الذى أصدره هذا البابا تبدو فيه التفرقة واضحة بين الفنون الحرة (artes liberales) — وهى العلوم الدنيوية ، و بين العلوم الدينية والنظريات اللاهوتية (sancta dogmata) . ولعل خير ما فعله الإمبراطور

---

(1) Guizot : op. cit. Tome 2; p. p. 212-216.
(2) Thompson : op. cit.; vol. 2; p. 746.
(3) Cam. Med Hist; vol. 5; p. p. 774-775.
(4) Pooler Illustrations; p. 21.

لوثر الأول هو أنه أمر سنة ٨٥٥ بتأسيس تسعة مدارس مركزية فى بافيا و إفريا Ivrea وتورين وكريمونا وفلورنسا وفورمو وفيرونا وفيكنزا وفورم[1] .

أما عن نظام التعليم حينذاك — فى القرن التاسع — فكان ينقسم إلى ثلاث مراحل ، الأولى بمثابة مرحلة ابتدائية أو أولية ، وفيها تدرس القراءة والكتابة ومبادىء اللاتينية الدارجة مع بعض دراسات سطحية فى أصول الدين والكتاب المقدس . و يبدو أن هذه المرحلة كانت إلزامية للمقبلين على الإنتظام فى سلك الكهنوت ، كما كانت مباحة لغيرهم من العلمانيين و إن كان إقبال هؤلاء الأخيرين عليها ضعيفا . أما المرحلة الثانية ، فتشمل موادها الفنون السبعة الحرة بمجموعتيها الثلاثية والرباعية ، وكانت مواد المجموعة الثلاثية تسمى عقلية فى حين سميت مواد المجموعة الرباعية وجودية لتناولها حقائق بعيدة عن العقل . وأخيرا تأتى المرحلة الثالثة ، وهى خاصة بتعليم اللاهوت والكتب المدرسية فى ضوء آراء آباء الكنيسة ، لا سيما القديس أوغسطين .

و يلاحظ أنه لم يوجد توافق أو انسجام بين مراحل التعليم الثلاث السابقة ، سواء من حيث تعاقبها أو علاقتها بعضها ببعض ؛ و إنما كثيرا ما كانت هذه المراحل تتداخل بعضها فى بعض أو تتباعد بعضها عن بعض وفق الظروف والأحوال .

المدارس الديرية :

ولم تلبث حركة الإحياء الكارولنجية أن استنفدت قوتها سنة ٨٧٧ ، أى عند وفاة شارل الأصلع ، و إن كان أثرها قد ظل باقيا لم يندرس . وفى وسط المحنة التى تعرضت لها الإمبراطورية الكارولنجية فى القرن التاسع نتيجة للأخطار

---

(1) Thompson : op. cit.; vol. 2, p. 746

الخارجية من ناحية والإنحلال الداخلى من ناحية أخرى ، قامت المدارس الديرية — فيما بين سنتى ٨٠٠ و ١١٠٠ — برسالتها كاملة إذ أضحت المراكز الأساسية لحفظ الحضارة الغربية، كما تخرج فى مدارسها عدد كبير من رجال المعرفة المبرزين (١) . لذلك اختار بعض المؤرخين والكتاب أن يطلقوا اسم « العصر البندكتى » على الفترة الواقعة بين وفاة شارلمان والقرن الحادى عشر ، على أساس أن هذه الفترة تمثل العصر الذى أضحى زمام التعليم فى أوربا بأيدى رهبان الأديرة (٢) .

ذلك أن مدارس الأديرة قامت بدور أكثر أهمية من مدارس الكتدرائيات فى هذه الفترة، كما أن الأديرة فتحت أبوابها لطلاب العلم — من غير الديريين لأول مرة فى تاريخها . ومنذ بداية القرن التاسع أصبح لكل دير من الأديرة المعروفة مدرستان منفصلتان ، إحداهما للنظاميين المنقطعين للعبادة من أهل الدير (oblati) ، والأخرى للخارجيين (٣) .

ويبدو أن تيار النشاط العلمى فى أوربا بدأ يتحول — منذ أواخر القرن التاسع — من غاليا إلى ألمانيا ، التى أخذت تفيض حيوية فى عهد حكامها من ملوك الأسرة السكسونية . وقد نتج عن ذلك قيام نهضة فى ألمانيا فى القرن العاشر تعرف بالنهضة السكسونية أو النهضة الأوتية ، نسبة إلى الإمبراطور أوتو الأول أو العظيم (٩٣٦ — ٩٧٣) (٤) . على أن هذه النهضة الأوتية كانت أضعف أثرا وأضيق دائرة من النهضة الكارولنجية السابقة لها ، هذا وإن تناولت هى الأخرى النواحى الأدبية والفنية والتعليمية ، فضلا عن العناية بالنحو اللاتينى بوجه خاص ، لأن معرفة قواعد النحو تتوقف عليها دراسة الكتاب المقدس دراسة صحيحة (٥) .

---

(1) Eyre : op. cit., p. 326.
(2) Rashdall : op. cit; vol. 1; p. 29.
(3) Idem; p. 20.
(4) Thompson : op. cit.; vol. 2; p. 746
(5) Taylor : op cit.; vol. 2; p p. 361-362.

وكانت أبرز مدارس ألمانيا فى هذه الحقبة مدرسة دير سانت جال حيث ظل تراث الحركة الفكرية الأيرلندية قويا (١) . ونخرج من دراسة نظم هذه المدرسة وأشباهها من المدارس الديرية المعاصرة بأن التعليم فيها ظل دينيا فى أسلوبه وأهدافه بحيث لم يكن هناك نظام تعليمى ثابت للعلمانيين الذين ظل معظمهم جاهلا لا يعرف القراءة والكتابة (٢) . كذلك يلاحظ أن التدريس فى هذه المدارس اعتمد على الطريقة الشفوية بسبب ندرة الكتب وارتفاع أثمانها وكثرة الأخطاء فى المخطوطات الرخيصة . ولم يكن ذلك إلا فى أواخر العصور الوسطى عندما ازدادت الكتب وكثرت المخطوطات بأيدى التلاميذ فأخذ المدرسون يعدلون عن الإملاء ليشرحوا ما بأيدى التلاميذ من نصوص (٣) . كذلك يلاحظ أن التعليم امتاز فى المدارس الديرية بالصرامة والحزم والقسوة فى سبيل المحافظة على النظام ، فضلا عن ضعف المستوى العامى للمعلمين (٤) .

ونستطيع أن نقف على ما كان يلاقيه صغار التلاميذ فى تلك العصور من متاعب وآلام بقراءة فقرة مما كتبه جيوبرت النوجنتى (Guibert de Nogent) المتوفى سنة ١١٢٤ ، إذ يترجم لحياته فيحكى كيف أنه كان يساق صباح كل يوم — وهو طفل فى التاسعة من عمره — إلى مدرسة الدير ، ليتلقى تعليمه على يد كاتب جاهل يتصف بالقسوة والعنف ، لم يتعلم نفسه النحو إلا فى الكبر . ثم يستطرد جيوبرت ذاكرا أنه لم يتمتع بيوم واحد عطلة ، حتى أيام الآحاد والأعياد ، كان يذهب فيها إلى المدرسة حيث يكلف كثيرا من الواجبات الشاقة (٥) . أما استاذه فيصفه بعدم المقدرة فى الشعر والنثر ، وأنه كان لا يجيد شيئا سوى توجيه

---

(1) Coulton : Life in the Middle Ages; vol. 2, pp. 113 - 114.
(2) Eyre : op. cit.; p. 326.
(3) Adamson : The Legacy; p. 278.
(4) Coulton : Life in the Middle Ages; vol. 2; p.p. 113 - 114.
(5) Thompson : op. cit.; vol. 2; p. 758.

اللكمات والألفاظ القاسية إليه و إلى زملائه ، فى الوقت الذى كان يفرض على تلاميذه حفظ مالا يستطيع هو تدريسه ! ثم يعيب جيوبرت على ذلك المدرس أن يطلب من عقل التلميذ الصغير إستيعاب مالا يستطيع هو توصيله إلى ذلك العقل، لأنه لا يوجد شىء فى الحياة أصعب من حفظ ما لا يستطيع الفرد أن يفهمه. وأخيرا يعلق على ذلك بأنه يجب ألا نجبر الصغار على حفظ أشياء نعتقد نحن أنها حقائق مسلم بها دون أن نعيها ونجعلهم يفهمونها أولا ... وهكذا تمدنا آراء جيوبرت بصورة واضحة عن فلسفة التربية فى أوربا العصور الوسطى ، وهى صورة قد لا يعرفها كثير من مؤرخى علم التربية فى العصور الحديثة[١] .

المدارس الأسقفية أو الكتدرائية :

كان الأسقف فى أول الأمر يتولى رآسة المدرسة التابعة لأسقفيته ، ولكن ازدياد أعباء الأساقفة جعلتهم يتركون الشئون التعليمية داخل أسقفياتهم لفرد خاص (scolasticus, archiscola) . ولم يسمح لأى فرد آخر أن يفتح مدرسة داخل حدود الأسقفية أو يباشر تدريس الفنون الحرة دون تصريح من هذا الموظف ، وإلا تعرض للمحاكمة[٢] .

ومن الواضح أن المدارس الأسقفية ضعفت فيها الرقابة والشدة فى معاملة التلاميذ عن المدارس الديرية ، الأمر الذى جعل الأولى مسرحاً لكثير من المتاعب من جانب التلاميذ المشاكسين . على أن هذه المدارس الأسقفية التى قلت فيها الرقابة على التلاميذ ، هى المدارس نفسها التى قدر لها البقاء والإستمرار لتزدهر فى أوائل القرن الثانى عشر . فى الوقت الذى أخذ نجم المدارس الديرية فى الأفول البطىء[٣] . وليس معنى ذلك أننا نقلل من فضل الأديرة ومدارسها

---

(1) Ibid

(2) Adamson : The Legacy of the Middle Ages; p.p. 256 - 257.

(3) Thompson : op. cit ; vol 2; p. 749.

إذ يكفى أن معظم المتنورين من رجال الدين فى ذلك العصر تلقوا تعليمهم فى الأديرة . زيادة على أن المدارس الأسقفية نفسها استمدت معلميها وأساتذتها من الأديرة[١] . وكل ما هنالك هو أن المنظمات الديرية الجديدة لا سيما الكلونية والسسترشيانية ، شغلتها المسائل المتعلقة بالإصلاح وسياسة العصر عن الإهتمام بالنشاط التعليمى ، فى حين استمرت الأديرة البندكتيه فى ألمانيا تواصل نشاطها التعليمى .

وقد أخذت المجامع الكنسية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر تنادى بإنشاء مدارس فى كل كتدرائية حتى ظهر عدد كبير من هذه المدارس[٢] . وكانت هذه المدارس تدور حول مركز الأسقف الذى عين للإشراف على تلاميذ المدرسة موظفاً لقب بأستاذ المدرسة (magister scholarum) ؛ وإن كان أمين الكتدرائية (Chancellor) هو الذى تولى فى بعض الحالات — مثل مدرسة كتدرائية باريس — الإشراف على المدرسة[٣] .

ولم تلبث أن تزعمت المدارس الكتدرائية — وبخاصه فى فرنسا — النشاط الفكرى فى غرب أوربا عند بداية القرن الثانى عشر ؛ وظهر من هذه المدارس — مثل ريمس وشارتر — ما أصبح أماً لمجموعة من كبار المفكرين الذين لمعت أسماؤهم فى مختلف ميادين المعرفة وبخاصة فى العلوم والآداب ؛ هذا فى الوقت الذى لم تبق من مدارس الأديرة ذات الشهرة سوى قلة محدودة[٤] . وهنا ينبغى أن نلاحظ دائماً أن هذه المدارس الكتدرائية لم تختلف عن المدارس الديرية فى طابعها الدينى وأهدافها الكنسية ، الأمر الذى كان له أعمق الأثر فى تشكيل الحركة الفكرية التى جاءت مصحوبة بظهور الجامعات الأوربية

(1) Rashdall : op. cit ; vol 1; p. 29.

(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages; p. 467.

(3) Eyre ; op. cit; p. 325

(4) Idem; p. 269.

فى القرن الثانى عشر (١) . كذلك اهتمت المدارس الكتدرائية بدراسة النحو اهتماما بالغاً ، واتخذت هذه الدراسة شكل تلقين للمبادئ والقواعد النحوية ، ثم إعطاء تطبيقات عملية عليها ، زيادة على دراسة نماذج من الشعر والنثر وامتحان الطلاب فيها . أما العلوم الأخرى فقد حظيت أيضاً بقسط وافر من عناية المدارس الكتدرائية فى العصور الوسطى ، وفى مقدمة هذه العلوم اللاهوت والفلسفة والقانون (٢) .

والواقع أن أوربا شهدت نهضة فكرية عظيمة فى القرن الثانى عشر ، ساعد عليها الإنتعاش الإقتصادى والإستقرار الإجتماعى والسياسى وازدياد اتصال الأوربيين بالثقافة الإسلامية عن طريق الأندلس وصقلية والشام (٣) . وقد ترتب على هذه الحركة الحضارية اتساع نطاق المعرفة فى غرب أوربا بحيث لم تعد تتسع لها المدارس الأسقفية أو الديرية بنظمها التى كانت عليها فى أوائل القرن الثانى عشر ، مما تطلب قيام نظام جديد للتعليم العالى يفى بحاجات العلوم الجديدة وطلاب هذه العلوم . ولم يكن ذلك إلا بنشأة الجامعات التى تعتبر فى نظر بعض المؤرخين أعظم ما قدمته العصور الوسطى للعصور الحديثة (٤) .

الجامعات :

ظهرت أولى الجامعات الأوربية فى القرن الثانى عشر فى بولونيا بإيطاليا ، وفى باريس بفرنسا ؛ وقد تفرعت عن الأولى بقية الجامعات الأوربية فى حوض البحر المتوسط ، فى حين تفرعت عن الثانية جامعات شمال أوربا وغربها التى ظهرت فى

---

(1) Rashdall : op. cit.; vol. 1; p.p. 29 - 30.

(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages; p. 468.

(٣) أنظر كتاب النهضات الأوربية للمؤلف ص ١٠٠ — ١٠٢ وكذلك Cam Med. Hist; vol. 6, p.p. 559 - 560.

(4) Eyre : op. cit ; p, 328.

أواخر العصور الوسطى . والمعروف أن لفظ رابطة أو جامعة (universitas) لم يعن فى الأصل أكثر من مجموعة من الأساتذة أو الطلاب اجتمعوا فى صعيد واحد لمباشرة النشاط الثقافى [١] . على أن الطلاب خطوا خطوة السبق فى بولونيا عندما نظموا أنفسهم فى هيئة نقابة أطلقوا عليها لفظ « جامعة » ؛ وانقسموا إلى فريقين كبيرين : الطلاب الوافدون من إيطاليا والبلاد الواقعة جنوبى جبال الألب (citramontane) والطلاب الوافدون من الجهات الواقعة شمالى جبال الألب (ultramontane) [٢] . ولم تلبث أن انقسمت كل مجموعة من هاتين المجموعتين إلى شعب صغيرة أو أروقة ضمت كل منها الطلبة الوافدين من بلد واحد أو مدينة واحدة ، كطلاب لمبارديا أو تسكانيا أو البندقية أو روما أو بافاريا أو سوابيا . واختار أبناء كل بلد من هؤلاء مشيرا أو مراقبا (conciliarius) ، على أن يجتمع هؤلاء المشيرون سويا لاختيار رئيس أو مدير للجامعة (rector) من بينهم . وهكذا لم يكن الأساتذة أعضاء فى جامعة بولونيا، ولم يكن لهم نصيب فى إدارتها وإنما ظلوا بمثابة مستخدمين تدفع لهم نقابة الطلبة أجورهم وفقا لعدد الدروس التى يدرسها كل منهم وعدد طلبته [٣] . حقيقة إن هيئة التدريس سرعان ما ألفت نقابة خاصة بها ، ولكن السيادة ظلت لنقابات الطلبة فى جامعة بولونيا، حتى أن هذه النقابات الأخيرة كانت تفرض على الأساتذة قيودا وغرامات إذا خالفوا القواعد العامة التى وضعتها [٤] .

أما فى باريس فاتخذ التنظيم اتجاها عكسيا لما كان عليه الحال فى بولونيا ، إذ بدأ الأساتذة بتكوين رابطة أو جامعة (universitas) ، فى حين انقسم الطلبة إلى أربع مجموعات أو أروقة حسب الشعوب التى ينتمون إليها، لكل مجموعة

---

(1) Rashdall : op. cit.; vol, I, p.p, 4 - 6.
(2) Cam, Med Hist., vol. 6, p. 581.
(3) Eyre : op. cit., p. 330.
(4) Painter : A Hist, of the Middle Ages, p. 470.

وكيل أو قائم بأعمالها (procurator) . وكان هؤلاء الوكلاء أو رؤساء الأروقه يختارون الرئيس أو المدير الأعلى للجامعة (rector) الذى أصبح بطريقة آلية رئيس أساقفة باريس، لأن جامعة باريس نشأت وتدرجت من مدرستها الأسقفية[١] .
أما إدارة جامعة باريس فكانت فى أيدى الأساتذة لا فى أيدى الطلبه ، كما كان الحال فى بولونيا[٢]. وربما رجع السبب فى ذلك إلى الفارق العام بين مستوى أعمار الطلبة فى الجامعتين ، فمدرسة باريس الأسقفية - وهى التى أصبحت جامعة باريس فيما بعد — كان يمكن أن يلتحق بها الطلبة الأحداث فى سن الرابعة عشرة بل الثانية عشرة ، فى حين كان الطلبة فى بولونيا أكبر سنا وأتم نضجا لأن الدراسة الأساسية فيها كانت قانونية ، ومن ثم أقبل عليها عدد كبير من الناضجين ورجال الأعمال[٣]. هذا إلى أن جو القومونات اللمباردية المشبع بالحرية والبعد عن القيود التى أحاطت بالجو الأسقفى الذى ولدت فيه جامعة باريس — كان له أثر واضح فى هذا التطور . ومهما كان الأمر، فإنه يمكن القول بأن بولونيا و باريس هما الأصل الذى تفرعت عنه بقية الجامعات الأوربية واستقت منه نظمها وقواعدها. فكانت باريس نموذجا للجامعات التى قامت على أساس رابطة الأساتذه فى شمال أوربا ، فى حين كانت بولونيا أساسا للجامعات التى قامت على أساس رابطة الطلبة فى جنوبها[٤] .

وكان الإصطلاح الذى أطلق فى أول الأمر على ما نعرفه اليوم باسم الجامعة هو (studium generale) بمعنى المكان الذى يتلاقى فيه الطلبة الوافدون من جميع الجهات ، لا - كما يظن البعض خطأ — المكان الذى ندرس فيه جميع المواد[٥] . ولم يصبح هذا الإصطلاح شائعاً إلا فى أوائل القرن الثالث عشر ،

(1) Haskins · The Rise of Universaties, p.p. 21 - 22.
(2) Cam. Med. Hist., vol. 6, p 561
(3) Eyre : op. cit., p.p. 329 - 330.
(4) Haskins : The Rise of Universaties, p. 5.
(5) Eyre : op. cit., p. 328.

عندما أصبح يمتاز بثلاثة خصائص أساسية ، أولها أنه يعبر عن البقعة أو المدرسة التي تستقبل الطلبة من جميع الجهات ، وثانيها أنه كانت تلقن به دراسات عليا على أن تكون من بينها إحدى مواد التخصص على الأقل ، كاللاهوت أو القانون أو الطب ، وثالثها أن هذه الدراسات العليا قام بتدريسها عدد من الأساتذة الأكفاء المتخصصين[١] . وعلى هذه الأسس السابقة وجدت عند أوائل القرن الثالث عشر جامعة في باريس اشتهرت باللاهوت ، وأخرى في بولونيا اشتهرت بالقانون ، وثالثة في سالرنو اشتهرت بالطب .

وهنا نلاحظ أن نفوذ الكنيسة كان عاملا أساسيا في التنظيم الشكلي للجامعات ، لأن الكنيسة كانت المنبع الوحيد للتعليم في أوربا العصور الوسطى . هذا إلى أن حركة التعليم الجديدة نبتت في المدارس الأسقفية ، ومن ثم كان طبيعيا أن تتحكم الكنيسة - وهي أعظم قوة تحكمت في جميع مرافق الحياة في أوربا العصور الوسطى - في توجيه هذا التعليم الجديد والسيطرة عليه[٢] . وقد أدركت الكنيسة أن في خروج هذه الحركة التعليمية الجديدة من قبضتها ، تعريضا لسلطانها ونعاليمها للخطر والنقد ، وسط الجو العلمي الجديد المشبع بحرية التفكير والتعبير . ولما كان من الصعب على الكنيسة قمع هذه الحركة الجديدة أو كبتها ، فلا أقل إذا من توجيهها وتنظيمها في الصورة التي تكفل عدم التعرض لأوضاع الكنيسة ونظمها وآرائها القائمة[٣] . وأول مظاهر تدخل الكنيسة في شئون هذه الهيئات الجامعية الناشئة هو تمسك البابوية بمبدأ موافقة الأسقف على الطلبة الذين يتقدمون للحصول على درجة الدكتوراه في القانون من بولونيا . أما باريس فقد ظهر هذا التدخل في التوحيد بين وظيفتي رئيس

---

(1) Rasshdall : op. cit., vol. 1, p.7.

(2) Thompson : op. cit , vol. 2, p.p. 765 - 766.

(3) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit., p. 257

الجامعة ورئيس أساقفة باريس ، بمعنى أن الأخير أضحى مشرفا على شئون الجامعة[١] . ولكن على الرغم من كل ذلك فإن الجامعات الناشئة استطاعت بوجه عام أن تحظى بقدر كبير من الحرية الأكاديمية ، إذا استثنينا جامعة باريس التى ظلت أقل من غيرها حرية لأنها سرعان ما غدت مركزا لدراسة اللاهوت والقانون الكنسى[٢] .

أما فيما يختص بمواد الدراسة ونظمها وحياة الطلاب فى جامعات العصور الوسطى الناشئة ، فيلاحظ أن الجامعة المثالية كان لا بد لها من أن تحوى أقساما للفنون الحرة، واللاهوت ، والقانون بشطريه الرومانى والكنسى ، والطب . ولكن الواقع هو أنه لم توجد جامعة فى هذا الدور الأول من تاريخ الجامعات فى العصور الوسطى استوفت كل هذه الأقسام . والذى حدث بالضبط هو أن كل جامعة تخصصت فى ميدان أو أكثر من ميادين المعرفة ، فاشتهرت باريس بالفلسفة واللاهوت والقانون الكنسى والآداب ، وتخصصت بولونيا فى القانون الرومانى ، وعرفت سالرنو بالتفوق فى دراسة الطب وهكذا[٣] .

وقد امتد نفوذ أمين الكتدرائية (Chan eHor) فى باريس حتى تضمن الموافقة على اختيار المرشحين لوظائف التدريس[٤] . وهكذا أصبح نفوذ أمين الكتدرائية من جهة ، وحق حصول المدرس القدير على ترخيص بالتدريس من جهة أخرى ، هما الدعامتان اللتان قام عليها النظام الفرنسى للجامعات[٥] . على أن المتتبع لنشأة جامعة باريس ، يلحظ أن هذا التطور جاء مصحوبا بصراع بين الطلبة وأمين الكتدرائية . ذلك أن الطالب الذى استكمل دراسته وتأهل

---

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 470.
(2) Rashdall : op. cit., vol 1, p p. 321 - 324
(3) Idem, p p. 17 - 18.
(4) Eyre : op cit., p. 330.
(5) Rashdall : op. cit., vol. 1, p. 282.

للتدريس كان لابد له من الحصول على درجة الأستاذية أو الماجستير . ولكن أمين السكتدرائية لم يكن له حق رفض الترخيص لأحد الأساتذة الذين يحملون الدرجة السابقة بالتدريس فحسب ، بل كان له فى أول الأمر حق حرمانه من هذه الدرجة التى حصل عليها ، مستغلا فى ذلك سلطته الدينية ونفوذه الكنسى[١] . والغريب أنه على الرغم من هذه السلطات الواسعة التى تمتع بها أمين السكتدرائية إلا أنه لم يكن عضواً فى نقابة أساتذة الجامعة[٢] . هذا إلى أن أساتذة الجامعة كانوا يستطيعون رفض الإعتراف بترشيح أحد الأفراد ليكون عضواً جديداً فى هيئة التدريس : وعن هذا الطريق تمتعوا بسلطة تعادل ماكان لأمين السكتدرائية من سلطة فى منح الليسانس (licence) أو الترخيص بالتدريس[٣] .

أما عن مناهج الدراسة فى الجامعات الأوربية الناشئة فقد قامت فى أول الأمر على أساس المجموعة الرباعية من الفنون السبعة الحرة ، ولكنها أخذت تنمو وتتعدل بسرعة نتيجة للمعلومات الغزيرة التى تدفقت على غرب أوربا منذ القرن الثانى عشر[٤] . وقد ظفر القانون والطب والفلسفة واللاهوت بالقسط الأكبر من اهتمام المعاصرين ، وإن كانت بقية العلوم لم تحرم من ذلك الإهتمام . فالحساب الذى كان لا يزال علماً غامضاً حظى بعناية كبرى ، والهندسة عولجت على أنها تضم فى رحابها مجموعة أخرى من العلوم أهمها الجغرافيا التى بلغت درجة كبيرة من التقدم نتيجة للحروب الصليبية واتساع التجارة . كذلك ازدادت العناية بالعلوم الطبيعية ولاسيا علم الحيوان . وإذا كانت هذه العلوم قد ظلت أمداً طويلا تشوبها الأوهام وتسيطر عليها المعتقدات الدينية ، إلا أن الجامعات الناشئة

---

(1) Idem, p. 304.
(2) Eyre : op. cit., p. 330.
(3) Rashdall : op. cit, vol. 1, 284.
(4) Eyre : op. cit, p. 332.

لم تلبث أن تبنت الروح الجديدة التى ترمى إلى البحث والإستقصاء لمعرفة حقيقة الكون والكائنات[1]. أما فى اللاهوت فكان منهج الدراسة طويلا و بخاصة فى جامعة باريس ، حيث كانت مواد هذا المنهج مستمدة من الكتاب المقدس ومن كتاب « الأحكام » الذى وضعه بطرس لمبارد فى علم اللاهوت[2] .

أما الدرجات العلمية فكانت ثلاثا : البكالريوس والليسانس والأستاذية ؛ فكان يكفى أن يدرس الطالب كتابين فى النحو وخمسة فى المنطق ليحصل على درجة البكالريوس بعد أن يؤدى امتحاناً أمام ثلاثة أو أربعة أساتذة ؛ فإذا نجح نوقش علناً برآسة أستاذه ثم يمنح درجة البكالوريوس فى الفنون الحرة (Baccalariandorum, Bachelor of Arts)[3] ؛ وتعطيه هذه الدرجة الحق فى أن يكون معيداً . و بعد هذه المرحلة يستطيع الطالب أن يقضى نحوا من سنتين فى قراءة بعض المتون وشرحها ، حتى إذا أتم ذلك بنجاح حصل على إجازة التدريس (licentia docendi, lisence) وهى كما يتضح من اسمها ترخيص (ليسانس) يعطيه حق مباشرة مهنة التدريس[4] . أما درجة الأستاذية (Magister artium) فكانت تتطلب دراسة تقرب من خمس أو ست سنوات و بعد ذلك لا يحصل الطالب على هذه الدرجة إلا بعد أن يلقى درساً تجريبياً أمام لجنة من الممتحنين .

---

(1) Thompson : op. cit ,vol.2, p.767.

(2) Haskins : The Rise of Universaties; p. 47.

(3) Rashdall : op. cit.; vol. 2, p p 450-456.

(٤) يلاحظ عدم الخلط بين مدلول هذه الشهادات فى جامعات أوربا العصور الوسطى وبين ما تدل عليه الآن فى جامعاتنا . فدرجة البكالريوس (B. A.) تساوى درجة الليسانس فى كلياتنا النظرية؛ ودرجة الليسانس كانت عبارة عن إجازة تعطى صاحبها حق مزاولة مهنة التدريس وهى أقرب فى عرفنا إلى ما نسميه تجاوزاً درجة الماجستير ؛ أما درجة الأستاذية فى الآداب — وهى المفروض أن تسمى ماجستير M. A. — فهى مرادفة بالضبط لدرجة الدكتوراه ، وبها كانت تكتمل الصفة العلمية لأستاذ الآداب فى العصور الوسطى .

(أنظر Rashdall, op cit.; vol. 1, p.p. 452-470.) ، وكذلك كتاب الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى ، للمؤلف).

وكانت درجة الأستاذية فى الآداب مرادفة ومعادلة لدرجة الدكتوراه فى الفروع الأخرى[١] . ولم يكن من الضرورى أن يحصل الطالب على درجة الأستاذية للتحضير لدرجة الدكتوراه فى القانون الكنسى أو المدنى ، ولكنها كانت أساسية للتحضير لدرجة الدكتوراه فى الطب أو اللاهوت[٢] . ومهما كان الأمر فإن درجة الأستاذية أو درجة الدكتوراه كانت لا تمنح لمن سنه دون الخامسة والثلاثين على أن يؤدى الطالب امتحانين للحصول على هذه الدرجة أحدها خاص والآخر عام علنى ، وبعد ذلك يمنح الدرجة فى الكتدرائية[٣] .

وكانت طريقة التعليم شفوية ، على هيئة محاضرات يلقيها الأساتذة تتخللها مناقشات فيما بينهم وبين الطلاب . ولم يكن للجامعات فى أول الأمر مبان مستقلة خاصة بها ، فاستخدمت فى إلقاء المحاضرات بعض الغرف الملحقة بالكتدرائية ، وهى غرف عاريه باردة ، ليس فيها أثاث سوى مكتب الأستاذ[٤] . أما الطلبة فكانوا فى أول الأمر — قبل إعداد مقاعد لهم — يجلسون على الأرض، وأحيانا فوق وسائد محشوة بالقش[٥] . وقد توقف نجاح الطالب فى دراسته إلى حد كبير على قوة ذاكرته ومقدرته على الإحتفاظ فى ذهنه بما يلقيه الأستاذ من معلومات. ذلك أن الورق الذى عرفه الغرب بعد ذلك عن طريق العرب ، لم يكن قد عم استعماله بعد ؛ فى الوقت الذى كانت الرقائق الجلدية المستخدمة فى الكتابة باهظة الثمن بحيث لا يستطيع معظم الطلاب شراءها[٦] . وفى بعض الأحيان دفعت الضرورة بعض الطلبة الذين يدرسون على أستاذ واحد إلى الإشتراك سويا فى شراء

---

(1) Cam. Med. Hist.; vol. 6, p 564.
(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages; p. 473.
(3) Thompson : op. cit.; vol 2, p.p. 767-768.
(4) Cam. Med, Hist ; vol. 6, p. 570.
(5) Haskins : The Rise of Universaties; p.p. 62-63.
(6) Rashdall : op. cit , vol. 1, p 424.

رق جلدى لتدوين المحاضرات عليه. وفى نهاية المحاضرة يجتمعون سويا فى مكان ما، ويدلى كل منهم بما تعيه ذاكرته مما سرده الأستاذ، وعندئذ تنشأ بينهم مناقشات طويلة حول تحديد ما ذكره الأستاذ وما لم يذكره، وعندما تتم مجموعة المحاضرات تصبح ملكا لهم جميعا يتبادلونها للاستذكار[١].

ولم تخل جامعات العصور الوسطى — كما هو الحال اليوم فى جامعاتنا الحديثة — من بعض الطلاب المستهترين الذين يندسون وسط جموع المجتهدين؛ حتى وصف بعض المعاصرين إحدى فرق الجامعة بأن طلابها يصلحون لأن يكونوا خبازين لا طلاب علم! والواقع أنه كانت ثمة مشكلة خطيرة فى توفير العناية المادية والرقابة الخلقية على هذه المئات بل الألوف من الطلاب. وقد واجهت هذه المشكلة الجامعة والكنيسة والسلطة الحاكمة فى المدينة، لأن الطلاب كانوا صغار السن يفيضون شبابا ويعيشون بعيدين عن بيوتهم دون وجود سلطة تكبح جماحهم[٢]. وبالإضافة إلى ارتفاع تكاليف الحياة الجامعية عندئذ. مما أدى بكثير من الطلبة إلى العيش على قليل من الزاد فى مساكن حقيرة[٣]، فإن عوامل الإغراء كانت كثيرة، من حانات وأماكن للدعارة واختلاط بقطاع الطرق وغيرهم من أهل السوء، مما أدى إلى إنحراف كثير من الطلبة عن جادة الصواب[٤]. ولم يظهر حل لهذه المشاكل المتباينة إلا قرب منتصف القرن الثالث عشر عندما ظهرت المجمعات أو الكليات المنزلية (colleges). وكان المقصود بهذه المجمعات والكليات فى أول الأمر أن تكون منازل ينزل فى كل منها عدد من الطلاب — وبخاصة الفقراء — لمساعدتهم على عيشة أفضل وحتى يكونوا تحت رقابة تشرف عليهم[٥].

---

(1) Thompson : op. cit ; vol 2, p. 768.

(2) Haskins : The Rise of Universaties; p.p. 83-85.

(3) Coulton : Life in the Middle Ages; vol. 3, 113.

(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 475.

(5) Eyre : op. cit , p, 313.

وقد ظهرت هذه المؤسسات لأول مرة فى باريس عندما أخذ بعض الخيرين يألمون لما يعانيه الطلبة الفقراء من متاعب وآلام ، فأسس روبرت السوربونى (Robert de Sorbon) – وهو تاجر وافر الثراء – مجمعة فى باريس سنة ١٢٥٨ لإيواء عدد من الطلبة الفقراء وإطعامهم مقابل أجر اسمى زهيد ، مما خلد اسمه فى باريس حتى اليوم [١]. ولم يكد ينتهى القرن الخامس عشر حتى كان فى باريس أكثر من خمسمائة مؤسسة إجتماعية من هذا النوع تتمتع بأوقاف واسعة من الأراضى والعقار . أما فى إنجلترا فقد أنشأ والتر مرتون (Walter of Merton) أسقف روشستر مؤسسة مرتون فى اكسفورد ، كما أسس حنا باليول John Balliol — أحد الأمراء الأثرياء فى شمال إنجلترا — مؤسسة باليول [٢].

ولم يكن ذلك إلا فى عصر متأخر عندما أطلق هذا الإصطلاح (Colleges) على المعاهد والكليات العلمية التى تفرعت عن الجامعة الواحدة لتتخذ لنفسها طابعا علميا خاصا بها . وقد زال نظام الكليات هذا من جامعات القارة الأوربية منذ أيام الثورة الفرنسية ، ماعدا انجلترا التى ما زالت تحتفظ به حتى أن جامعة اكسفورد لها ثلاث وعشرون كلية ، فى حين تحتفظ جامعة كمبردج بتسع عشرة كلية معظمها يرجع أصله إلى العصور الوسطى . وكانت هذه الكليات تعتمد على المنح التى تتلقاها من أغنياء رجال الدين والنبلاء والتجار [٣] .

ولم تلبث الجامعات أن انتشرت فى أوربا مستمدة نظمها من جامعة باريس فى الغرب وجامعة بولونيا فى الجنوب . ففى انجلترا ظهرت جامعة اكسفورد فى القرن الثانى عشر ، وإن كانت لم تتخذ صفتها الرسمية إلا حوالى سنة ١٢٠٠ . وكانت اكسفورد فى الواقع وليدة جامعة باريس لأن مؤسسيها كانوا من الطلبة

(1) Rashdall : op. cit., vol. 1, p p. 500-507. & Cam Med. Hist. vol. 6, p. 574.

(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p.p. 474-475.

(3) Thompson : op. cit., vol. 2, p. 769.

والأساتذة الذين درسوا فى باريس ، والذين أمرهم هنرى الثانى ملك إنجلترا بالعودة إلى بلادهم سنة ١١٦٧ عندما ساءت العلاقات بينهم و بين لويس السابع ملك فرنسا وتعذر على الطلبة الإنجليز الاستمرار فى دراستهم بفرنسا [١] . أما كمبردج فقد تأسست سنة ١٢٠٩ عن طريق هجرة بعض طلاب وأساتذة اكسفورد إليها [٢] ؛ الأمر الذى جعل بعض الكتاب يشبهون انتشار الجامعات فى العصور الوسطى بتكوين خلايا النحل الجديدة ، إذ يكفى أن يهاجر بعض الأساتذة والطلبة من جامعة قديمة إلى مكان جديد ليضعوا أساس جامعة أخرى جديدة [٣] .

وهكذا شهدت أوربا فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر مولد كثير من الجامعات الجديدة ، ففى سنة ١٢٢٢ هاجر بعض رجال جامعة بولونيا إلى بادوا ليضعوا أساس جامعة جديدة؛ وفى سنة ١٢٢٤ وضع فردريك الثاني أساس جامعة نابلى — وهى أول جامعة يقيمها أحد ملوك أوربا أو حكامها ؛ و بعد ذلك بهت سنوات أسس البابا جامعة فى تولوز لتكون سندا للبابوية فى مكافحة الهرطقة الألبيجنسية [٤] . أما سالرنو فكانت مدرسة ذات شهرة قديمة فى العصور الوسطى فى ميدان الطب فتحولت إلى جامعة طبية عظيمة فى القرن الثانى عشر ، حتى استكملت طابعها فى القرن الثالث عشر [٥] . وفى أسبانيا ظهرت جامعة شلمنقة (Salamanca) قبل سنة ١٢٣٠ . أما أولى الجامعات التى ظهرت شمالى الألب فكانت جامعة براغ فى بوهيميا التى أسسها شارل الرابع سنة ١٣٤٧ . وفى سنة ١٣٨٥ قامت جامعة هيدلبرج وهى أولى الجامعات الألمانية [٦] . وإذا كانت معظم هذه الجامعات قد اختلفت بعضها عن بعض فى نواحى متعددة ، إلا أنها اتفقت

---

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 471.
(2) Rashdall : op. cit., vol. 3, p.p. 33-34.
(3) Cam. Med. Hist., vol. 6, p. 503.
(4) Painter : A Hist of the Middle Ages, p. 472.
(5) Haskins : The Rise of Universaties, p.p. 9-10.
(6) Eyre : op cit., p. 383.

فى الطريق الطويل الذى سارت فيه نحو التحرر من كافة القيود ، حتى حققت استقلالها عن السلطات الكنسية والعلمانية جميعا . ولم يلبث أن أحرز مديرو الجامعات نفوذا إداريا واسعا ، وتحايلوا فى تحقيق ذلك بالثورة حينا و بالاستعانة بالبابوية ضد الحكام العلمانيين أو بهؤلاء الحكام ضد رجال الدين أحيانا أخرى [1] .

* * *

و بعد ، فإننا مهما كتبنا عن أهمية نشأة الجامعات وعن الأثر العام الذى تركته فى تطور المجتمع الأوربى منذ القرن الثانى عشر ، فإننا لن نستطيع أن نوفى الموضوع حقه فى هذا العرض الموجز. وقد ذكر أحد كتاب العصر الوسطى أن القوى الثلاث التى هيمنت على المجتمع المسيحى ووهبته الحياة والقوة كانت الكنيسة ، والإمبراطورية ، والجامعة . ولم تكن الجامعة فى نظره تقل أهمية عن الكنيسة والامبراطورية ، لأنه كما كانت للكنيسة زعامتها ممثلة فى البابوية وروما ، وكما كانت للسلطة العلمانية زعامتها ممثلة فى الامبراطورية الرومانية ، فكذلك كانت جميع جداول المعرفة التى تروى الكنيسة العالمية تنبع من الجامعات الكبرى و بخاصة جامعة باريس [2] . والواقع أن هذا الكاتب لم يكن مبالغاً إذا نظرنا إلى الجامعات على أنها تمثل محاولة لتحقيق حياة مثالية، أوعلى الأقل تحقيق جانب من جوانب هذه الحياة المثالية [3] .

ونكتفى هنا بالإشارة إلى أن الجامعات الناشئة احتضنت العلوم والمعارف الواسعة التى أتت بها النهضة الأوربية فى القرن الثانى عشر ، الأمر الذى جعل الجامعات مركزا لثورة فكرية ضخمة ازدادت قوتها منذ القرن الثالث عشر [4] .

---

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 472.

(2) Rashdall : op. cit., vol. 1, p. 2.

(3) Idem; vol. 1, p. 3.

(4) Cam. Med. Hist., vol 6, p. 559.

وحسب الجامعات أنها هيئات علميه استهدفت المعرفة لذاتها ولتسخيرها فى خدمة العالم الكبير ، كما أن التنظيم الجامعى كان عالميا لا قوميا ، فقصد الجامعة طلاب العلم من مختلف البلاد والأنحاء ، حتى أصبح من الأمور المألوفة أن ينتقل طالب العلم من بلد إلى آخر ليسمع من هذا أو ذاك من الأساتذة المشهورين[١] . وهكذا أصبح تاريخ الجامعات فى العصور الوسطى ليس إلا تاريخا للحياة الفكرية بأوسع معانيها ، من نواحى الأدب والفلسفة واللاهوت والقانون والطب والعلوم والرياضيات[٢] . وكانت الثورة الفكرية التى تمخضت عنها الجامعات أوضح ما تكون فى الجانب الفلسفى ، إذ أفاقت أوربا لتجد نفسها أمام منهل فياض من فلسفة أرسطو الجديدة التى وردت عن طريق العرب ؛ لأنه من الثابت أن الغرب اللاتينى لم يعرف آراء أرسطو الميتافيزيقية إلا عن طريق ترجمة شروح الفيلسوف الأندلسى العظيم ابن رشد (١١٩٨)[٣] .

وقد اعتقدت الكنيسة أنها بإشرافها على الجامعات الناشئة — وبخاصة جامعة باريس — ضمنت لنفسها السيطرة على الحياة الفكرية ، وحصرت هذه الحياة فى دائرة محدودة لا تتعارض مع تعاليمها . ولكن وصول فلسفة أرسطو الجديدة إلى غرب أوربا أحدث انفجارا ذا دوى شديد ، فأقبل طلاب العلم على هذه الفلسفة بنهم بالغ ، غير عابئين بمدى مسايرتها لتعاليم الكنيسة ، حتى أصبح من الحكم السائدة قول أحد المعاصرين « إنك تستطيع أن تكسب الجولة إذا أثبت أن أرسطو فى جانبك »[٤] لذلك هبت الكنيسة للدفاع عن كيانها ، فعقد مجمع دينى إقليمى فى باريس سنة ١٢١٠ حرّم تدريس بعض تعاليم أرسطو ومؤلفاته ،

---

(1) Eyre : op. cit., p.p 332-331

(2) Rashdall : op. cit., vol. 1, p p 3-4.

(3) Idem, vol. 1, p p. 3?1-370.

(4) Harris : Duns Scotus, vol 1, p. 204.

وهدد من يخالف هذا القرار بتوقيع قرار الحرمان ضده[١] . ومن الواضح أن هذا التحريم شمل كذلك شروح ابن رشد لفلسفة أرسطو ، وهى الشروح التى جاءت صادقة التعبير قوية الأثر ، مما أثار الكنيسة ضد أرسطو وابن رشد جميعا . وقد أبيح تدريس جدل أرسطو بعد ذلك بخمس سنوات — أى سنة ١٢١٥ — ولكن تكرر تحريم تدريس الميتافيزيقا زيادة على كل ما يمت إلى الرشدية والرشديين[٢] . ثم حدث سنة ١٢٣١ أن أصدر البابا جريجورى التاسع أمرا جديدا بتحريم فلسفة أرسطو فى جامعة باريس حتى يتم تهذيبها من كل ما يتعارض وتعاليم الكنيسة[٣] . على أن النصر النهائى كان للحركة الجامعية الجديدة وما أثارته من جنوح نحو حرية الفكر . ذلك أن رجال الجامعات الناشئة لم يستطيعوا أن يمتثلوا لأوامر رجال الدين ، و يتخلوا عن فلسفة أرسطو بعد أن تذوقوا جانبا من هذه الفلسفة وأدركوا أهميتها الغذائية للفكر . وهكذا استمر العلماء والطلبه يتداولون آراء أرسطو خفية فيما بينهم ، حتى أن المنطق الجديد لأرسطو كان يدرس فى صورة تامة وكاملة لطلبة الدراسات العليا بجامعة باريس سنة ١٢٥٥[٤] .

أما اللاهوت ، فإن أهميته أخذت تضعف فى الجامعات الأوربية تدريجيا نتيجة لاهتمام هذه الجامعات بتدريس القانون الرومانى . والواقع أن النهضة القانونية التى تزعمتها جامعة بولونيا ، والتى امتدت إلى كثير من جامعات أوربا ، لم تترك متسعا من الوقت والجهد للإهتمام باللاهوت ، إلى درجة أن كثيراً من الجامعات ذات الأهمية أحجمت عن تدريس اللاهوت كلية واكتفت بإنشاء كلية للقانون

---

(1) Idem, vol. 1, p. 356.

(2) Haskins : The Rise of Universities, p'p. 73-74.

(3) Rashdall : op. cit., vol. 1, p. 357.

(4) Idem, vol. 1, p.p. 354-458.

المدنى[1] . وهنا أيضاً تدخلت الكنيسة وحاولت أن تحمى اللاهوت والقانون الكنسى عن طريق الحد من سطوة القانون الرومانى والإقلال من أهميته ، فصدر قرار مجمع ريمس سنة ١١٣١ بتحريم دراسة القانون المدنى على رجال الدين . ثم تجدد هذا التحريم بقرار آخر أصدره البابا اسكندر الثالث سنة ١١٨٠[2] . وفى القرن الثالث عشر أصدر البابا هونريوس الثالث مرسوما بابويا سنة ١٢١٩ حرم فيه تعليم القانون الرومانى أو تعلمه ، خاصة فى بلريس والمناطق المجاورة . ويعبر البابا فى هذا المرسوم عن أسفه لأن كثيراً من رجال الدين أقبلوا على دراسة القانون الرومانى[3] . على أن هذه المراسيم كلها ، وكذلك المرسوم الذى أصدره البابا انوسنت الرابع سنة ١٢٥٤ لم يكن لها أى أثر فعال فى إحياء دراسة اللاهوت أو إضعاف شأن القانون الرومانى ؛ حتى أن جامعات بأكملها — مثل جامعة أورليان — قامت على أساس الدراسات القانونية[4] .

---

(1) Cam. Med. Hist., vol. 6, p. 573.

(2) Thompson : op. cit., vol. 2, p. 774.

(3) Rashdall : op. cit., vol. 1, p. 322.

(1) Cam Med. Hist., vol. 6, p. 577

الباب السادس

الفلسفة

نظرت المسيحية — عند ظهورها — إلى الفلسفة اليونانية نظرة ملؤها الشك وعدم الثقة ، لأنها اعتبرت هذه الفلسفة مظهراً من مظاهر التفكير الوثنى[1] . وإذا كانت المسيحية اعتقدت أن هذا النوع من التفكير من شأنه أن يعمى بصيرة الإنسان ، فإنها تمسكت بأن المعرفة الحقيقية ينبغى ألا تستمد إلا من الكتاب المقدس وآراء آباء الكنيسة[2] . على أن هذا الموقف العنيد الذى وقفته المسيحية من الفلسفة القديمة كان لا يمكن أن يدوم ويستمر ، بعد أن وجدت الكنيسة نفسها فى حاجة إلى دعائم فلسفية تدافع بها عن كيانها ضد خصومها العديدين . وهكذا أخذ المدافعون عن كيان المسيحية فى القرن الثانى — مثل جستين الشهيد Justin Martyr وتاتيان Tatian وآثينا جوراس Athenagoras يحبذون الإعتماد على آراء أفلاطون — بصفة خاصة — لإثبات آراء الكنيسة المتعلقة بوجود الله[3] .

ولم تلبث أن ظهرت أولى المحاولات لإيجاد فلسفة مسيحية منظمة فى الإسكندرية فى القرن الثالث ، على أيدى كليمنت (١٥٠ — ٢١٥) وأوريجن (١٨٥ — ٢٥٤) ، اللذين حاولا إثبات تعاليم المسيحية ونشر هذه التعاليم عن طريق الحوار والجدل ، معتمدين فى طريقتهم هذه على أسس مستقاة من الفلسفة الأفلاطونية . ونخص بالذكر أوريجن origen — أشهر آباء الكنيسة اليونانيين ، الذى قار بت

---

(1) Cam. Med. Hist.; vol. 5; p. p. 781-782.
(2) Eyre : op. cit.; p. 803.
(3) Gilson : La Philosophie au Moyen Age; p. p. 16-32.

آراؤه الفلسفية آراء فلاسفة الأفلاطونية الحديثة ، حتى قال عنه فرفريوس الصورى Prophyry (٢٣٢ — ٣٠٤) إنه مسيحى فى أسلوب حياته ولكنه يونانى فى تفكيره[١] . ذلك أن أوريجن عاش فى الإسكندرية فى وقت كانت هذه المدينة مركزاً للعلم والعلماء الذين يعملون على التوفيق بين مختلف المذاهب التى اجتمعت فى صعيد واحد[٢] . ونعنى بهذه المذاهب الفلسفة اليونانية والمانوية والفيثاغورية الجديدة والمسيحية ، فضلا عن عقائد قدماء المصريين والمذاهب الشرقية الواردة من الهند وفارس . وعلى الرغم من الإعتراف بأوريجن أباً من آباء الكنيسة ، إلا أن تشبعه بالفلسفة اليونانية أدى إلى اتهامه بالهرطقة التى أدانه بها مجمع القسطنطينية فى القرن السادس . على أن تيار الأفلاطونية استمر فى تدفقه وتأثيره على الفكر المسيحى فى القرن الرابع ، ولم يلبث هذا التيار أن انتقل إلى الغرب عن طريق جريجورى أسقف نيسا Grogory of Nyssa (ت ٤٠٠ تقريباً) فالقديس أمبروز أسقف ميلان (ت ٣٩٧)[٣] .

ديونيسيوس الأريوباغى :

ثم كان أن أسهم الشرق — عند نهاية القرن الخامس — بخطوة أخرى هامة لتطعيم الفكر المسيحى بآراء الأفلاطونية الحديثة ، وذلك عن طريق كتابات ديونيسيوس الأريوباغى Dionysius the Areopagite[٤] . حقيقة إن هذه الكتابات لم تكن إلا صورة مقنعة لفلسفة أبروقلوس (برقليس Proclus) الإلهية ، ولكن صدورها عن رجل له مكانته فى العالم المسيحى — مثل ديونيسيوس الأريوباغى — جعل المعاصرين يتقبلونها فى شىء من السهولة على أنها لا تتعارض

---

(1) Eyre : op. cit.; p. 804.
(2) Taylor : op cit.; vol. 1; p. 51.
(3) Foligno : Latin Thought during the Middle Ages; p. 42.
(٤) المقصود بالأريوباغى أنه كان قاضيا بمحكمة أثينا العليا .

مع أصول الدين(١) . والفكرة الأساسية فى هذه الكتابات هى أن عالم المخلوقات — من الملائكة فنازلا — يمثل سلماً منتظماً ، تعبر كل درجة من درجاته عن إحدى خصائص الله وصفاته ، وهى الأصل الروحى لهذا العالم . ومن هنا وجدت نظريتان فى اللاهوت الأولى إيجابية ثبوتية والثانية سلبية(٢) . فاللاهوت الإيجابى حاول أن يفهم طبيعة الله فى ضوء الإستدلال بالأمثلة المستقاة من المخلوقات ، بمعنى أن صفات الكمال الموجودة فى المخلوقات مستمدة من أصول تتمثل بصورة أعظم فى الله تعالى . أما اللاهوت السلبى فيبدأ من الله الخالق ، ويقول إن كل الصفات التى تختص بها المخلوقات تمتاز بالبعد عن الكمال ، وعلى ذلك لا يمكن الوقوف على حقيقة الله إلا بإبعاد كل صفات المخلوقات عنه(٣) . ومن لاهوت ديونيسيوس الإيجابى استمدت الكنيسة فى العصور الوسطى نظرية درجات الملائكة التسع ، لأنه أول من أفرد للملائكة كتاباً خاصاً جمع فيه أسماء طوائفهم الواردة فى الكتب المقدسة ورتبها فى درجات أو مراتب . وتقوم نظرته إلى الملائكة على أنهم يمتازون بالعقل والبساطة وعدم المادية ، أى عدم وجود خصائص مادية لهم . أما منهجه فى اللاهوت السلبى فقد أدى إلى ظهور اللاهوت الصوفى La theologie mystique الذى كان له أثر بالغ على الفكر الغربى فى العصور الوسطى(٤) . ومعنى اللاهوت الصوفى العلم بالله و بالأمور الإلهية علماً ذوقياً أى تجريبياً شعوريا ممنوحاً من الله(٥) .

---

(1) Gilson : op. cit ; p. 80

(2) Idem; p. 81.

(3) Eyre ; op. cit.; pp. 805-806,

(4) Gilson ; op. cit; p. 81.

(٥) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوروبية فى العصر الوسيط ص ٥٥ .

القديس أوغسطين :

على أن الشريان الرئيسى الذى وصلت عن طريقه فلسفة أفلاطون إلى الغرب المسيحى فى العصور الوسطى كان يتمثل فى شخص القديس أوغسطين (٣٥٤ — ٤٣٠)[١] . ذلك أن أوغسطين كان قد تأثر — قبل اعتناقه المسيحية — بالمبادىء الأفلاطونية التى اطلع عليها فى بعض كتابات شيشيرون وأفلوطين ، ومن ثم اتخذ هذه المبادىء نقطة البدء عند ما شرع يفكر فى وضع فلسفة دينية[٢] .

ويعتبر القديس أوغسطين مصدر الفلسفة التى بلغت ذروتها فيما بعد على أيدى ديكارت ، والتى تقوم على أساس الإيمان بوجود الفكر . فأنا أستطيع أن أشك فى كل شىء إلا فى وجودى لأننى أفكر ، وما دمت أفكر فأنا موجود[٣] . فالعقل البشرى إذن حقيقة قائمة لا شك فيها ، ويقوم هذا العقل على أساس ثالوث من المعرفة والإدراك والارادة ، وهى الأركان الثلاثة التى تلقى ضوءاً ساطعا على الحقيقة[٤] . فالمعرفة بما تنطوى عليه من قوة لاستيعاب الماضى والتأمل فيه والإحساس بالمستقبل ، تثير مشكلة الخلود والزمن والعلاقة بين الماضى والحاضر من جهة والخلود والبقاء من جهة أخرى ؛ وهى المشكلة التى شغلت حيزا كبيرا من فلسفة أفلاطون . أما الإدراك فيثير مشكلة أخرى رسمها أفلاطون وهى مشكلة التعلم . فهل الظاهرة العلمية التى ندعوها تعلما حقيقة جديدة ؟ لأنها إذا كانت حقيقه فلا يمكن أن تكون جديدة ، بحكم أنها حقيقة قبل أن يعلمها أى إنسان وستظل حقيقة حتى لو نسيها كل إنسان . وقد قال القديس أوغسطين بأن الحقيقة لها صفة الخلود ، ولذلك فهى توجد وتكمن فى العقل الأسمى الخالد ؛ وعندما أتعلم حقيقة

(1) Brehier : La Philosophie du Moyen Age; p. 15.
(2) Taylor : op. cit vol. 1: p. 55,
(3) Eyre : op. cit.; p. 807,
(4) De Wulf : Hist. de la Philosophie Med,; T. 1, p. 111.

من إنسان فإن ذلك يرجع إلى وجود اتصال مباشر بين إدراكى و بين ذلك العقل الخالد . فالمعلم الحقيقى هو الله[١] ؛ والمسيح — وهو كلمة الله — معلم جميع العلوم والفنون Magister ad omnia ؛ ومعرفة العلوم الطبيعية لاتقل عن معرفة حقائق الدين فى أنها تنير عقل الفرد .

أما الأهمية العظمى لآراء القديس أوغسطين عن الإرادة فأمر معروف . فالمذهب الإرادى Voluntarism فى الفلسفة المسيحية ، وعلاج مشكلة الشر ترجعان جميعهما إلى القديس أوغسطين . وقد قام مبدأ أوغسطين على أساس حرية الإرادة الإنسانية liberum arbitrium وعلى أساس تمسك المسيحية بقدرة الإله العليم ومحاولة التوفيق بين الله تعالى وقدرته المطلقة من ناحية و بين الشر القائم فى العالم من ناحية أخرى[٢] . وهنا حل أوغسطين هذه المشكلة عن طريق التفرقة بين « الطبيعة » التى زود بها الله الفرد ، و إرادة هذا الفرد . فطبيعة المخلوقات كلهم — حتى الشيطان — طيبة وخيرة ، ولكن إرادتهم فقط هى التى يمكن أن تكون شريرة . و إذا كان الإنسان قد خلق مزوداً بالقدرة على اختيار الشر فإن ذلك ليس فى ذاته شراً ، لأن الإنسان الذى لا يستطيع عمل الشر مختارا و بمحض إرادته لا يمكنه فى الوقت نفسه أن يعمل الخير مختاراً و بمحض إرادته[٣] . ثم إن الإنسان نفسه هو الذى يختار أن يفعل الشر متعمداً ، وليس الخالق هو الذى يدفعه إلى هذا الإختيار . وعلى ذلك فإن جميع الشرور إما أن تأتى عن اختيار آثم(malum culpae) أواضطرار آثم(malum-poenae) ؛ وهذا الاضطرار لا يأتى أبدا إلا نتيجة للإثم . وهكذا وضع أوغسطين أساس مذهب القضاء والقدر Predestinationism الذى ظهر فى اللاهوت الغربى بعد ذلك ، ومذهب حرية الإرادة الذى ظهر فى الفلسفة الخلقية فى العصور التالية[٤] .

---

(1) Gilson : op. cit.; pp. 131-133.
(2) Eyre : op. cit.; p. 809.
(3) De Wulf : op. cit; T. 1; p. 113.
(4) Eyre : op. cit ; p. 809.

وخلاصة القول أن القديس أوغسطين فاق غيره من آباء الكنيسة الغربيين فى تأثره بالروح الفلسفية للأفلاطونيين ، كما فاقهم فى تأثيره فى العقلية الأوربية بقية العصور الوسطى ، حتى فى الوقت الذى بلغ نفوذ فلسفة أرسطو أشده[١] .

بيوثيوس :

ثم كان أن ظهر فى القرن السادس أحد كبار فلاسفة العصور الوسطى ، وهو بيوثيوس Boethins (٤٧٥ — ٥٢٤) الذى كان رومانيا انحدر من أسرة شريفة كما امتاز بسعة الاطلاع ، مما أكسبه مكانة رفيعة أوصلته إلى منصب الوزارة لثيودريك ملك القوط الشرقيين فى إيطاليا . على أن ثيودريك لم يلبث أن اتهمه بالخيانة فغدر به وأعدمه فى قسوة بالغة ، وعندئذ اعتبر بيوثيوس شهيدا لأن قاتله ثيودريك كان أريوسى العقيده[٢] . وقد ألف بيوثيوس قبل إعدامه — وهو سجين فى بافيا — رسالة فريدة ؛ أسلوبها مزيج من النثر والشعر أسماها « سلوى الفلسفة » ، أصبحت من أشهر الكتب فى العصور الوسطى[٣] . ذلك أن شهرة هذا الكتاب غلبت على بقية مؤلفات بيوثيوس ، لا سيما الرسائل التى كتبها فى اللاهوت والتى لخص فيها مبادىء الثالوث المقدس وتجسد الاقنوم الثانى[٤] .

وتتفق مبادىء بيوثيوس مع الخطوط العريضة لعلم الأخلاق الأفلاطونى واللاهوت الطبيعى . ذلك أنه استلهم العزاء من الفلسفة التى توجه إليه اللوم بسبب قبوله الوظائف التى تولاها والتى تذكره بأن المصائب التى أخذت تترى عليه لا يمكن أن تصرفه عن الثقة بالله والإرتباط به . و بعد ذلك يثبت بأمثلة مستمدة من فلسفة أفلاطون ، أن الله أسمى قوة فى الكون ، وأنه الخير المحض ، وأن عنايته الإلهية

---

(1) Harris : The Legacy of the Middle Ages; p. 228.
(2) Foligno : Latin Thought; p.50
(3) Cam. Med. Hist.; vol 3, p. 485.
(4) Brehier : op. cit ; pp. 10-11,

لا تسمح بأن يحل الأذى بالشخص التقى المستقيم ، وأن الألم المؤقت إنما هو ابتلاء للأخيار وعقاب للأشرار(١) .

هذا، وقد أحرز كتاب بيوثيوس مكانته العظيمة نتيجة لاختصاره و بساطته فى غرض المبادىء الأفلاطونية ، بالإضافة إلى طلاوة أسلوبه وسحر بيانه . ومع ذلك فإنه لا يمكن القول بأن بيوثيوس صاحب مذهب محدود فى الفلسفة، وإنما جمع كثيرا من الآراء الفلسفية فى كتابه السابق ، فضلا عن ترجمة بعض مؤلفات فلاسفة اليونان إلى اللاتينية(٢) .

الفلسفة المدرسية : Scholasticism

أخذ النشاط يعود إلى الحياة الفكرية فى أوربا عقب الفترة المظلمة التى بدأت بغزوات البرابرة وانتهت بتتويج شارلمان إمبراطورا سنة ٨٠٠ . و يطلق اسم التفكير المدرسى على الحياة الفكرية التى سادت أوربا منذ ذلك الوقت حتى ظهور العلوم الطبيعية الحديثة حوالى القرن السادس عشر ؛ بمعنى أن النظريات المتداولة طوال هذه القرون الثمانية كانت عبارة عن الفلسفة التى تلقن فى « مدارس » التعليم العالى(٣) . ومن أولى هذه المدارس مدرسة القصر التى أولاها شارلمان كثيرا من رعايته ، هذا و إن كانت المدارس الديرية والأسقفية — التى سبقت الإشارة إليها — أهم أثراً وأوسع نفوذاً . فالمدرسية لا تعنى سوى مجموعة من النظريات المختلفة والآراء المتضاربة التى سادت الحياة الفكرية فى أوربا بين سنتى ٨٠٠، ١٦٠٠ تقريباً(٤) . أما العامل المشترك بين هذه النظريات فلا يبدو فى موضوعها بقدر ما يبدو فى الإتجاه الفكرى الذى يحدد قالب المشكلة الفلسفية .

(1) Gilson : op. cit.; pp. 145-146.

(2) Foligno : Latin Thought; pp. 50-51 & Cam. Med. Hist.; vol. 3, p. 485.

(3) Eyre : op. cit.; pp. 810-811.

(4) Taylor : The Med. Mind; vol. I; pp. 313-317.

والمعروف أن مفكرى العصور الوسطى اعتبروا واجبهم الأول إحياء النظرة التركيبية (synthetic vision) التى نظر بها القدماء إلى العالم على أنه وحدة منظمة متجانسة . و بصرف النظر عن الترجمة اللاتينية لبعض رسائل أرسطو فى المنطق ، فإن الفضل فى إحياء النظرة السابقة يرجع إلى مؤلفات أوغسطين و بيوثيوس ، والترجمة اللاتينية لمؤلف أفلاطون « طيماوس Timaeus »[١] . ثم كان أن غلب نفوذ الأفلاطونية الحديثة على النظرة العامة التى حاول مفكرو العصور الوسطى إلقاءها على الكون . ولم يكن ذلك إلا فى القرن الثانى عشر عندما إزداد سلطان أرسطو على الفكر الغربى، حتى حل أخيرا محل أفلاطون فى القرن الثالث عشر[٢] . و بالإضافة إلى ذلك فإن العصور الوسطى تقبلت النظريات المسيحية والتعاليم اللاهوتية لا سيا فيا يتعلق بالله والعلاقه بينه و بين المخلوقات . وهكذا وجد مفكرو العصور الوسطى أنفسهم أمام موقف جديد ، هو نفوذ الفلسفة الأرسطية إلى عالم الفكر إلى جانب تعاليم المسيحية ، الأمر الذى استدعى التوفيق بين الجانبين ؛ نظرا لما هناك من تعارض واضح بين قول أرسطو بقدم العالم وقول المسيحية بالخلق[٣] . وقد اكسبت هذه التيارات المتباينة التفكير المدرسى خصائصه الواضحة . فالفلسفة المدرسية مهما اختلفت ميادينها كانت كلها ميتافيزيقية حاولت أن تحل المسائل المنطقية والأخلاقية والنفسية على أسس من الحقائق الثابتة. كذلك امتازت الفلسفة المدرسية بأنها عقلية ، تبدأ دائماً بالبحث عن المبادىء أو الأسس ، فإذا تم العثور على هذه المبادىء أمكن تحقيق التوافق والترابط المنطقى[٤] .

يوحنا سكوت اريجينا :

ومن أبرز المفكرين المدرسيين فى القرن التاسع يوحنا سكوت إريجينا

---

(1) Gilson : op. cit.; p. 117.
(2) De Wulf : op. cit.; T. 1.; pp. 26-27.
(3) Harris : The Legacy; pp. 228-229.
(4) Eyre ; op. cit. 811-812.

Johannes Scotus Eriugena (ت ٨٧٧) ، الذى كان من مواليد أيرلند ، ثم تلقى تعليمه بمدرسة القصر على عهد شارل الأصلع(١) . ويحتل حناسكوت مكانة فريدة فى الفكر الغربى فى العصور الوسطى بوصفه آخر آباء الكنيسة من ناحية وأول المدرسيين من ناحية أخرى(٢) . ومع أنه كان مسيحيا فى عقيدته ، إلا أنه ظل من الناحية العملية يتبع مذهب الأفلاطونية الحديثة ، مما جعل المجامع الدينية المعاصرة سنة ٨٥٥ ، وسنة ٨٥٩ تأمر بإحراق كتاباته(٣) . أما فلسفته فتقوم فى جوهرها على أساس التوفيق بين الدين والفلسفة ، لأنه لافارق عنده بينهما؛ ولذلك قال عبارته الشهيرة « الفلسفة الحقة هى الدين الحق ، والدين الحق هو الفلسفة الحقه »(٤) . وقد شرح سكوت فلسفته هذه فى كتابه عن « قسمة الطبيعة de divisone naturae »، أى نظـــام الوجود ؛ وهى دراسة بديعة فى أسلوب الأفلاطونية الحديثة يوضح فيها تدرج الحقيقة من الأقنوم الثانى الخالد إلى أبسط المخلوقات السريعة الزوال(٥) . ذلك أنه قسم الطبيعه — وهى الحقيقة — إلى أربعة أنواع ، قسم يَخلق ولا يُخلق ، وقسم يُخلق ويَخلق ، وقسم يُخلق ولا يَخلق ، وقسم لا يُخلق ولا يَخلق . ويبدو أن آراء أريجينا وفلسفته كانت أعمق من أن تستوعبها عقلية المعاصرين فى القرن التاسع، فاعتبرت ضربا من الهرطقة وأعدمت(٦) . على أنه من الثابت أن سكوت لم يرم إلى اتجاهات هرطقية فى اللاهوت كما أنه لم يكن مستترا فى تفكيره الحر . هذا إلى أن حطه من قيمة سلطة الكنيسة بالنسبة للعقل كمصدر للمعرفة ، أمر لا يتعلق إلا بسلطة آباء الكنيسة فى تفسير الوحى ، ولم يستهدف بأى حال الحط من شأن الوحى نفسه الذى سلم به سكوت تسليما

(1) Cam. Med. Hist.; vol. 3, p. 524.

(2) Harris : The Legacy of the Middle Ages; p.229.

(3) Taylor : The Med. Mind.; vol. 1; pp. 229-230.

(٤) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط ، ص ٧٣ .

(5) Brehier : *La Philosophie au Moyen Age*; p. p. 51-52.

(6) Harris : The Legacy of the Middle Ages, p. p. 230-234.

تاماً[١] . ولـكن من الواضح أن هذا التفـكير يتعارض فى اتجاهه مع المسيحية فى عدة نواح بطريقة لا شعورية ، لأن تعظيمه للاهوت السلبى على حساب الإيجابى من شأنه أن يؤدى إلى اللاأدرية المطلقة نفسها التى انتهت إليها الأفلاطونية الحديثة[٢] . هذا إلى أن عدم اعترافه بأن الشر مهما كان نوعه ليست له حقيقة واقعة يتناقض تماما مع ما اتصفت به المسيحية من غيرة خلقية . وهكذا نجد فلسفة يوحنا سكوت — إذا أنعمنا النظر فيها — تنتهى الى الربط بين المذهب الطبيعى العملى واللاأدريه الميتافيزيقيه المطلقه. ولعل أهمية هذه الفلسفةمن الناحية التاريخية هى أنها توضح كيف ظلت نظرة الأفلاطونية الحديثة إلى العالم تتحور تحوراً عميقاً فى التفـكير الفلسفى المسيحى ؛ الأمر الذى جعل يوحنا سكوت مؤسس الفلسفة المدرسية ، كما يعتبر — بحق — أبا للمذهب العقلى[٣] .

مشكلة الـكليات :

وقد شهد القرن التاسع بداية نقاش فلسفى طويل نشأ من عبارة وردت فى مدخل فرفريوس (**Prophyry**) إلى مقولات أرسطو عن طبيعة الـكليات[٤] . وكان محور هذه المشكلة هو : هل أسماء الأنواع مثل إنسان وحصان مجرد ألفاظ لا وجود لها بالفعل ، أو أنها تعبر عن أنواع موجودة فعلا ؟ و إذا كان لها وجود فعلى ، فهل هذه الأنواع توجد فعلا فى أفرادها (هذا الإنسان وهذا الحصان) أو أن لها وجوداً منفصلا قائماً بذاته[٥] ؟ و بعبارة أخرى عندما نتحدث عن الإنسانية فهل نعنى شيئاً معيناً بالذات واحداً ومشتركا بين جميع المخلوقات البشرية ؛ أو أنه مجرد لفظ عام مطلق لا يعنى شيئاً مفردا محدداً ؟[٦] .

---

(1) Cam Med. Hist.; vol. 5; pp. 786-787.
(2) Gilson : op. cit ; p. p. 205-206
(3) De Wulf : op. cit.; T. 1. p p. 129-131.
(4) Rashdall : op. cit.; vol. 1; p 40.
(5) Eyre : op cit.; p 813
(6) Harris : The Legacy of the Middle Ages; p. 234.

وقد مهدت هذه المشكلة فيما بعد إلى انقسام فى الرأى بين الفلاسفة ، فقال الإسميون أن أسماء الأنواع ليست إلا مجرد أصوات (merae voces) أو أسماء مجردة لا تعنى حقائق معينة ترتبط بها ، فى حين قال الحقيقيون أن هذه الأسماء تعنى حقائق معينة قائمة فعلا[1] . وكانت الغلبة فى القرن التاسع للرأى الأخير « الحقيقى » ، فقال أصحاب هذا الرأى أن الأنواع والأجناس التى نقسم إليها محتويات الكون فى أذهاننا ليست تقسيمات من صنع العقل البشرى ، وإنما الله هو الذى وضع هذه التقسيمات وفق طبيعة الأشياء ؛ وعلى ذلك فهى تدل على حقائق ثابتة تكمن خلف كل منها[2] .

القرن العاشر — البابا سلفستر الثانى :

اتصف القرن العاشر بضعف الحياة الفكرية نتيجة لاضطراب أحوال أوربا السياسية . وكان من أبرز مفكرى هذا القرن البابا سلفستر الثانى (٩٩٩—١٠٠٣) الذى أسماه بعض المعاصرين « البابا الفيلسوف »[3] . والواقع أنه لم يكن فيلسوفا كبيرا ، ولم يعلن رأيه بصراحة فى أهم مشاكل العصر الفلسفية وهى مشكلة الكليات ؛ ولكنه مع ذلك كان رجلا مستنيرا مجدداً . وخير مايدل على انحطاط المستوى الفكرى فى ذلك العصر هو أن معرفة ذلك البابا بعلوم المجموعة الرباعية من الفنون الحرة (وهى الحساب والهندسة والموسيقى والفلك) أدت إلى إتهامه بالسحر والشعوذة[4] .

القرن الحادى عشر .

أما القرن الحادى عشر . فكان عصر نشاط فكرى كبير توجه أحد كبار

(1) De Wulf; op. cit ; T. 1; p. p. 93-94.
(2) Idem; p 99.
(3) Cam. Med. Hist.; vol. 3; p 536.
(4) Taylor : op. cit. vol. 1; p. p. 283-286.

فلاسفة العصور الوسطى -- وهو القديس أنسلم[١] . و إلى هذا العصر ترجع نشأة الرغبة فى الجدل المنطقى ، الصورى العديم الجدوى ؛ الذى ينسب إلى المدرسيين بوجه عام .

وأول مثل لدينا للمهتمين بهذا النوع من الجدل الصورى هو برنجاريوس التورى (ت ١٠٠٨) Berengarius of Tours الذى اهتم بمعالجة الدين بالجدل؛ فأنكر مبدأ التجسد والاستحالة على أساس أن العرض لا يمكن أن يقوم فى غياب الذات[٢] . فإذا كان العرض ملازما للذات فإنه فيما يتعلق بالقربان الأقدس ظلت ذات الخبز باقية تنضاف إليها صورة جسد السيد المسيح ؛ ومثل ذلك يقال فى الخمر بالإضافة إلى دم المسيح ، لأن ذات الخبز والخمر تبقيان بعد التكريس[٣] . ومن الطبيعى أن مثل هذه الآراء لا بد أن يكون لها رد فعل قوى عند رجال اللاهوت الذين ردوا عليها بأن الأعراض قد تبقى مفارقة للذات بالقدرة الإلهية . كذلك رد القديس بطرس داميان St. Peter Damian (١٠٠٧ — ١٠٧٢) مطالبا بعدم تطبيق أساليب العلم البشرى ومناهجه على الكتاب المقدس وما يشمله من آراء دينية[٤] .

المذهب الإسمى — روسلينوس :

احتل المذهب الإسمى فى المنطق مكانة بارزة فى التفكير الفلسفى فى القرن الحادى عشر ؛ وكان أبرز المفكرين الذين ناصروا هذا المذهب حينئذ روسلينوس Roscellinus (١٠٥٠ — ١١٢٠) الذى يحتل مكانة هامة عند بداية هذا الدور الكبير من أدوار الفلسفة المدرسية ، فضلا عن أنه حدد نقطة البدء لما يمكن أن

(1) Cam. Med. Hist.; vol 5.; p. 793.
(2) Eyre : op. cit.; p. 814.
(3) Gilsou : op. cit.; p. 234.
(4) Eyre : op. cit.; p. 815.

نسميه « اللاهوت المدرسى »[١] .

ويبنى الاسميون رأيهم على أساس مبدأ أرسطو الخاص بأن الحقيقة الكاملة تتمثل فى الجزئيات ، وأن الكليات ليست إلا ألفاظا وكلمات لا تعنى شيئا . فلا يمكن أن نتصور إنسانية دون أن نعنى إنسانا معينا ولا بياضا دون أن نعنى شيئا أبيض ، ولا حكمة دون أن نعنى نفسا معينة حكيمة[٢] . وهنا جاء روسلينوس ليطبق هذا المبدأ الإسمى على اللاهوت فى تفسير عقيدة الثالوث المقدس ، فقال : كما أن الأفراد — وهى الجزئيات — موجودة فى أنواع المخلوقات (الأنواع هى الكليات) ؛ فإن الأقانيم هى الموجودة فى الله . فالله فيه من الجواهر بقدر ما فيه من الأقانيم « بحيث نستطيع القول بثلاثة آلهة لو أن العرف يسمح بذلك »[٣] .

ولذلك اتهم مجمع سواسون الدينى روسلينوس بالهرطقة سنة ١٠٩٣ وأدانه بتهمة القول بثلاثة آلهة Tritheism .

القديس انسلم :

أما القديس أنسلم فكان أبرز شخصية بين مفكرى القرن الحادى عشر . ذلك أن مذهبه قام على أساس من الجمع بين العقل والإيمان (la raison et la foi) أو تعقل الإيمان . ويبدو أن أنسلم رأى أن يحارب الآراء الهرطقية بنفس أسلحتها، فعمل على استغلال الفلسفة لشرح عقائد المسيحية ، والربط بين مختلف أطراف تراث الكنيسة الغربية[٤] .

والواقع أنه بنى فلسفته على أساس التراث الفكرى للقديس أوغسطين وأفلاطون؛ بل إنه أعلن فى مقدمة كتابه « مناجاة النفس » أنه تلميذ أوغسطين وأنه يسير

(1) Rashdall : op. cit ; vol. 1.; p. 41.
(2) De Wulf; op. cit.; Tome 1; p. p. 103-104.
(3) Brehier : op. cit.; p. 131.
(4) Harris : The Legacy, p. 235.

وفق آرائه . وكان يرى أن الخطوة الأولى التي على المفكر المسيحي أن يخطوها هي الإيمان ، لأن الإيمان شرط التعقل ، وعلى ذلك لا ينبغي أن يخضع الإيمان للعقل ؛ وإنما العقل هو الذي يجب أن يخضع للايمان Credo ut intelligam[(١)].

على أن أهم ما أسهم به أنسلم في بناء المدرسية الأوغسطينية هي الأدلة التي ساقها على وجود الله[(٢)] . حقيقة إن هذه الأدلة التي أتى بها أنسلم هي أدلة القديس أوغسطين نفسها ، ولكن أنسلم صورها في صورة أكثر دقة ، فأقامها على أساس نظرية الأفلاطونية الحديثة التي تقول بأن الوجود عبارة عن سلم مسلسل منتظم ؛ وكل ما تمثل من كمال في درجة من درجات هذا السلم فهو مستمد من مشاركته في مطلق ذلك الكمال[(٣)] . ثم حاول أنسلم أن يثبت وجود الله بأدلة مأخوذة من نواحي ثلاث ، تتشابه فيها الأشياء ولكن تشابهها يتفاوت مما يؤدي بنا إلى علة أولى . أما هذه النواحي فهي الصفات مثل الجمال والعلم ، ثم الماهية التي تتفاوت فيها الأشياء أيضا فالنبات أرقى من الجماد والحيوان أرقى من النبات والإنسان أرقى من الحيوان ؛ وأخيرا الوجود الذي يتبع التفاوت فيه التفاوت في الماهية ، فليس وجود الإنسان كوجود الحيوان مثلا[(٤)] .

أما نصيب أنسلم الشخصي الذي أسهم به في التفكير الفلسفي دون أن يستمده من غيره ، فهو الدليل الوجودي (ontologique) . ويقوم هذا الدليل على أساس أن إنكار أي شخص لوجود الله ليس إلا إعترافا منه بوجود شيء عظيم في ذهنه يستحق الإنكار[(٥)] . وهذا الشيء العظيم الذي لا يمكن تصور أعظم منه في العقل ، لا بد أن يكون موجودا في الواقع لأن ما لا يتصور أعظم

(1) Gilson: op. cit.; p. 241.
(2) Behier: op. cit.; p. 122
(3) Gilson : op. cit ; p. 243
(4) Eyre : op. cit.; p. 816,
(5) De Wulf : Tome I; p. p. 115 - 117.

منه لا يمكن أن يوجد فى العقل فقط ، لأنه فى هذه الحالة يصبح فى الإستطاعة تصور موجودا مثله متحققا فى الواقع ومن ثم يكون أعظم منه . وعلى ذلك فإن الإنسان يناقض نفسه إذا قال بأن الله تعالى — وهو كائن لا يمكن تصور أعظم منه — غير موجود ؛ و بعبارة أخرى فإن الله لا بد أن يكون موجوداً فعلاً[١] .

وقد أعترض أحد المعاصرين — وهو جونيلو gaunilon — الراهب بدير مارموتية Marmoutiers على رأى أنسلم ، فقال بأن الله تعالى ليس موضوع إدراك مباشر ، وهو يختلف عن الموجودات التى نقصد بها أشياء معينة نراها أو نتصور صورتها . وعلى ذلك لا يجوز أن نتخذ تعريف اسم الله مقدمة للتدليل على وجوده[٢] . ولكن أنسلم رد على هذا المعترض قائلا « أرجع إلى إيمانك وعندئذ تدرك أنك تعقل الله على أنه الموجود الذى لا يتصور أعظم منه» .وهكذا نعود فنقول إن الإيمان هو أساس التعقل فى فلسفة أنسلم[٣] .

الفرع الثانى عشر : مدرسة شارتر

أما القرن الثانى عشر فقد شهد فى غرب أوربا نشاطا فكرياً غزيراً ، يرجع الفضل فى جزء كبير منه إلى مدرسة شارتر بفرنسا . وقد ظهر طابع الفلسفة الأفلاطونية فى هذه المدرسة فى مؤلفات تييرى رئيس مدرسة شارتر (ت ١١٥٤) الذى شرح سفر التكوين فى ضوء المعانى الأفلاطونية التى وردت فى محاورة طيماوس[٤] .

على أن بطرس أبيلار Pierre Abelard (١٠٧٩ — ١١٤٢) كان بدون شك أشهر رجال الجدل فى القرن الثانى عشر وألمع معلمى عصره ، بحيث أنه

---

(1) Taylor : op. cit,; vol. 1 ; p. 279.

(2) Ibid.

(3) Brehier : op. cit.; p. p. 124 - 125.

(4) Gilson : op cit.; p. p. 268 - 272.

ترك — عن طريق تلاميذه — أثراً عميقاً فى الدراسات الفلسفية واللاهوتية بقية العصور الوسطى ، فضلا عن أن تطور اللاهوت المدرسى بلغ ذروته على يديه[١].
والواقع أنه لم يكن — كما دعاه البعض — أبا للفلسفة المدرسية ، إذ ربما كان القديس أنسلم — إن لم يكن يوحنا سكوت اريجينا — أحق بهذا اللقب ؛ ولكن كتابه « نعم ولا Sic et Non » يعتبر نموذجا احتذاه من خلفة من اللاهوتيين والفلاسفة ، فاستخدموا الجدل فى دحض آراء المعارضين[٢] . ويعرض أبيلار فى هذا الكتاب نحوا من مائة وخمسين مسألة لاهوتية ، يبحثها بطريقة جدلية أكثر منها موضوعية ، معتمدا فى هذا البحث على أدلة فلسفية ، ولكن دون أن يجرؤ على أن يقطع فيها برأى حاسم[٣] . أما مسألة الكليات فقد اتخذ فيها رأيا وسطا عندما قال ان الألفاظ كلية لأننا نقصد بها دلالة كلية؛ ولكن للأنواع والأجناس مقابلا فى الخارج وهذا المقابل هو « طبيعة الجزئى » مجردة من الأعراض ، مع تشابه الطبيعة فى الجزئيات الحاصلة عليها . فالأنواع والأجناس ذاتية فى الجزئيات مجردة فى العقل[٤] . وفيما عدا ذلك ، فإن أهم ما أسهم به أبيلار جاء فى ميدان الأخلاق ، إذ وضع كتاب « اعرف نفسك » الغرض منه كشف الأخلاق المسيحية بالعقل عن طريق حوار بين فيلسوف ومسيحى . و بفضل هذا الكتاب اعتبر أبيلار مؤسس علم الأخلاق فى العصور الوسطى[٥] .

أما حنا سالسبورى (١١١٠ — ١١٨٠) فكانت فلسفته عملية معتدلة، تقوم على أساس فلسفة شيشيرون . وقد أخذ حنا سالسبورى عن شيشيرون الشك المعتدل القائم على التمييز بين ما يعلم ومالا يعلم[٦] . ومن مؤلفاته كتاب « مذاهب الفلاسفة »

(1) Rashdall : op. cit.; vol. 1; p. 43.
(2) Cam. Med. Hist. ; vol 5; p. 799.
(3) Harris : The Legacy; p. 236.
(٤) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط ص ١٠٥ .
(5) De Wulf : op. cit.; T. 1; p. 155.
(6) Cam. Med. Hist.; vol. 5; p. p. 806 - 807.

الذى يصور المدارس الفلسفية فى عصره بعد أن يعرض لتاريخ الفلسفة عند اليونان والرومان ؛ وكتاب آخر فى المنطق ، وثالث فى السياسة ونظم الحكم (Policraticus)[١] .

وإلى جانب القسط الكبير الذى أسهم به الفلاسفة السابقون وغيرهم فى علاج المسائل اللاهوتية ، وجد جماعة أخرى من المفكرين غلب عليهم الطابع اللاهوتى فى تفكيرهم ، حتى أننا نعتبرهم لاهوتيين أكثر منهم فلاسفة . والواقع أن العلاقة بين الفلسفة واللاهوت بدت فى ذلك العصر أشد ما تكون وضوحا ، بعد أن أصبحت مدارس اللاهوت لا تتأثر بالمشاكل الفلسفية فحسب ، بل أيضا بأساليب الفلسفة وطريقتها فى التفكير[٢] . وعلى رأس هؤلاء اللاهوتيين كان القديس برنارد (١٠٩١ — ١١٥٣) الذى أعلن أن الفلسفة الوحيدة التى يصح أن يشتغل بها المفكر المسيحى هى « معرفة المسيح المصلوب » . على أن القديس برنارد لم يتطرف فى مهاجمة الفلاسفة والجدليين ، كما فعل غيره من رجال الدين المتزمتين ، وإنما كان معتدلا فى موقفه منهم ، وبذلك ترك أثراً عميقا فى التصوف النظرى[٣] .

أما هيو — أستاذ دير سانت فكتور (١٠٩٦ — ١١٤١) — فكان أقوى منه أثراً فى فلسفة التصوف . وقد أقام هيو فلسفته فى التصوف على أساس نظرية المعرفة ، فقسم المعرفة الإنسانية إلى ثلاث درجات ؛ الدرجة الأولى معرفة العالم المحسوس بالحس والخيال والتجريد ويسميها عين الجسم (oculus carnis) ، والدرجة الثانية معرفة النفس لذاتها ويسميها عين العقل oculus rationis ، والدرجة الثالثة معرفة الله ويسميها عين المشاهدة (oculus contemplationis)[٤] .

---

(1) Gilson : op. cit.; p. p. 274 - 277.

(2) Rashdall : op. cit.; vol. 1; p. 44.

(3) Eyre : op. cit.; p. 819.

(4) Brehier : op. cit.; p. 189

القرن الثالث عشر — ازدهار الفلسفة المدرسية :

يعتبر القرن الثالث عشر العصر الذهبي للفلسفة المدرسية والدراسات اللاهوتية جميعاً فى العصور الوسطى . ذلك أنه ظهرت حقائق أدت إلى تغيير وجه الحياة العلمية فى القرن الثالث عشر ، أهمها إحياء فلسفة أرسطو الطبيعية والميتافيزيقية ، وقيام الجامعات الأوربية وبخاصة جامعة باريس ، ثم اتصال الفلسفة الغربية بالفلسفة الشرقية (الإسلامية واليونانية والاسرائيلية[١]) .

أما إحياء تراث أرسطو الفلسفى . فيلاحظ أن العالم المسيحى الغربى لم يعرف فى الشطر الأول من العصور الوسطى شيئاً من أبحاث أرسطو عدا منطقه الصورى . ولعل عدم الإهتمام بالطبيعة ، الذى بدا واضحاً من المفكرين الغربيين مثل القديس أنسلم ، ليس مرجعه استغراقهم فى اللاهوت فحسب ، بل جهل هؤلاء المفكرين بالدراسات القديمة التى توضح لهم أهمية الميدان الطبيعى المحسوس كحقل خصب للتفكير والإستقصاء[٢] . على أنه فى الوقت الذى كان نصيب الدراسات الأرسطية فى غرب أوربا الاهمال والنسيان ، إذا بهذه الدراسات تحظى بتشجيع مفكرى المسلمين وعنايتهم ، وهم الذين توصلوا إلى مؤلفات أرسطو عن طريق ترجمتها عن السريانية[٣] . وهكذا ظهرت دراسات أرسطية إسلامية ، يشوبها كثير من عناصر الأفلاطونية الحديثة ، وتزعم هذه الدراسات عدد كبير من فلاسفة المسلمين مثل ابن سينا (٩٨٠ — ١٠٣٧) فى المشرق وابن رشد (١١٢٦ — ١١٩٣) فى الأندلس ؛ كما أسهم فى هذه الحركة بعض اليهود مثل موسى بن ميمون (١١٣٥ — ١٢٠٤)[٤] . وسرعان ما وقفت أوربا على

---

(1) De Wulf : op. cit, T. 1; p. 221.

(2) Eyre : op cit ; p. 820.

(3) Cam. Med. Hist ; vol. 5; p. 811.

(4) Taylor : op cit.; vol. 2 ; p. 420.

الدراسات العربية — وبالتالى الأرسطية — نتيجة للإتصالات بين المسلمين والمسيحيين فى عصر الحروب الصليبية ، فاشتدت حركة الترجمة عن العربية إلى اللاتينية ، وعن طريق هذه الحركة — فضلا عن الترجمة عن اليونانية مباشرة — تعرف غرب أوربا على دراسات أرسطو الذى علّم الغرب أن الطبيعة المحسوسة تقدم حقلا أوسع من اللاهوت غير المحسوس[١] .

على أن الأرسطية — كما بدت فى شروح ابن سينا وابن رشد — اتخذت صورة يمكن تسميتها وحدة الطبيعة أو الوجود ، وهى صورة لم تترك سوى مجال ضيق لتعاليم المسيحية الخاصة بوجود الله والخلق والحياة الأخرى والحساب . وهكذا أصبحت المشكلة الكبرى أمام مفكرى القرن الثالث عشر فى غرب أوربا هى هل يجوز تدريس هذه العلوم الفلسفية والآراء الجديدة جنباً إلى جنب مع الدراسات اللاهوتية فى معهد واحد[٢] ؟ ولم تلبث هذه المشكلة أن تبلورت فى جامعة باريس ، تلك الجامعة التى حظيت برعاية البابا انوسنت الثالث لتكون مركزاً عالمياً لتدريب رجال الدين وتعليمهم . وهنا أثار الإشكال السابق عدداً كبيراً من الصعوبات ، فهل يجوز تدريس الميتافيزيقا والعلوم الفلسفية فى الجامعة إطلاقا[٣] ، وإذا جاز ذلك فهل تستقل كلية الآداب بتدريس هذه الدراسات أم يتم ذلك التدريس تحت إشراف رجال اللاهوت ؟ وأخيرا هل يجوز لرجال المنظمات الدينية الكبرى فى القرن الثالث عشر — وهما منظمة الدومينيكان ومنظمة الفرانسسكان — أن يقوموا بالتدريس فى الجامعات[٤] ؟

وهنا نجد — فيما يتعلق بجامعة باريس بالذات — ، أن صبغتها الكنسية

---

(1) Haskins : The Renaissance of the Twelfth Century; p. p. 287 — 293.

(2) Eyre : op.. cit ; p p. 820 - 821.

(3) Cam. Med. Hist; vol, 5; p. p. 817 - 818.

(4) Eyre : op. cit ; pp. 820—821.

الأولى وعلاقتها بالبابوية ، جعلتها تخضع — إلى درجة ما — لـكلمة البابوية التى افزعتها آراء أرسطو والشروح التى وضعها فلاسفة المسلمين لهذه الآراء ، فأصدر مجمع باريس الـكنسى سنة ١٢١٠ قراراً بتحريم كتابات أرسطو وشروحها[1] . وقد تقرر هذا التحريم بعد ذلك عدة مرات ، ولـكنه لم يجد فى منع الأحرار من المفـكرين عن دراسة كتب أرسطو ، فأخذت هذه الـكتب تنتشر فى فرنسا وانجلترا وألمانيا ، فضلا عن أسبانيا ؛ حتى سمح البابا أوربان الخامس سنة ١٣٦٦ بأن يمتحن طلاب ليسانس الآداب فى جميع كتب أرسطو دون استثناء . أما الصراع العنيف بين رجال المنظمات الدينية والأساتذة العلمانيين حول الاستئثار بالتدريس فى الجامعة (جامعة باريس) ، فقد انتهى بانتصار الفريق الأول ، حتى أننا نجد أبرز أساتذة القرن الثالث عشر — مثل بونافنتورا وروجر بيكون والقديس توما ودونس سكوت — ينتمون جميعاً إما إلى جماعة الفرانسسكان أو الدومينيكان[2] .

والواقع ، أنه إذا نظرنا إلى النشاط الفلسفى فى القرن الثالث عشر فإنه يمكننا التمييز بين أربعة تيارات اختلف بعضها عن بعض فى مسالكها تجاه الأرسطية . فهناك أولا أقلية من الرشديين أبرزهم سيجر البرابنتى ، وهم الذين تقبلوا تعاليم أرسطو كما صورها العرب وشرحوها دون تحفظ ؛ وبعد ذلك يأتى فريق الأوغسطينيين الذين تشبعوا بأكبر قدر ممكن من الأرسطية مع التمسك بتعاليم أوغسطين وآرائه ومن ورائها الفلسفة الأفلاطونية ، وأبرز مفكرى هذا الفريق القديس بونافنتورا ؛ ثم يأتى ثالثاً فريق من المفـكرين ظهر فى اكسفورد من الأوغسطينيين الفرانسسكان ، وهؤلاء لم يعطوا الميتافيزيقا قدراً من عنايتهم مثلما أعطوا العلوم الطبيعية التجريبية والرياضيات ، وعلى رأس هذا الفريق يأتى

(1) Rashdall : op. cit.; p. 356.
(2) De Wulf ; op. cit. Tome 1, p. p. 236 - 237.
وأنظر كذلك كتاب (الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى للمؤلف).

روجر بيكون . وأخيراً يأتى فريق الأرسطيين الدومينيكان ، وهم الذين تمسكوا بفلسفة أرسطو الأصلية واتخذوها أساسا لتعاليمهم وهاجموا آراء الشراح والمفسرين الذين شرحوا هذه الفلسفة وفسروها. وأبرز مفكرى هذا الفريق القديس توما الأكوينى[١]. وسنتناول كل فريق من هذه المذاهب الأربعة بكلمة قصيرة :

(ا) أما الرشديون الذين تزعمهم سيجر البرابنتى (١٢٣٥ — ١٢٨٤) فى القرن الثالث عشر، فكانوا يرون فى تعاليم أرسطو — كما شرحها ابن رشد — علما قائما بذاته وفنا مثاليا يجب أن يدرس كما هو ، دون مراعاة لما بينه و بين الدين من خلاف . وهكذا يبدو أن هؤلاء الرشديين اعتمدوا على شروح ابن رشد واعتبروها خير صورة لفلسفة أرسطو ، وبذلك أثاروا حركة عرفت بالرشدية اللاتينية[٢] . وكان سيجر زعيم هذه الطائفة يتصور العلاقة بين الإيمان والعقل تصورا خاصا جديدا ، إذ أنه لم يضعهما فى مستوى واحد حتى يختار بينهما ، ولكنه حول التعارض بين العقل والإيمان إلى تمايز بين نظام طبيعى منسوخ ونظام فائق للطبيعة ناسخ[٣] . ذلك أنه قال ان الإيمان يكشف لنا عن نظام فائق للطبيعة أراده الله لنا وأعلنه علينا، فنحن نتقبله إلى جانب ما يعقله العقل. أما العقل الطبيعى فلا يعلم سوى النظام الطبيعى الذى من الممكن أن يكون حقا لو لم يستبدل به الله النظام الفائق للطبيعة[٤] . ثم يقول انه إذا أعان الوحى أمورا لا تستنبط بالأدلة الطبيعية فليس للفلسفة أن تعرض للمعجزات و إنما للطبيعيات تبحثها بحثا طبيعيا . وهكذا جاءت آراء سيجر خطراً على الجهود التى بذلها المدرسيون للتوفيق بين العقل والدين[٥] .

---

(1) Eyre : op. cit.; p. p 821 - 822.

(2) Brehier : op. cit.; p.336.

(3) Cam. Med. Hist; vol. 5; p. 821.

(4) De Wulf : op. cit'; T. 2; p. p. 95 - 99.

(٥) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط ص ٢٠٩ — ٢١١ .

(ب) وأما الأوغسطينيون فقد تمسكوا بآراء القديس أوغسطين و بفلسفة أفلاطون من خلفها . و يبدو الفارق واضحا بين آراء هذا الفريق وفلسفة الدومينكان فى أربعة نواحى ؛ أولها فى نظرية المعرفة إذ يقول الأوغسطينيون بأن للنفس عقلين : عقل أدنى تتجه به نحو المحسوسات وعقل أعلى تتجه به نحو ذاتها ونحو الله ، وثانيها قول الأوغسطينيين بأن المخلوق يتركب من هيولى وصورة ، وثالثها قولهم بأن المخلوق من صور متعددة بتعدد الكمالات ، ورابعها إصرار الأوغسطينيين على علاقه الروح بالجسد[1] .

وكانت نظرة القديس بونا فنتورا St Bonaventura (١٢٢١ — ١٢٧٤) زعيم الأوغسطينيين إلى الفلسفة تتفق مع نظرة القديس أوغسطين ؛ إذ كان يرى أن الإنسان خلق ليعرف الله و يحبه و يجد سعادته فى هذا الطريق — طريق الله . وهكذا اعتبر مهمة الفلسفة مقتصره على معاونة اللاهوت ، لأن الفلسفة الحقة تدور حول الله ، فى حين يجب أن يتجه اللاهوت إتجاها صوفيا بحتا . وقد صنف بونا فنتورا مؤلفات عديدة فى الفلسفة واللاهوت والتصوف ، تدور موضوعاتها حول شرح آرائه السابقة ، والتى يعتبر أهمها نظريته فى المعرفة ووجود عقلين للنفس[2] .

(ج) وأما فرانسسكان اكسفورد Oxford Franciscans فقد وجهوا اهتمامهم نحو الرياضيات والعلوم الطبيعية ، و بذلك أدوا إلى أوربا خدمة جليله ، إذ ترتب على اتجاههم وجهودهم مولد العلوم الطبيعية الحديثة[3] . وأبرز فلاسفة هذا الفريق هما جروستست Grossetest (١١٧٥ — ١٢٥٣) ثم تلميذه روجر بيكون Roger Bacon (١٢١٠ — ١٢٩٢) . وكان جروستست أستاذا

---

(1) Eyre : op cit.; p. 825.

(2) Gilson : op cit.; p. p 439 - 451.

(3) Eyre : op. cit.; p. 826.

بجامعة اكسفورد ثم مديرا لها ، كما ترجم وشرح وألف كثيرا من الكتب[١] .
أما مذهبه فكان أقرب إلى آراء القديس أوغسطين ، ولكنه في الناحية العلمية اتجه اتجاها تجريبيا فاستخدم الأسلوب الرياضى فى التدليل ، واعتقد أن الرياضيات وحدها تفسر الظواهر الطبيعية . ويبدو أن جروستست أخذ هذا الاتجاه عن العالم العربى الحسن بن الهيثم الذى كان كتابه « المناظر » بمثابة الدستور العلمى لأساتذة اكسفورد[٢] .

أما روجر بيكون فكان أوغسطينيا أيضاً ، جعل للاهوت المقام الأول ، وميز بين الدين والعلم فى تفكيره وكتاباته . ويبدو أن بيكون استفاد كثيرا من المؤلفات الإسلامية وبخاصة مؤلفات ابن سينا والحسن بن الهيثم . على أن أهم ما أخذه بيكون عن علماء المسلمين كان الاهتمام بالمنهج التجريبى فى البحث ، والإيمان بأهمية هذا المنهج ؛ حتى أنه قسم وسائل المعرفة إلى ثلاث هى النقل والاستدلال والتجربة (Per auctoritatum et rationem et experientiam) وقال إن النقل والاستدلال لا يؤديان إلى معرفة حقه ما لم تثبت التجربة صحة ما يأتيان به[٣] . أما فوائد التجربة فهى تأكيد النتائج التى نصل إليها بالاستدلال ، كما تؤدى التجربة إلى حقائق جديدة توصلنا إلى علم جديد قائم بذاته هو العلم التجريبى scienta experimentalis الذى يمكننا من السيطرة على الطبيعة[٤] . وإذا كان روجر بيكون هو أول من استخدم اصطلاح « العلم التجريبى » السابق ، فإنه يوضح لنا أن التجارب العلمية التى يعتمد عليها ذلك العلم تمتاز باعتمادها على الأجهزة والآلات المختلفة[٥] .

---

(1) Taylor : op. cit.; vol 2 ; p. p 146 - 147.
(2) Brehler : op. Cit. ; p p 272 - 277.
(3) De Wulf : op. cit.; Tome 2 ; p p. 134 - 135.
(4) Cam. Med. Hist ; vol. 2; p.p. 825 - 826.
(5) Eyre : op. cit.; p. 827.

(د) وأخيرا يأتى فريق الأرسطيين الدومينيكان الذين عملوا على إقامة دعائم فلسفة متسقة تقوم على أساس التعاليم الأرسطية ، ولـكنها تتفق مع أحكام الدين والعقيدة[١] . وقد قام اثنان من فلاسفة هذا الفريق بإقامة ذلك البناء الفلسفى ، هما ألبرت الـكبير (١٢٠٦—١٢٨٠) وتلميذه القديس توما الأكوينى (١٢٢٥ — ١٢٧٤) . وهكذا يمكن القول بأن ألبرت وتوما قد نصّرا تعاليم أرسطو ؛ مع ملاحظة أن الفضل يرجع إليهما فى التفرقة لأول مرة بشـكل واضح بين الفلسفة واللاهوت . فمن الممـكن أن تـكون من أتباعهما فى الفلسفة دون أن تـكون مسيحيا ؛ كما أنه من الممـكن أن تـكون مسيحيا مثلهما دون أن تتبعهما فى آرائهما الفلسفية . وعن طريق هذه التفرقة قدم هذان الفيلسوفان خدمة جليلة للباحث العلمى إذ أعطياه براءة تحرره من سيطرة اللاهوت عليه وتحـكمه فيه . و بذلك أصبح للباحث حريه تامة فى التنقل خلال أرجاء العالم الطبيعى دون أن تـكون للسلطة الدينية حق التدخل فى عمله[٢] .

ألبرت الكبير :

أما ألبرت الـكبير فأهم ما يميز فلسفته ظاهرة الإصرار على التفرقة بين الفلسفة واللاهوت — وهى التفرقة التى تعتبر بداية مرحلة جديدة فى تاريخ الفـكر الغربى، لأنها جاءت فى الواقع تمييزاً بين دعاوى ينهض عليها الدليل و يوجد ما يثبتها علميا ودعاوى أخرى لا تسندها أدلة واضحة سوى « هكذا ورد فى الـكتاب المقدس » أو « هكذا قال آباء الـكنيسة »[٣] .

وليس معنى ذلك أن ألبرت حاول أن يقلل من شأن اللاهوت . فقد كان قديسا وراهبا فى منظمة الدومنيكان ، ثم أستاذا اللاهوت فى جامعة باريس ؛ وأخيرا

(1) Taylor: op. cit. ; p. ; vol. 2; p. 452.
(2) Gilson : op. cit.; p. 503.
(3) Eyre : op. cit, p.p, 828 – 829.

أسقفا على كولونيا ، كما ألف كثيرا من التصانيف اللاهوتية والفلسفية والعلمية ورجع إلى الأفلاطونية كما رجع إلى الأرسطية[١] . ولكنه عرف الأرسطية على حقيقتها ، وعرضها على معاصريه عرضا غير مغرض ، فقال ان أرسطو هو المصدر الأول فى معرفتنا للطبيعيات لأنه عرف الطبيعة أكثر من غيره ؛ و بذلك استطاع ألبرت أن يقدم فلسفة أرسطو — لأول مرة — فى ثوب مسيحى[٢] . وهنا يتمالك ألبرت شجاعته فيصرح بأن مبادىء اللاهوت لا تتفق مع الفلسفة لأن الأول يقوم على الوحى فى حين تقوم الفلسفة على العقل ؛ ولكنه مع ذلك يوصى باستخدام الفلسفة فى اللاهوت لحل مشاكله[٣] . على أنه يؤخذ عليه أنه لم ينته فى آرائه إلى مذهب مستقل مترابط ، وأنه استوعب المذاهب الفلسفية السابقة دون أن يخرج منها برأى خاص ، الأمر الذى جعل تلاميذه ينقسمون من بعده إلى فريقين فريق سار فى ركاب الأفلاطونية الحديثة وفريق سار فى ركاب الأرسطية[٤] ؛ والفريق الأخير أقوى أثرا وأشد ظهورا وكان على رأسه توما الأكوينى صاحب أروع المذاهب العقلية فى العصور الوسطى .

القديس توما الاكويني :

أما توما الأكوينى (١٢٢٥ — ١٢٧٤) فكان هو الآخر من الرهبان الدومينكان ، تتلمذ على ألبرت الكبير ثم صار أستاذا بجامعة باريس . وقد دون كثيرا من الشروح والمؤلفات الفلسفية ، حاول فيها أن يقدم فلسفة أرسطو إلى معاصريه فى صورة براقة مغرية الأمر الذى أوقعه فى صراع مع الأوغسطينيين من ناحية ومع الرشديين من ناحية أخرى . وهنا نلاحظ أن توما الأكوينى اعتمد

---

(1) Cam. Med. Hist. ; vol. 5 ; p. 824.

(٢) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسط ص ١٦١ — ١٦٨ .

(3) Brehier : op. cit. ; p. 300.

(٤) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية ص ١٦١ — ١٦٨ .

فى آرائه الفلسفية الخالصة على طريقة ابن رشد فى شرح فلسفة أرسطو ، فى حين ألف فى الجانب اللاهوتى عدة مؤلفات بلغت شأواً بعيدا فى مهارة البناء وسمو الصياغة والطريقة[١] .

وقد امتازت فلسفته بالتفرقة الواضحه بين العلم واللاهوت فقال ان الفلسفة لا يمكن أن تقدم أدلة قاطعة لإثبات مبادىء المسيحية لأن العقل البشرى يتقبل هذه المبادىء لاعتقاده فقط أنها من لدن الله ؛ وأقصى مايمكن أن تقوم به الفلسفة هو تفنيد مزاعم ضعاف العقيدة والمتشككين فى الدين[٢] . على أن ثمة عنصرا مشتركا بين الفلسفة واللاهوت هو أننا لا ننتظر من العالم أن يؤمن بعقائد اللاهوت التى تسندها السلطة المقدسة دون أن يقيم الأدلة الفلسفية على وجود الله وما هيته وقدرته[٣] . وهنا يسوق القديس توما خمسة أدلة على وجود الله ، مستمدا منطق تفكيره من فلسفة أرسطو بوجه خاص : وأول هذه الأدلة فكرة المحرك الذى لا يتحرك فكل ما يتحرك يحركه شىء سواه ، ولما كان التسلسل اللانهائى مستحيلا ، فإننا سنصل فى النهاية إلى شىء يحرك بقيه الأشياء دون أن يتحرك هو ، وهذا الشىء هو الله . والدليل الثانى يقوم على أساس العلة الأولى ، إذ لا يمكن أن أن تكون جميع الموجودات فاعلة لنفسها ، بل لا بد أن يكون لكل شىء علة أوجدته ؛ ولما كان التسلسل اللانهائى مستحيلا فلا بد من وجود علة خالقة أولى هى الله[١] . أما الدليل الثالث فهو ضرورة وجودمصدر أساسى لكل الموجودات هو الله ؛ وواضح أن هذا الدليل يكاد يكون الدليل نفسه السابق له . و يعتمد الدليل الرابع على تفاوت الموجودات فى الصفات والكمالات ، والتفاوت لا يأتى

---

(1) Rashadall : op. cit ; vol. 1; p 365

(٢) Eyre : op. cit ; p. 830.

(3) De Wulf : op. cit. ; Tome 2, p. 13.

(4) Ollson: op. cit.; p. 531.

إلا نتيجة للإضافة إلى ما هو غاية فى صفة معينة ، وعلى ذلك لا بد من وجود شىء تام الكمال هو غاية الكمالات التى تصدر كلها عنه، وهذا الشىء هو الله. وأخيرا يعتمد الدليل الخامس على أن كل الموجودات — حتى التى لا حياة فيها — تعمل لتحقيق غاية معينة ، مما يدل على أنها لا تعمل عرضا بل قصدا مدفوعة بقوة كائن سواها خارج عنها ؛ وهذه القوة هى قوة الله[١] .

ومن الواضح أن الأدلة السابقة تقوم على أساس الوصول إلى علة الموجودات الطبيعية ، لأن القديس توما يرى أن الإيمان يتوقف على معرفة الطبيعة ، الأمر الذى استوجب اطلاق اسم « اللاهوت الطبيعى Natural Theology » على هذا القسم من فلسفته[٢] . و بعد ذلك يتعرض القديس توما لماهية الله تعالى فيرى أن الله جوهر نفسه لأنه كائن غير مركب لا فرق فيه بين جوهر ووجود ، وهو كامل من جميع النواحى ، والأشياء التى تشبهه فى بعض النواحى لا تشبهه فى البعض الآخر؛ وهو إرادة و إرادته هى جوهره ؛ و يمتاز الله بالقدرة والعناية والعقل والفضائل التأملية والعملية جميعا[٣] . ثم يتناول القديس توما مشكلة الخلق والعلاقة بين الخالق والمخلوق ، فيقول ان كل الموجودات — خلا الله — مخلوقه لأن الله خلق العالم من العدم . وأرقى المخلوقات هم الملائكة وهى مخلوقات روحية كثيرة العدد ، يبلغون كما لهم العقلى بفيض إلهى . أما الإنسان فيلى الملائكة فى المرتبة ، و بعبارة أخرى يحتل الإنسان مكانة وسطى بين الملائكة والأعجام . والإنسان مؤلف من روح وجسد ، والروح هى النفس الخالدة التى تدرك الأشياء بقوة العقل ؛

---

(١) برتراندرسل : تاريخ الفلسفة الغربية ج ٢ ص ٢٣٨ — ٢٣٩ ؟ يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الاوربية ص ١٧٤ — ١٧٧ .

(2) Eyre : op. cit; p. 630.

(٣) برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربيه ج ص ٢٣٩ — ٢٤٣ ، و يوسف كرم : تاريخ الفلسفه الأوربيه ص ١٧٨ — ١٨٢ .

والعقل جزؤ من روح كل فرد من الأفراد[1] . وهنا يعرض القديس توماالمشكلة الـكليات عندما يبحث فى العقل ، فيتفق مع أرسطو فى أن الـكليات لا وجود لها خارج الروح ، ولـكن العقل حين يعقل الـكليات فهو يعقل أشياءموجودة خارج الروح[2] . أما فلسفة توما الأخلاقية فقد حاول فيها أيضاً التوفيق بين فلسفة أرسطو وآراء المسيحية مما جعل الطريقة التى عالج بها المشاكل الأخلاقية فريدة فى نوعها بين أبحاث الفلاسفة المدرسيين[3] . وتقوم فلسفة توما الأخلاقية على أساس أن الشر غير مقصودلأن الـكائنات كلها ترمى إلى التشبه بالله فى الخير. كذلك يقول توما ان سعادة البشر الـكاملة تقوم على التأمل فى الله ، لا على اللذائذ الدنيوية ، لأن الله هو الغاية القصوى . والعقل الطبيعى هو مجموع القواعد الخلقية التى تقر الخير وتنبذ الشر[4] .

وإذا كان القديس توما قد وجه كل إهتمامه نحو الدراسات المتعلقة بالله وبالإنسان ، فإنه قنع فيما عدا ذلك من دراسات طبيعية بالمناهج التى وضعها الأرسطيون فى الطبيعة وعلم الـكون (الـكسمولوچيا Gosmology) وعلم الأحياء ؛ ولعل هذا هو السبب فى إهمال آراء توما فى هذه العلوم فيما بعد عندما تقدمت العلوم الطبيعية واتخذت أساسا المعرفة الحقيقية . ولـكن القديس توما لم يتبع أستاذه أرسطو فى العلوم السابقة إتباعا أعمى ، وإنما كان فى بعض النواحى — لا سيما فيما يتعلق بالفلك — يضيف إلى نتائج أرسطو أنه لا يستطيع تأكيدها أو التسليم بها[5] .

• • •

(1) Gilson : op. cit.; pp. 536-537.

(٢) برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ج ٢ ص ٢٤٣ .

(3) Harris : The Legacy; 245.

(4) De Wulf: op. cit;Tome 2;p.24

(5) Eyre : op. cit.; pp. 835-836.

على أن هذه الأرسطية الجديدة أو التوماوية (Thomism) لم تسلم من معارضة بعض المعاصرين الذى ساءتهم جرأة توما فى الخروج على آراء السلف وبخاصة القديس أوغسطين . هذا الى أن سياسته فى فصل الفلسفة عن اللاهوت جعلت الأولى تبدو قائمة بذاتها دون أن تفقد شيئا من خصائصها ، فى حين اضطر اللاهوت إلى أن يتجه وجهة معينة جديدة[١] . لذلك غضب رجال اللاهوت واضطر اسقف باريس سنة ١٢٧٧ إلى تحريم دراسة عدد كبير من المسائل الفلسفية منها بعض المبادىء الأرسطية والتوماوية[٢] . وفى نفس السنة السابقة أصدر رئيس أساقفة كانتربورى بانجلترا أيضا قرارا بتحريم تدريس بعض المبادىء التوماوية فى اكسفورد ، وتكرر هذا التحريم سنة ١٢٨٤ ثم سنة ١٢٨٦. على أن البابوية لم تلبث أن وقفت موقفا مغايرا من تعاليم توما وآرائه حتى انتهى الأمر بإعلانه قديسا سنة ١٣٢٣[٣] .

يوحنا دونس سكوت :

وكانت نتيجة ما أثير حول فلسفة توما أن انقسم الفلاسفة من بعده إلى فريقين: التوماويين — ومعظمهم من الدومنيكان ، وأتباع بونا فنتورا ومعظمهم من الفرانسسكان[٤] . وكان أبرز الفلاسفة عند نهاية القرن الثالث عشر من الفريق الأخير ، هو يوحنا دونس سكوت (١٢٦٦ — ١٣٠٨) Johannes Duns Scotus الذى يشبه القديس توما فى تمسكه بنظرية أرسطو فى المعرفة ، ولكنه كان أوغسطينياً ينتمى إلى بونا فنتورا . لذلك حاول أن يرفع من شأن اللاهوت ، ويجعل منه علماً عملياً يهدف إلى تدبير أفعالنا أكثر منه إلى تعريفنا حقائق معينة[٥] .

---

(١) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية ص ٢٠٣ .
(2) Cam. Med. Hist ; vol.5,p,822.
(3) Brehier : op. cit,; pp, 341-343,
(4) Eyre : op. cit,, p. 836.
(٥) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية ص ٢٣٤ .

و بذلك ابتعد يوحنا دونس عن آراء توما الأكوينى ، بل أنه قلب نظريه توما فى المعرفة رأساً على عقب بقوله إن المفكر المسيحى يجب أن يصدر فكره عن الإيمان وأن يجعل من الوحى محوراً لمذهبه — وهكذا يمضى يوحنا سكوت فى تعقب آراء القديس توما لمعارضتها دون أن يدرك حقيقتها[1] . فهو فى البرهان على وجود الله يبدأ بفكرة مطلق الإمكان ؛ وهى الفكرة التى تؤدى بنا إلى علة أولى ممكنة ، والعلة الأولى الممكنة موجودة ضرورة و بذلك نصل إلى أن الله موجود لامتناه . ومن هنا يستطيع الميتافيزيقى — وموضوعه الوجود من حيث هو كذلك — البرهنة على وجود الله دون الالتجاء إلى برهان المحرك الأول الذى قال به القديس توما[2] . كذلك يرفض دونس سكوت ما قاله القديس توما فى الصفات الإلهية من أن هذه الصفات متمايزه تمايزاً ذهنياً . بل أنه يعترف من جهة أخرى بأننا لا نستطيع أن نجعل بين الصفات تمايزاً عينياً فندخل الكثرة على الذات الالهية[3] . لذلك يبتدع تمييزاً يحسبه وسطا هو « التمييز الفعلى الصورى من جهة الشىء » ؛ ولكن فاته أن التمييز الفعلى من جهة الشىء هو فى الواقع تمييز عينى ، فكيف يكون صوريا فى الوقت نفسه[4] ؟ . أما فى الإرادة فهو مثل جميع الأوغسطينيين — يقدم الإرادة على العقل لأنها تأمر العقل وتوجهه[5] ؛ كما يرى فى خلق العالم أن العالم حادث ولا يمكن افتراض القدم ، و بذلك وضع ما جاء به الوحى من خلق العالم موضع الإلزام وأعطى اللاوجود وجوداً سابقاً بعكس ما قال به القديس توما من ارتباط الخليقة بعلتها بغض النظر عن الزمان[6] .

---

(1) De Wulf : op. cit.; Tome 2; p. 66.

(2) Idem; p. 72.

(3) Gilson ; op. cit.; pp. 598-599.

(٤) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية ص ٢٢٩ .

(5) Harris ; The Legacy of the Middle Ages; p. 248.

(6) Eyre : op, cit.; p. 837.

وهكذا يبدو من آراء دونس سكوت أن فلسفته امتازت — على الرغم مما فيها من عناصر انشائية — بطابع عام من النقد والهدم[1] . فغرضه الأساسى كان مناقضة آراء القديس توما من جهة وتوسيع نطاق اللاهوت من جهة أخرى، ولكنه فى جميع ذلك لم يحقق أغراضه ولم يوفق فى فلسفته ؛ الأمر الذى جعل منه بداية للانحلال الذى تعرضت له الفلسفة المدرسية بعد ما بلغته هذه الفلسفة من رقى وتقدم فى القرن الثالث عشر[2] .

القرن الرابع عشر — انحلال الفلسفة المدرسية :

إذا كان القرن الثالث عشر يمثل — كما سبق أن ذكرنا — العصر الذهبى للفلسفة المدرسية ، عند ما اتجهت هذه الفلسفة نحو التقريب بين العقل والدين ؛ فإن الحال اختلف بالنسبة للقرن الرابع عشر[3] . وقد سبق أن رأينا كيف أخذ الاتجاه ضد العقل يقوى منذ أواخر القرن الثالث عشر على يد يوحنا دونس سكوت ؛ وكان الغرض من ذلك الاتجاه الرفع من شأن الدين واللاهوت . وقد قضى هذا الاتجاه على جهود مفكرى القرن الثالث عشر وهدد بالفصل بين العقل والدين ، مما جعل القرن الرابع عشر يبدو سلبياً بل هداماً ، هذا على الرغم مما شهده هذا القرن من تقدم فى العلوم الطبيعية[4] .

ومن أبرز مفكرى القرن الرابع عشر الذين أخذوا يتشككون فى أهمية العقل و يتمسكون بالدين وأحكامه ، وليم الأوكامى (١٣٠٠ — ١٣٥٠) William of Okham ، وهو من فرانسسكان اكسفورد . وكثير ممن لا يعرفون

(1) Harris : The Legacy; p 248.

(2) Brehier : op. cit.; p, 391.

(3) De Wulf : op. cit.; Tome 2, p. 154.

(4) Eyre ; op. cit ; p. 838.

ولیم الأوكامى لا يجهلون الركن الأساسى من تفكيره لأن جون لوك وخلفاءه من الحسيين استمدوا منه نظريته فى المعرفة[١] ، وهى النظرية التى تعتبر محور تشكك أوكام فى الفلسفة والعلم . ذلك أنه يرى أن المعرفة العقليه التجريدية واقعة على معان مجردة ، وهذه المعانى عبارة عن إدراكات غامضة تعبر عن الجزئيات تعبيراً عاماً غير مجد[٢] . فالألفاظ الدالة على معان - - مثل إنسان -- تدل على أشياء غير واضحة ، فى حين أن الألفاظ الدالة على جزئيات - مثل سقراط -- تدل على الأشياء نفسها ولكن بوضوح . وبعبارة أخرى فإن الاسم — لا المعنى — هو موضوع العلم ، على أساس أن هذا الاسم يرمز إلى الجزئيات[٣] . ومن هنا سمى مذهب أوكام بالاسمية ، واعتبره الاسميون فى القرن الخامس عشر مؤسس مدرستهم[٤] . وإذا كان بعض النقاد يرى أن أوكام أفسد الفلسفة المدرسية بعد أن جرد المعنى من قيمته الموضوعية ، وأنه تورط فى أغلاط ومغالطات من السهل كشفها بالرجوع إلى مؤلفات أرسطو والقديس توما[٥] ؛ إلا أن البعض الآخر من الباحثين المحدثين يعارضون هذا الحكم على أوكام ويرون أنه كان مهتما باستعادة الصواب إلى فلسفة أرسطو بعد أن ينقيها من مؤثرات أوغسطين والعرب ؛ وأن شرح النقاد لأوكام قد أفسدته رغبتهم فى إيجاد حالة من التدرج بين الفلسفة المدرسية والفلسفة الحديثة[٦] .

* * *

---

(1) Ibid .

(2) Ollson : op. cit.; pp. 641-642.

(٣) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .

(٤) برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ج ٢ ص ٢٦٤ .

(٥) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية ص ٢٤١ .

(٦) براتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ج ٢ ص ٢٦٣ — ٢٦٤ .

ومهما كان الأمر ، فإن وليم الأوكامى يعتبر آخر أعلام الفلاسفـــة المدرسيين[١] . وسرعان ما اتضح فى نهاية القرن الرابع عشر أن جميع الظروف مهيأة للانتقال إلى مرحلة جديدة فى الفلسفة . ولم تلبث هذه الظروف من ناحية والحوادث التاريخية التى امتاز بها القرنان الخامس عشر والسادس عشر من ناحية أخرى ، أن أدت جميعها إلى دخول الفلسفة فى دور آخر عظيم بدأ حوالى سنة ١٦٠٠[٢] .

---

(1) Gilson : op. cit, p. 655.

(2) Eyre : op. cit., p. 843.

الباب السابع

الفكر السياسى والنشاط التشريعى

مميزات الفكر السياسى فى العصور الوسطى :

امتاز الفكر السياسى فى أوربا العصور الوسطى بطابعه العالمى ، إذ يدور هذا الفكر حول محور رئيسى هو قيام عالم واحد يمثل فى جانبه الدنيوى تراث الإمبراطورية الرومانية وسلطانها ، وفى جانبه الروحى تقاليد المسيحية وكنيستها[1] . وبعبارة أخرى فإن هذا الفكر قام على أساس وجود إمبراطورية وكنيسة ؛ أو إمبراطور وبابا ليرعى الأول الأمور الدنيوية فى حين يرعى الآخر المصالح الروحية[2] .

فالمفكرون السياسيون فى العصور الوسطى لم يؤمنوا بأن الامبراطورية الرومانية زالت بانقراض الوثنية ، بل اعتبروها قائمة فى ظل المسيحية ، كما يبدو ذلك بوضوح فى تفكير دانتى الذى لم يعترف بوجود فجوة بين الإمبراطورية الرومانية القديمة وإمبراطورية العصور الوسطى ؛ وقال بأن أحداث القرن الخامس لم تؤثر مطلقا فى تطور الامبراطورية الرومانية واستمرارها[3] . حقيقة إن الامبراطورية انتقلت إلى الشرق ، أو — حسب تعريفه — اتجه النسر شرقاً نحو العالم اليونانى (se fece Greco) ؛ ولكن المهم هو أنه ظل محلقا فى الفضاء مستمرا فى طيرانه دون أن يتوقف . وكان الرومان فى نظر دانتى هم شعب الله

---

(1) Bowle : Western Political Thought; p.180.

(2) Hearnshaw: The Social and Political Ideas of some Great Med. Thinkers; p. 12.

(3) Carlyle : The Political Theory in the West; vol. 3; p 170.

المختار المفضل (populo-Santo) ، كما أنه اعتبر امبراطورية الغرب — عندما تم إحياؤها — وريثة التراث الرومانى القديم[١] . وفى كل هذه الآراء عبر دانتى عن وجهة نظر العصور الوسطى تعبيرا أمينا صادقا ، مما جعل وجهة النظر هذه تبدو فى صورة محاولة لربط الآراء السياسية المتعلقة بالامبراطورية الرومانية بتعاليم المسيحية الخلقية[٢] .

وهكذا ظلت نظرة الغربيين إلى العالم طوال العصور الوسطى على أنه مجتمع سياسى دينى تستند وحدته النهائية إلى قوة الله وإرادته . وهذا العالم الذى يضم جميع الناس يقوم من أجل هدف مشترك ويحكم وفق قانون واحد يمثل فى جانبه الدنيوى التقاليد الرومانية وفى جانبه الروحى تقاليد المسيحية[٣] . وإذا كان قد حدث خلاف بين المفكرين فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر حول هـذه النظرية فإن الخلاف لم يكن حول صحتها لأن الجميع آمنوا بها ، وإنما كان حول طريقة تطبيقها وضبط السلطتين الزمنية والروحية داخل نطاق مجتمع واحد هو مجتمع المسيحية السياسى[٤] .

وعندما ازداد الفكر عمقا فى العصور الوسطى ، أخذ المفكرون يتساءلون عن الأساس الفكرى للمجتمع ، وعندئذ توصلوا إلى نتائج كان لها أبعد الأثر فى الفكر السياسى . والواقع أنهم لم يكونوا مبتكرين فى النتائج التى توصلوا إليها ، لأنهم نادوا بما سبق أن قال به أرسطو من أن سبب قيام المجتمع هو أن الإنسان اجتماعى بالطبع[٥] . وبعبارة أخرى فإن مفكرى العصور الوسطى اتبعوا قول استاذهم ارسطو فى أن الفرد لا يمكن أن يستسيغ الحياة الانفرادية بعيدا عن بنى جنسه لأنه

---

(1) Bowle : Western Political Thought; p 2?5.

(2) Eyre : op. cit., p. 278.

(3) Hearnshaw: The Social and Political Ideas; p.12.

(4) Gierke : Political Theories of the Middle Ages; pp.9-10.

(5) Bowle : op cit., p. 62.

فى هذه الحالة إما أن يكون حيوانا دون مستوى البشر أو ملاكا أسمى من مستوى البشر[١] . وهكذا قال القديس أوغسطين ان الطبيعة الانسانية اجتماعية ، كما تمسك بقية مفكرى العصور الوسطى بأن الأساس الأول للمجتمع هو طبيعة الانسان نفسها . وقد وضعوا هذه القاعدة فى قالب عملى ، فقالوا ان الغرض من النظم الاجتماعية هو تنفيذ القانون الطبيعى ، ومن هذا يبدو أن النظرية السياسية قامت فى أوربا العصور الوسطى على أساس تصور قانون طبيعى ودولة طبيعية[٢] .

على أن لفظ « الطبيعة » استخدم فى الفكر السياسى للدلالة على معان متناقضة مختلطة . فهذا اللفظ استخدم فى أول الأمر للتعبير عن الأوضاع البدائية ، ومن ثم أصبحت الحالة الطبيعية يقصد بها إما حالة الكمال التى تمتاز بالبساطة والبعد عن التعقيد أو حالة الهمجية الأولى وعدم النظام . هذا فضلا عن استخدام لفظ « الطبيعى » فى الفكر السياسى بمعنى السوى أو العادى ، وعلى ذلك فإن طبيعة الإنسان لا تتمثل فى حالته البدائية و إنما فى الحالة التى يصبح عليها إذا تم نضجه[٣] . وتبعاً لوجهة النظر هذه ، لا يكون هناك داع لربط « الحالة الطبيعية » بالزمن ، و إنما هى حالة مثالية يجب أن يجاهد الإنسان فى سبيل الوصول إليها . و إذا كان الأمر كذلك فإن القانون الطبيعى يصبح فى هذه الحالة مجموعة مبادىء من السلوك الطيب التى يتحلى بها البشر — من الجانب المثالى — لتصبح هذه المبادىء أساس الأخلاق . وهذا المعنى الأخير « للطبيعة » هو المعنى نفسه الذى قصده جمهرة المفكرين بوجه عام فى العصور الوسطى ؛ فهم عندما يتحدثون عن « قانون الطبيعة » إنما يقصدون مجموعة ضخمة من المبادىء الخلقية التى يجب أن يتحلى بها الإنسان ليصل إلى مرتبة الكمال البشرى[٤] . و يتبع ذلك أن المجتمع الذى

---

(1) Poole : Med. Thought; p. 214.
(2) Eyre : op. cit., p. 279.
(3) Jacob : The Legacy of the Middle Ages, p 510.
(4) Gierke : op. cit., pp. 74-75.

يقوم على أساس القانون الطبيعى كان له — عند هؤلاء المفكرين — هدف خلقى محدود . ومن الواضح أن مفكرى العصور الوسطى استمدوا هذه الأفكار من آراء الرواقيين من جهة ومشرعى الرومان فى أواخر عصور الحضارة القديمة من جهة أخرى[١] . وقد أدت جميع هذه الآراء إلى الاعتراف بالقانون الطبيعى الذى يشمل مبادىء الأخلاق المتفق عليها فى جميع أنحاء العالم المتحضر والملائمة لجميع البشر ؛ و بذلك تختلف عن القوانين الوضعية المحلية الخاصة بأمم معينة ، وتسمو عليها[٢] .

على أن هناك ظاهرة كان لها أثر كبير فى الفكر السياسى فى العصور الوسطى ، تتمثل فى التباين الذى أثير بين القانون الطبيعى والقانون الوضعى . و بعبارة أخرى فإنه كان لا بد من التفرقة بين القوانين والنظم التى قامت على أساس الطبيعة ، وتلك التى قامت على أساس العرف والتقاليد[٣] . فالأولى لها قيمة خلقية جوهرية جديرة بالأهمية ، فى حين كانت الأخرى لا تقوم إلا على أساس قواعد تجريبية ربما أدت إلى غرض نافع فى بعض الحالات ، ولكن ينقصها الطابع الخلقى الشامل الذى يميز القانون الطبيعى . وقد عبر مفكرو العصور الوسطى عن هذا التباين تعبيرا لاهوتيا ، فقال القديس خريسستوم (فم الذهب) «عندما اتحدث عن الطبيعة فأنا أعنى الله لأنه هو الذى أبدع العالم[٤]» . وهكذا اتضح للمفكرين أن هناك فجوة واسعة بين الحالة المثالية للإنسان كما تصورها الطبيعة ، و بين النظم السياسية القائمة فعلا على أساس القوانين الوضعية ؛ لأنه بدا من المستحيل التوفيق بين عادات الإنسان وقوانينه الضرورية و بين الفكر الإلهى الذى نبت منه القانون الطبيعى . ففى ظل القانون الطبيعى ينبغى ألا تكون هناك حكومة ولا حكام أو محكومون لأن جميع الناس أحرار وسواسية ؛ وبالتالى لا ينبغى

---

(1) Bowle : op. cit., pp. 82-84.
(2) Carlyle : op. cit., vol. 1, pp. 5-6.
(3) Gierke : op. cit., pp. 76-78.
(4) Eyre : op, cit., pp. 280-281.

أن يكون هناك عبيد أو أرقاء ولا يصح أن يبقى أى أثر للملكية الفردية ، لأن الناس الأحرار المتساوين لهم أن يتمتعوا بكل ما خلقه الله على قدم المساواة .

ولكن من الواضح أن تطبيق هذه الآراء يؤدى إلى حالة من الفوضى والاضطراب لأن المجتمع لا يمكن أن يستغنى عن حكومة أو ملكية فردية ، كما أن عنصر الرق كان ركنا أساسيا فى بناء المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى[١] . لذلك أتى المفكرون السياسيون بنظرية تردّى الإنسان وسقوطه ، فقالوا إنه كان من الممكن أن يكتفى المجتمع بهذه المبادئ الأساسية من القانون الطبيعى وذلك قبل أن يضل الإنسان سواء السبيل ، أما وقد سقط الإنسان وتردّى فى الخطيئة فقد أصبح من الضرورى وجود قوانين وضعية تتمشى مع الوضع الجديد الذى تردى إليه الإنسان[٢] .. وعلى هذا الأساس نظر المفكرون فى العصور الوسطى إلى القوانين الوضعية على أنه ينقصها السمو والكمال اللذين يتصف بهما القانون الطبيعى ؛ ومع ذلك فإنه لا بد من هذه القوانين الوضعية لوقف الشرور وعلاج المثالب التى لازمت الإنسان منذ أن تردى فى الخطيئة[٣] .

وهنا نعود فنؤكد أن هذه التفرقة بين القانون الطبيعى والقوانين الوضعية إنما هى فى الواقع تقرير للفكرة الكلاسيكية ، ولكن فى صيغة لاهوتية . وقد عبر عن هذه الفكرة فى القرن السابع القديس إيسيدور (٥٦٠ — ٦٣٦) حين قال « إن جميع القوانين إما إلهية أو بشرية ، فالقوانين الإلهية تعتمد على الطبيعة فى حين تعتمد البشرية على العرف ، وبالتالى فإن هذه القوانين الأخيرة يختلف بعضها عن بعض لأنها تتباين بتباين الأمم »[٤] . أما فى القرن الثانى عشر فقد

---

(1) Hearnshaw ; The Social and Political Ideas, p. 18.
(2) Carlyle : op. cit , vol. 1, pp. 144-146.
(3) Eyre : op. cit., p 281.
(4) Carlyle : op. cit., vol. 1, pp. 106-108.

كتب جراشيان قائلا « هناك قوتان تحكمان البشر ، هما قوة القانون الطبيعي وقوة العادة والتقاليد . والقانون الطبيعي هو ما نصت عليه التشريعات السماوية والإنجيل ، من أنه يتعين على كل إنسان أن يسلك تجاه غيره المسلك نفسه الذى يرتضيه لنفسه »[١] .

وخلاصة القول إن مفكرى العصور الوسطى بدءوا تفسيرهم الفكرى للنظم الاجتماعية والسياسية على أساس ثلاثة مبادىء وضعوها نصب أعينهم دائما الأول : هو تصورهم للقانون الطبيعي على أنه يعبر عن أقصى حالات السمو البشرى ، وأن هـذا القانون مستمد من الفكر الإلهى ليكون مصدرا للأخلاق . والثانى : هو الإعتقاد بأن القوانين الوضعية ونظم الدول العلمانية قامت من وجهة النظر المثالية على أساس القانون الطبيعي ، ولكنها تختلف اختلافا جوهريا عن القانون الطبيعي فى تباينها بين مكان وآخر وفى أنها راعت العادات والتقاليد التى جاءت نتيجة حتمية للحد من آثام الإنسان[٢] . والثالث : هو وجود فرق واضح ثابت بين القانون الطبيعي والقوانين الوضعية ، كما ظهر ذلك بجلاء فى جميع المناقشات والأبحاث التى درات حول النظم السياسية ، وعما إذا كانت هذه النظم طبيعية تتفق مع المبادىء العامة للأخلاق أو عرفية جاءت نتيجة لخطأ الإنسان وكوسيلة لعلاج هذا الخطأ وإقرار الأمن والسلام[٣] .

وفى ضوء هذا التباين بين القانون الطبيعي والقوانين الوضعية ، عالج مفكرو العصور الوسطى ثلاث مشاكل كبرى هى الرق والملكية والدولة .

---

(1) Taylor : op. cit., vol. 2, pp. 297-298.

(2) Eyre : op. cit , p. 281,

(3) Idem, p. 282.

الرق :

أما مسألة الرق فتمثل لغزا عسراً في الفكر السياسي منذ أيام اليونان ، عندما نوقشت هذه المسألة في ضوء الفروق التي سبق أن أشرنا إليها . وقد وصل أرسطو إلى نتيجة هامة بخصوص الرق ، فقال انه أمر طبيعي لأن بعض الناس يصلحون بفضل طبيعتهم لأن يكونوا عبيداً ولا شيء غير ذلك[١]. أما مفكرو العصور الوسطى — وقد سبقهم في ذلك الرواقيون إلى حد ما — فاتخذوا رأياً في الرق معارضاً لرأي أرسطو على طول الخط . ذلك أنهم نظروا إلى المسألة من وجهة نظر تعاليم المسيحية التي تقول بأن الناس جميعاً متساوون أمام الله وأن روح العبد تعادل تماماً في أهميتها روح السيد الحر[٢] . على أننا نجد من ناحية أخرى أن الرق ظل قائماً — في صورة أو أخرى — في أوربا العصور الوسطى ؛ ومع أن المفكرين رفضوا الإعتراف بأنه وضع طبيعي إلا أنهم التمسوا له مبرراً عرفياً في بعض الحالات . وهكذا نظر هؤلاء المفكرون إلى الرق على أنه ظهر نتيجة الخطيئة والشر ، ولكنهم اعتبروه نظاما تقليدياً لا بد منه لوقف بعض الإتجاهات الآثمة في المجتمع البشري[٣] . فالعصور الوسطى لم تحكم على الرق مطلقاً بالبطلان أو عدم الصلاحية ، ولكنها أنكرت وجود « الرق الطبيعي » وتمسكت بأنه يجب على السيد أن يسلك دائماً مسلكا طيباً تجاه عبده[٤] . و بعبارة أخرى فإن العصور الوسطى اعتبرت الرق مسألة عادة وعرف لا بد منهما لتصريف أمور المجتمع مع الإعتراف بعدم سلامة هذا الوضع .

---

(1) Carlyle : op. cit, vol. 1, p. 7.
(2) Cam. Med. Hist., vol 6, pp. 613-614.
(3) Poole : Med. Thought, p. 214.
(4) Carlyle : op. cit., vol. 1, p. 123.

الملكية الفردية :

أما المسألة السياسية الثانية التى عالجها مفكرو العصور الوسطى فى ضوء الخلاف بين القانون الطبيعى والقوانين الوضعية فهى مسألة الملكية . وفى هذه المسألة أيضاً ورثت العصور الوسطى وجهة النظر القديمة التى قال بها الرواقيون والتى نادت بأن القانون الطبيعى لا يعترف بالملكية الفردية . فجميع الأشياء — من الناحية المثالية — يمتلكها جميع الناس من أجل منفعتهم المشتركة العامة[١] . ولكن فلاسفة العصور الوسطى ومشرعيها كان عليهم — كما هو الحال فى مسألة الرق — أن يواجهوا حقائق الحياة القائمة ومطالبها العملية ؛ ومن هنا اعترفوا بقيام الملكية الفردية فى كل مكان على أساس أن القوانين الوضعية تبرر بقاءها .

وقد اتخذت مشكلة الملكية قالباً هاماً فى العصور المسيحية ؛ نتيجة للطابع الروحى الذى امتاز به الدين السماوى الجديد[٢] . وهنا اكتشف بعض الكتاب فى أوائل العصر المسيحى آثاراً لنظرية الإشتراكية المتطرفة فى الإنجيل[٣] . ولكن مفكرى العصور الوسطى لم يأخذوا مطلقاً بهذه النظرية وإنما حكّموا التباين بين الطبيعة والعرف ؛ فقالوا إن جميع الممتلكات وفقاً للقانون الطبيعى — وهو القانون الإلهى — تعتبر ملكا لله الذى وهبها عباده جميعاً للانتفاع بها[٤] . ولكن عندما تردى الانسان فى الخطيئة ، أدى حرصه وبخله إلى استحالة بقاء هذا الوضع الخاص بشيوع الملكية ، ومن ثم أصبحت الملكية الفردية أمراً ضرورياً لمواجهة جشع الإنسان من ناحية ولضبط هذا الجانب غير الطيب من

(1) Gierke : op cit., p. 80 & Carlyle : op. cit, vol., 1, pp. 43-44.
(2) Eyre, op cit., p. 283.
(٣) « وجميع الذين آمنوا كانوا معاً، وكان عندهم كل شيء مشتركا؛ والأملاك والمقتنيات كانوا يبيعونها ويقسمونها بين الجميع كما يكون لكل واحد احتياج » . (العهد الجديد — سفر أعمال الرسل الإصحاح الثانى ؛ ٤٤ — ٤٥) .
(4) Cam. Med. Hist., vol. 6, p. 614.

تصرفاته من ناحية أخرى(١) . وعلى ذلك فإن الملكية الفردية جاءت نتيجة للعرف واعتمدت فى بقائها على القوانين الوضعية . وعلى الرغم من أنها لا تمت إلى النظم الطبيعية أو إلى التشريعات السماوية بصلة ؛ فإنه يجب احترامها كعلاج للخطأ الذى تردى فيه الانسان .

وكان لنظرية الملكية الفردية هذه — مع ما اتصفت به من طابع نظرى — نتائج عملية هامة ميزت وجهة نظر العصور الوسطى ، عن غيرها من وجهات النظر التى عالجت هذه النظرية منذ عصر الفيلسوف لوك (١٦٣٢ — ١٧٠٤). فنظرية العصور الوسطى فى الملكية اعتمدت قبل كل شيء على القوانين البشرية الوضعية وعلى ذلك فإن ما يعطيه القانون الوضعى للانسان يمكن أن يسترده القانون نفسه دون أن يكون فى ذلك مساً بالعدالة(٢) . لذلك قال مفكرو العصور الوسطى بأن الفرد ليس له الحق فى التمسك بملكية خاصة قبل الحكومة الزمنية التى يعيش فى ظلها . كذلك قال مفكرو العصور الوسطى بأنه لما كان المبرر الرئيسى لقيام الملكية الفردية هو أن هذه الملكية جاءت وليدة الخطيئة البشرية حتى أصبح بقاؤها ضروريا لعلاج هذه الخطيئة ومقاومة الجشع الانسانى ؛ فإن هذه الملكية يجب ألا تستخدم إلا داخل نطاق الغرض من قيامها . وهنا يقرر القديس أوغسطين بأن الفرد الذى لا يحسن استخدام أملاكه يفقد حقه فى الاحتفاظ بهذه الأملاك(٣) . و بناء على هذه الآراء السابقة لم يعترف مفكرو العصور الوسطى بمبدأ الملكية المطلقة بالمعنى الحديث الذى نفهمه . فالقديس توما الأكوينى يقول إن الملكية الفردية ليس معناها امتلاك الأشياء وحيازتها فحسب ، بل أيضاً حسن استخدام هذه الممتلكات والتصرف فيها . فالفرد ليس له حق إلا فى امتلاك الضروريات التى يحتاج إليها ، وكل ما عدا ذلك يجب أن يكرسه للصالح العام .

---

(1) Carlyle : op. cit., vol 2, pp. 137-138.
(2) Eyre : op. cit., p. 263.
(3) Caryle : op cit., vol. 1, pp. 140-142.

ومعنى ذلك أن دفع الصدقات لم يكن ضرباً من الإحسان فى نظر مفكرى العصور الوسطى ، و إنما كان فرضاً حقاً على القادرين[1] .

وخلاصة القول إن الفارق بين النظرية الحديثة ونظرية العصور الوسطى عن الملكية ، هو أنه فى حين نميل نحن إلى الاعتقاد بأن الملكية الفردية تخول لنا حقا مطلقا على الأشياء المملوكة ؛ إذا بوجهه نظر العصور الوسطى تتجه نحو اعتبار الملكية الفردية نوعا من الأمانة أو العهدة التى حصل عليها الفرد بتخويل من العرف .

الدولة :

أما المسألة السياسية الثالثة التى عالجها مفكرو العصور الوسطى فى ضوء الاعتبارات السابقة ، و بخاصة التفرقة بين القانون الطبيعى والقوانين الوضعية ؛ فكانت مشكلة قيام الدولة العلمانية أو الوحدة السياسية . وقد بلغت هذه المشكلة درجة كبيرة من الخطورة فى أوائل العصور الوسطى ، عندما كان يخشى أن يستغل بعض دعاة المسيحية تعاليم الدين الجديد فى اتجاه غير إجتماعى[2] . وعلى الرغم من أن هذه الخطوة لم تتم ، إلا أنها تركت أثرا واضحا فى الفكر السياسى للعصور الوسطى ، بل إنها ظهرت جلية فى كتاب « مدينة الله Civitas Dei » للقديس أوغسطين وهو الكتاب الذى فاق أثره أى كتاب آخر فى سياسة العصور الوسطى[3] .

وتتمثل الفكرة الأساسية التى يدور حولها هذا الكتاب فى المقارنة بين مدينة الله — وهى التى تضم مجموعة المؤمنين الأبرار من عباد الله — ومدينة الأرض (Civitas terrana)[4] . وهنا نشير إلى أن الخلاف ما زال قائما حول ما يقصده

---

(1) Eyre : op. cit., p. 284.
(2) Gierke : op. cit., pp. 2-4.
(3) Poole : Medieval Thought, p. 48.
(4) Cam. Med. Hist., vol. 6, p. 607.

القديس أوغسطين بمدينة الأرض، وعما إذا كان المقصود بهذه المدينة هى الامبراطورية الرومانية فى العصر الوثنى بالذات أو غيرها[١]. ولكن الثابت هو أنه يقصد بوجه عام ما يمكن أن نسميه الوحدة السياسية أو الدولة، التى يصر القديس أوغسطين فى أكثر من موضع على وصفها بأنها تمثل روح الشر والإثم[٢]. ذلك أن «مدينة الأرض» نشأت من شهوة الإنسان ورغبته الجامحه فى السيطرة والتحكم (libido dominandi) كما أن بقاءها مبنى على أسس من سفك الدماء والحرب والسلب والعنف.

ولم يكن القديس أوغسطين وحده هو الذى عبر عن هذا الشعور العدائى نحو الوحدة السياسية أو الدولة فى العصور الوسطى؛ إذ لم يلبث البابا جريجورى السابع بعد ذلك بستة قرون أن أظهر هذا الشعور نفسه وأخذ يتساءل « من منا يجهل أن الملوك والحكام استمدوا أصلهم من أناس لا يعرفون الله، وأنهم يستجيبون لإغراء الشيطان فيحكمون شهوتهم العمياء فى السيطرة على إخوانهم من البشر ! » . كذلك نجد هذا الرأى نفسه يردده بعد ذلك البابا أنوسنت الثالث، ثم ظهر فى المرسوم البابوى الشهير الذى أصدره البابا بونيفيس الثامن[٣].

ومع أن هذا الحكم الجائر على الدولة العلمانية ترك أثرا واضحاً فى الفكر السياسى للعصور الوسطى، إلا أننا لا يصح أن نتخذه نموذجاً لتعاليم تلك العصور لأن الكتاب أنفسهم الذين تطرفوا فى وجهة النظر السابقة، لم ينكروا فى بعض المواضع مبررات قيام الدولة[٤]. ذلك أن مفكرى العصور الوسطى بوجه عام اعتبروا الوحدة السياسية وليدة الإثم، ولكنهم لم يقروا بأن الدولة آثمة على طول

---

(1) Hearnshaw : Some Great Political Idealists of the Christian Era, pp. 17-18.

(2) Jacob : The Legacy of the Middle Ages, pp. 512-513.

(3) Eyre : op. cit., p. 285.

(4) Hearnshaw - The Social and Political Ideas, p. 20.

الخط . وهنا نجدهم مرة أخرى يستغلون الفرق بين النظام الطبيعي والنظم الوضعية ، فقالوا ان القانون الطبيعي يقضى بالمساواة التامة بين جميع الناس أمام الله ، وأنه ليس لفرد — بحكم الطبيعة — أن يدعى السيطرة على أقرانه من البشر[١] . ولكن نتج عن الخطيئة التى تردى فيها الإنسان أن ظهرت فى الدنيا نزعة نحو العنف ورغبة فى السيطرة ، الأمر الذى أدى إلى تحكم بعض الناس فى غيرهم . على أن هذا لم يكن — فى نظر مفكرى العصور الوسطى — إلا جانباً واحداً من المشكلة . ذلك أن الحكومة العلمانية — على الرغم من التسليم بأنها جاءت وليدة الإثم — أصبح بقاؤها ضرورياً لعلاج الشرور التى فاضت بها الحياة الدنيا[٢] .

فالحكومة الدنيوية إذاً جاءت عن طريق الخطأ ، ولكنها أصبحت العلاج الإلهى للأخطاء البشرية ، ومن ثم وجب احترامها وطاعتها[٣] . ويبدو هذا الرأى واضحاً فى كتاب دانتى عن الملكية (De Monarchia) ، فهو يسلم بأن الحكومة الدنيوية آثمة فى تكوينها ونشأتها ، ولكنه يعترف بأن السلام لا يمكن أن يسود الحياة العملية إلا بقيام سلطة قاهرة تمنع العنف وتقر العدالة[٤] .

وخلاصة القول ، أن الرأى السائد فى العصور الوسطى بخصوص هذا الموضوع هو أن الدولة العلمانية نبتت أصولها من أوضاع آثمة ، لأنها لا تقوم على أساس المساواة الطبيعية بين الناس ؛ ولكن بقاء هذه الدولة أمر ضرورى لعلاج ما تفيض به الحياة البشرية من آثام . والدولة فى علاجها لهذه الآثام تعتمد على الله

---

(1) Carlyle : op. cit., vol. 1, pp. 126-128.

(2) Idem, p. 130.

(3) Idem, vol, 2, pp. 146-147.

(4) Hearnshaw : The Social and Political Ideas, p. 126. & Bowle - op. cit., pp. 233-236.

ولذلك يجب أن تحظى بالاحترام والطاعة من جميع المسيحيين المخلصين[١] .

* * *

وقد ظهر أثر المبادىء والآراء السابقة بوضوح فى تطور الفكر السياسى فى غرب أوربا فى العصور الوسطى . من ذلك أن القول بأن الحكومة الزمنية — مع كونها غير طبيعية — إلا أن لها وظيفة دينية مقدسة فى علاج الآثام والشرور ؛ هذا القول أدى مباشرة إلى نظرية حق الملوك الإلهى أو المقدس[٢] . حقيقة إن هناك عوامل أخرى كثيرة أسهمت فى بناء هذه النظرية ونموها ، لا سيما قول الفريق الامبراطورى — أثناء النزاع مع البابوية — بأن الإمبراطور يستمد سلطته من الله مباشرة ؛ ولكن الفكرة التى قامت عليها نظرية حق الملوك الإلهى تكمن بوجه عام فى رأى العصور الوسطى فى الدولة الزمنية . فالعصور الوسطى نظرت دائما إلى الحاكم العلمانى على أنه أداة الله فى القضاء على العنف والشر[٣] .

على أنه إذا كانت العصور الوسطى قد قالت بأن الحاكم العلمانى — سواء كان ملكا أو امبراطورا — يتقلد منصبه بمقتضى حق إلهى ، إلا أن هذه العصور لم تقر مطلقا مبدأ عدم مسئولية الحكام العلمانيين عن أفعالهم ، لأن هذا المبدأ لم يكن إلا فكرة قديمة أحياها ملوك القرن السابع عشر[٤] . والواقع إن التنكر لمبدأ عدم مسئولية الحكام العلمانيين يعتبر تطبيقا جديدا لنظرية العصور الوسطى عن الحكومة الدنيوية[٥] . فمفكرو العصور الوسطى اعتبروا الملكية — أى الحكومة الزمنية — ليست إلا وظيفة وأمانة ، وأنه يتحتم على

---

(1) Eyre : op cit., p. 286.

(2) Hearnshaw : The Social and Political Ideas, p. 21.

(3) Gierke - op. cit , pp. 30-32.

(4) Eyre - op. cit , p. 286.

(5) Cam. Med. Hist., vol. 8, p. 642.

صاحب هذه الوظيفه الوفاء بالتزامات ثابتة معينة[1] . وقد أدت هذه النظرية فى النهاية إلى القول بأنه لما كانت الدولة العلمانية وحاكمها قد جاءا نتيجة للاثم وعلاجا له ، فإن الحكمة من بقائهما أصبحت رعاية مصالح الأفراد الذين تألفت منهم هذة الدولة ، وليس للحاكم أن يفرض على هؤلاء الأفراد إلتزامات غير مشروطه[2] . ومن الواضح أن هذه الفكرة — التى تختلف عن كثير من النظريات السياسية القديمة والحديثة إزاء الدولة — تمثل رأيا خطيرا على جانب كبير من الأهمية . ذلك أنها تحدد العلاقة بين الحاكم والمحكوم فى ضوء مجموعة من الحقوق والواجبات المتبادلة[3] . وهنا يلخص القديس توما الأكوينى أهم مظهر للنظرية السياسية فى العصور الوسطى فيقول «إن المملكة ليست ملكا للملك ، وإنما الملك ملك للمملكة » .

Regnum non est propter regem sed rex propter regnum

ويفسر ذلك بأن الله أقام ملوك الأرض لا لتحقيق مكاسبهم الخاصة ، وإنما لتحقيق الصالح العام . ثم يضيف القديس توما إلى ما سبق ، قوله بأن القانون المدنى يجب أن يستهدف الصالح العام ، وإلا فقد صفته الإلزامية كقانون[4] .

بل إن بعض مفكرى العصور الوسطى لم يترددوا فى نقد نظرية الملكية المطلقة ؛ فحنا السالسبورى يفرق بين الملك والطاغية أو الدكتاتور ، ويقول ان الأول يخضع للقانون فى حين يتجاهله الثانى . ولما كانت الملكية نظاما إلهيا مقدساً فإن إساءة الملك استخدام سلطته تعتبر خيانة فى حق الله ؛ وهنا يوصى حنا السالسبورى باستخدام السيف لمعاقبة الملك المستبد على هذه الخيانة . كذلك

---

(1) Gierke : op. cit., p. 34,

(2) Cam. Med. Hist, vol. 8, p. 642.

(3) Gierke - op. cit., p. 34.

(4) Hearnshaw : The Social and Political Ideas, p. 66 .& Bowle -op. cit, p. 208.

يقرر أن قتل الطاغية فى هذه الحالة ليس أمراً مسموحا به فحسب ، بل يعتبر هذا الإجراء « حقا وعدالة aequum et justum[1] ».

والواقع أن الطغاة المستبدين احتلوا أسفل درك فى التفكير السياسى فى العصور الوسطى ، حتى أن دانتى أفرد لهم فى الجحيم نهرا خاصا يغلى بالدماء ليعذبوا فيه . أما القديس توما الأكوينى فقد أصر دائما على أن مقاومة الطاغى ليست حقا للمحكومين بل واجبا عليهم[٢] . وهكذا يبدو أن العصور الوسطى فى غرب أوربا لم تقر مطلقا فكرة عدم مسئولية الحكام ، كما قالت بأن التعسف يضيع حقوق الحكام ، لأن القانون الطبيعى يجب أن يظل فوق الدولة وقوانينها الوضعية . وهذه الآراء هى التى تمثل فى مجموعها فكرة العصور الوسطى عن الحرية[٣] .

ومن الواضح أن القول بأن سلطة الملك يجب أن تقوم على أساس مراعاة الصالح العام لرعاياه ، وأن لهؤلاء الرعايا الحق فى عصيان الملك إذا أخل بالمبادىء التى تبرر قيامه فى منصبه : هذه الآراء لا يفصل بينها وبين مبدأ سيادة الشعب سوى خطوة قصيرة . هذا إلى أن مبدأ المساواة الطبيعية بين الناس أمام الله ، يحمل فى طياته كثيرا من دلائل الديمقراطية ومبادئها[٤] . ويتضح هذا الرأى فى ضوء التأكيدات الكثيرة التى صدرت عن مفكرى العصور الوسطى بأن الملك خاضع لقوانين الجماعة التى يحكمها ، أو كما قال القديس أمبروز من أن الملك مقيد بقوانينه[٥] . وفى القرن الثانى عشر فرق حنا السالسبورى بين الملك والطاغية على هذا الأساس[٦] ، كما تبنى هذه الفكرة المشرعون الإقطاعيون فى القرن

---

[1] Carlyle : op. cit , vol 3, pp. 143-145.
[2] Poole : Med. Thought, pp. 210-216.
[3] Eyre : op cit., p. 287.
[4] Gierke : op. cit , pp. 37-38.
[5] Carlyle : op. cit, vol. 1, pp. 163-164.
[6] Hearnshaw : The Social and Political Ideas, p. 78.

الثالث عشر ، مثل بومانوار Beaumanoir الذى قال بأن ملك فرنسا مقيد بتقاليد شعبه[1] . ومثل حنا الأبلينى Jean d'Ibhelin الذى أكد هذا المبدأ نفسه فى دستوره الخاص بمملكة بيت المقدس اللاتينية ، ومثل المشرع الانجليزى براكتون Bracton الذى عبر عن الفكرة السابقة فى قالب تهكمى لطيف فقال بأن الملك « لا يصح أن يكون دون أى شىء آخر ، عدا الله والقانون » ! [2]

فمفكرو العصور الوسطى اعتبروا السلطة هبة من الله وهبها عباده ، وهؤلاء الأخيرون أنابوا عنهم ملكا لمباشرة هذه السلطة ؛ لذلك تجب عليهم طاعة الملك مادام يباشر سلطاته على الوجه السليم . ومن هذه الفكرة نستطيع أن نلتمس جذور نظرية العقد الاجتماعى التى نادى بها بعض المفكرين الأوربيين فيما بعد[3] ، بل إن هذه النظرية ظهرت واضحة فى القرن الثانى عشر فى مؤلفات مانجولد Manegold الذى استخدم فعلا لفظ « عقد Pactum » فى تفسير العلاقة بين الحكام والمحكومين[4] .

ومهما كان الأمر ، فإن فكرة تحديد سلطة الحكومة من جهة وفكرة المساواة الأصلية الطبيعية بين جميع الأفراد والطوائف من جهة أخرى ، هما بلا شك أهم ما تمخض عنه الفكر السياسى فى أوربا العصور الوسطى .

القانون الرومانى :

فإذا انتقلنا إلى دراسة القانون الرومانى فإننا نجد أنفسنا هنا أيضا مضطرين إلى الرجوع إلى العصر الرومانى نفسه لنتتبع جذور النشاط التشريعى فى أوربا

---

(1) Bowle : op. cit., p. 185.
(2) Eyre : op. cit., p. 288.
(3) Gierke : op. cit., p. 88.
(4) Carlyle : op. cit., vol. 3, pp. 166-169.

العصور الوسطى[١]. ذلك أن القانون الأساسى للجمهورية الرومانية كان عبارة عن نظام تقليدى خاص بالمواطنين الرومان الذين يتمتعون بالجنسية الرومانية وحدهم. ولكن عندما أصبحت روما عاصمة لعالم البحر المتوسط، اضطرت المحاكم الرومانية أن تكمل القانون المدنى الخاص بالمواطنين الرومان (ius-civile) بقانون آخر عام أكثر شمولا ومرونة، ولا يختص بالمواطنين الرومان وحدهم (ius gentium)[٢]. وقد روعى فى هذا القانون الأخير أن يتناول العلاقات بين أهالى جميع بلاد الامبراطورية؛ ومن ثم احتوى كثيرا من التشريعات والنصوص القانونية الهامة التى تشمل الحجج والشركات والزواج والوراثة وغيرها. ولما كان هذا القانون العام أوسع أفقا وأكثر شمولا من قانون المواطنين الأول، فإنه أخذ يؤثر فيه تأثيرا سريعا. وسرعان ما تداخل القانونان بعضهما فى بعض نتيجة للتوسع فى منح الجنسية الرومانية لأهالى الولايات الرومانيه من ناحية، ولانتشار آراء الرواقيين ذات الصبغة العالمية من ناحية أخرى[٣]. والمعروف أن الفلسفة الرواقية نادت بأن توجيهات العقل تؤلف قانونا طبيعيا (ius naturale) يربط جميع الناس برباط خلقى متين، وبالتالى يسمو على التشريعات المحلية التى تسنها كل دولة[٤].

وهناك ثمة تطور طرأ على القانون الرومانى عندما حاول دقلديانوس إصلاح مرافق الإمبراطورية وانقاذها من الهوة التى انزلقت إليها، فجعل إرادة الإمبراطور — ممثلة فى مراسيمه — هى الارادة العليا التى يجب أن تسمو على جميع ماعداها من تشريعات وقوانين. وهكذا أصبح القضاة خدام الإمبراطور — لا العدالة — فيجب أن يلموا أولا بالأوامر الإمبراطورية ويحرصوا على تنفيذها

(1) Cam Med. Hist., vol. 5, p. 698.

(2) Cam Med Med. Hist., vol. 5, p. 700 & Stephenson : Med. Hist., p. 13.

(3) Eyre : op. cit., p. 41.

(4) Idem, pp. 13-14.

فى أحكامهم ، ثم بعد ذلك يأتى دور التشريعات المدنية وأقوال الفقهاء والمشرعين . ومع ذلك فإن هذا التطور لم يقض على قواعد القانون الرومانى الراسخة ، فاستمرت الإجراءات القضائية تسير وفق الأسس السابقة[١] .

وسرعان ما أدت كثرة الأوامر والمراسيم الإمبراطورية وتعارضها ، إلى نوع من الفوضى فى شئون القضاء والتشريع ، الأمر الذى تطلب جمع المراسيم الامبراطورية الصادرة منذ عهد الامبراطور قنسطنطين وتبويبها ، وهى المجموعة التى تمت فى عهد الإمبراطور ثيودسيوس الثانى سنة ٤٣٨ ونسبت إليه[٢] . وكان التشريع العلمى المنظم قد اختفى تقريباً منذ أخذ العالم الرومانى ينحدر فى طريق التدهور ، فسادت أوربا عند مستهل العصور الوسطى قوانين عرفية ترجع إلى عادات الشعوب الجرمانية المختلفة التى غزت العالم الرومانى . وسرعان ما تأثر كثير من هذه الشعوب الجرمانية — لا سيما القوط — بمجموعة القوانين الرومانية التى جمعها ثيودسيوس الثانى ، الأمر الذى ساعد على بقاء بصيص من الحضارة الرومانية فى غرب أوربا فى العصور المظلمة التى اعقبت سقوط الامبراطورية الغربية[٣] . هذا وإن كان من الثابت أن غزوات البرابرة فى القرن الخامس لم تقتلع جذور القانون الرومانى من غاليا وإيطاليا وأسبانيا[٤] .

على أن أهم عمل قانونى شهدته أوربا العصور الوسطى ارتبط باسم جستنيان امبراطور الدولة الشرقية (٥٢٧ — ٥٦٥) . والحق إن ماقام به هذا الامبراطور من جمع القانون الرومانى وتبويبه وتنظيمه ، حقق لاسمه الخلود على صفحات التاريخ . وكانت المحاكم الرومانية فى ذلك الوقت — فى القرن السادس — تعتمد على مجموعتين قانونيتين : مجموعة تشمل الأوامر والتشريعات التى سنها

---

(1) Stepheson : Med. Hist., p. 30.
(2) Thompson : op, cit. cit. vol. 1, p. 94.
(3) Cam. Med Hist., vol. 2, pp. 55-56.
(4) Meynail : The Legacy of the Middle Ages, p. 364.

الأباطرة ، وأخرى تشمل كتابات المشرعين والفقهاء من رجال القانون[1] .
وكانت آخر محاولة بذلت لجمع تشريعات الأباطرة وتنظيمها هى المحاولة التى انتهت باخراج مجموعة ثيودسيوس الثانى كما سبق . ومع ذلك فإن هذه المراسيم الإمبراطورية ظلت مفككة متناثرة ينقصها الكثير من التنظيم والإنسجام . أما كتابات فقهاء الرومان وأقوالهم فقد أوشكت أن تتداثر وتضيع نتيجة لإهمالها وتشتتها وصعوبة الرجوع إليها فى مكان واحد ، الأمر الذى هدد بحرمان الأجيال التالية من أعظم نواحى التراث الفكرى الرومانى[2] . لذلك فكر جستنيان فى جمع مختلف أطراف القوانين والتشريعات السابقة — إمبراطورية وغير إمبراطورية — مما كان له أثر بالغ فى مستقبل القانون الرومانى بوجه خاص وتاريخ العصور الوسطى بوجه عام[3] .

ولم يكد جستنيان يلى عرش الإمبراطورية البيزنطية حتى عين تريبونيان على رأس لجنة من رجال القانون لجمع الدساتير الإمبراطورية ونشرها ، فأتمت اللجنة عملها فى أقل من عامين وصدرت المجموعة الامبراطورية التى نسبت إلى جستنيان (Codex Justinianus)[4] . وتشمل هذه المجموعة — التى صدرت سنة ٥٢٩ — أكثر من أربعة آلاف وستمائة وخمسين مرسوماً أوتشريعاً إمبراطورياً ، بعضها أصدره جستنيان والباقى أصدره أسلافه من الأباطرة[5] .
ولما كان الإمبراطور جستنيان قد استمر فى إصدار كثير من التشريعات والأوامر الإمبراطورية بين حين وآخر ، فإن هذه الأوامر المستحدثه أطلق عليها اسم المتجددات أو القوانين الجديدة (Novellae Constitiones)[6] . ثم كان أن

---

(1) Eyre : op. cit., p. 40
(2) Cam. Med. Hist., vol. 5; pp. 702-703.
(3) Painter : A Hist. of the Middle Ages; p. 8.
(4) Cam. Med. Hist ; vol. 2, p. 50.
(5) Vasiliev : Hist. de l'Empire Byzantin; Tome 1; p.p. 189-190.
(6) Cam. Med. Hist.; vol. 2; p. 62.

زاد جستنيان عدد أعضاء اللجنة التشريعية الأولى ، وعهد إليها بمهمة أصعب هى جمع وتبويب تراث المشرعين ورجال القانون الرومان . وأخيراً تمخض هذا المجهود الضخم سنة ٥٣٣ عن صدور الموسوعة (Digesta) وهى تجمع خلاصة ما كتبه فقهاء العصر العلمى (١٣٠ ق. م – ١٨٤ م) ، وتقع فى خمسين كتابا ، ينقسم كل منها إلى فقرات ، على رأس كل فقرة بيان باسم الفقيه الذى أخذت عنه وعنوان الكتاب وموضوعه(١) . وبذلك حافظت هذه الموسوعة على أسلوب كبار فقهاء العصر العامى أمثال بولس وألبيان وغيرها(٢) . على أن هذه الموسوعة كانت أضخم من أن يستطيع الرجوع إليها طلاب القانون فى سهولة ، ولذلك أصدر جستنيان موجزاً يسهل على الطلاب استخدامه، وسمى هذا الموجز (القواعد Institiones) .

ومن مجموعة الدساتير الإمبراطورية والموسوعة وموجز القوانين، نتج ماعرف باسم « مجموعة القانون المدنى Corpus Juris Civilis » . ولسنا فى حاجة إلى التدليل على أهمية هذه المجموعة — و بصفة خاصة الموسوعة — التى لولاها لضاعت جهود فقهاء الرومان ولأصبح من الصعب بل المستحيل الوقوف على دراساتهم القانونية(٣) . أما وقد حفظت الموسوعة هذه الدراسات والتشريعات التى انجبتها عبقرية الرومان فقد أصبح من الممكن استغلالها فى القيام بنهضة قانونية فى أوربا متى سمحت الظروف بذلك . ولم يكن من المنتظر أن تشهد أوربا مثل هذه النهضة فى الظروف العسيرة التى مرت بها فى الفترة المظلمة الممتدة حتى القرن الحادى عشر ؛ وإن كان من الثابت وجود مدارس قانونية حينئذ فى روما وبافيا ورافنا(٤) . ومهما كان الأمر فإن جانبا كبيرا من جوانب النهضة الأوربية التى

---

(1) Idem; p. 60.
(2) Haskins: The Renaissance of the Twelfth Century; p.p.196-197.
(3) Vasiliev : op. cit.; Tome 1, p. 192.
(4) Vinogradoff : Roman Law in Med. Europe; p.p. 38-43.

سطعت في القرن الثاني عشر تمثل في العناية بالدراسات القانونية وإحياء التشريعات الرومانية التي أمكن الوقوف عليها من مجموعة جستنيان. ومن الثابت أن رائد هذه النهضة القانونيه في القرن الثاني عشر كان إرنريوس الذي تمتع برعاية ماتيلدا أميرة تسكانا[١]، والذي جعل من مدينة بولونا الإيطالية مركزا لمدرسةقانونيةعظيمةناصرت البابوية ونافست مدرسةرافنا ربيبة الإمبراطورية[٢]. وقد بدأ إرنريوس بدراسة مجموعة جستنيان، ثم اتخذها محورا لتدريس القانون في بولونا بطريقه منظمه، معتمدا في ذلك على المناقشه والبحث زيادة على الشرح، مما يعتبر بداية لنهضه قانونيه فعلية[٣].

ويطلق لقب الشراح (Glossators) على خلفاء إرنريوس لمدة قرن أو أكثر من الزمان. ذلك أنه لم يكد ينتصف القرن الثاني عشر حتى ظهر بعض تلاميذ إرنريوس الذين برزوا في العلوم القانونية، مثل بلجاروس ومارتين وهوجو ويعقوب؛ وهم الذين أطلق عليهم اسم الدكاترة الأربعة. ويبدو من الوثائق المعاصرة أن هؤلاء الأساتذة الأربعة حصلوا على شهرة واسعة كمستشارين للامبراطور فردريك بربروسا في مجمع رونساجليا Roncaglia سنة ١١٥٨[٤]. أما السبب في إطلاق اسم «الشراح» على خلفاء ارنريوس من أعلام القانون، فهو أنهم وجهوا جهودهم نحو شرح القانون وعمل تفسيرات وشروحات (glosses) لمواده[٥]. وامتازت هذة الشروح في أول الأمر بالإيجاز المطلق، حتى أنها لم تتجاوز كلمات قليلة بين الأسطر وفقا للطريقة الشائعة حينئذ في شرح نصوص الإنجيل. ولكن بتعاقب الشراح ازدادت التفسيرات والتعليقات حتى خرجت من بين الأسطر فامتدت إلى الهوامش الجانبية، بل لقد فاقت في بعض الأحيان حجم النص

---

(1) Rashdall : op cit.; vol. 1; p. 115.
(2) Vinogradoff : op. cit., p 30.
(3) Rashdall : op. cit; 1; p.p 120-124.
(4) Meynall : The Legacy; p. 367.
(5) Cam. Med. Hist.; vol. 2; p.p. 736-737.

الأصلى[١] . وأخيرا ضاقت الهوامش عن الشروح والتفسيرات ، فاستلزم الأمر تخصيص كتب خاصة لشرح النصوص القانونية ؛ ومن هذه الكتب ما تناولت كتابا بالتحليل العام — وسمى هذا النوع المجمل Summa ومنها ما اهتم بالمبادىء العامة التى تستنق من كتاب أونص ،وسمى هذا النوع المبادىء Brocarda [٢].

وهكذا لم تقف جهود شراح بولونا عند تهذيب النصوص القديمة وتحديد معانيها ، و إنما تعدت ذلك إلى تحليل المواد القانونية وشرحها على أساس مناقشتها وتفنيدها فى ضوء الأسلوب المنطقى الذى ازدهر فى القرن الثالث عشر[٣] . وقد ساعد على ظهور هذه النهضة القانونية فى الشطر الأخير من العصور الوسطى ازدهار التجارة ، وحاجة النشاط التجارى إلى دراية بالأصول القانونية من ناحية ، وتفكك النظام الإقطاعى وقيام الملكيات القوية التى ألفت نفسها فى حاجة إلى قوانين أوسع أفقا من القوانين المحلية من جهة أخرى . هذا كله بالإضافة إلى ما كان هناك من نزاع بين البابوية والإمبراطورية ، وحاجة كل فريق إلى دعم مركزه عن طريق الحجج والاسانيد القانونية . ولم يلبث أن امتد الإهتمام بالدراسات القانونية من بولونا و إيطاليا إلى بقية البلدان الأوربية ، حيث اهتمت الجامعات الناشئة بدراسة القانون اهتماما متفاوت الدرجات حسب الظروف التى أحاطت بكل منها[٤] .

القانون الكنسى .

وفيما عدا القانون الرومانى ، شهدت العصور الوسطى تقدما كبيراً فى القانون الكنسى ، وهو القانون الذى ترجع مبادئه الأولى إلى عصر الإمبراطورية[٥] .

---

(1) Vinogradoff : op cit.; pp. 46-47.
(2) Haskins : The Renaissance; p. 204.
(3) Meynail : The Legacy of the Middle Ages; p.p. 369-370.
(4) Vinogradoff : op. cit.; pp. 59-131.
(5) Cam. Med. Hist., vol. 5: p.705.

والمقصود بالقانون الكنسى (Canon law) القانون الدينى الذى أخذت به الكنيسة الغربية ذات النفوذ الواسع فى أوربا العصور الوسطى . فإذا كانت الدولة فى حاجة إلى قانون لتنظيم مرافقها المختلفة ، فإن الكنيسة الغربية فى العصور الوسطى لم تكن أقل حاجة من الدولة إلى قانون خاص بها ؛ لا سيما بعد أن صارت الكنيسة قوة عالمية تجاوزت حدودها كافة الحدود السياسية ، وتمتعت بكل ما للدولة من مقومات . ويكفى أن الكنيسة الغربية كان لها رئيسها الأعلى وهو البابا ، ولها أراضيها الواسعة ، ورعاياها من جمهور المسيحيين فى مختلف البلدان الغربية ، كما كانت لها أحكامها وقوانينها ومحاكمها بل سجونها[١] . وهكذا تمتع رجال الكنيسة بسلطة قضائية واسعة وصارت دور القضاء الكنسية تباشر نفوذا واسعا فى غرب أوربا ، فى وقت غدت المحكمة البابوية بمثابة محكمة استئناف عليا ، تستأنف أمامها القضايا من مختلف بلدان غرب أوربا وعندئذ يكون مصيرها إما النقض أو الإبرام[٢] .

على أن هذا النشاط القضائى الذى باشرته الكنيسة استلزم وجود عدد كبير من المتخصصين فى أحكام القضاء الكنسى من جهة ، كما استلزم تنظيم القانون الكنسى وتبويبه ليسهل الرجوع إليه وتداوله من جهة أخرى . والواقع أنه جاء وقت فى العصور الوسطى صارت القوانين الكنسية تعانى كثيراً من مظاهر الإرتباك والتناقض . والمعروف أن القانون الكنسى يستمد أحكامه من الكتاب المقدس وأقوال القديسين ، زيادة على قرارات المجامع الدينية والمراسيم البابوية[٣] . وكان لا بد من ترتيب هذه المادة وتنظيمها ، ولكن لم تبذل محاولات جدية فى هذا الصدد حتى كان القرن الحادى عشر ، وعندئذ ظهرت عدة محاولات قام بها برخارد اسقف وورمز (Burchard of Worms) وانسلم اسقف لوكا

---

(1) Haskins : The Renaissance; p.p. 213-214.
(2) Ullmann : The Growth of Papal Government; p. p. 359-381.
(3) Stephenson : Med. Hist.; p. 340 & Cam. Med. Hist.; vol.5,p.706.

(Anselm of Lucca) وايفو Ivo اسقف شارتر[١] . على أنه لا يوجد شك فى أن أهم محاولة شهدتها العصور الوسطى لتنظيم القانون الكنسى كانت تلك التى قام بها جراشيان Gratian فى القرن الثانى عشر ، وهو الذى نجح فى فصل اللاهوت عن القانون الكنسى ثم تنظيم هذا القانون وترتيبه[٢] ، وقد وضع جراشيان مجموعة للقانون الكنسى نسبت إليه وانقسمت إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول يتألف من مائة باب و باب تعالج مصادر القانون الكنسى ، والقسم الثانى يشمل نحواً من ست وثلاثين قضية مختارة مع مناقشة هذه القضايا فى ضوء القانون الكنسى ، وأخيراً يشمل القسم الثالث خمسة أبواب فى العبادة والطقوس الكنسية[٣] . وسرعان ماأحرز عمل جراشيان أهمية كبرى حتى جعلته الكنيسة فى مقدمة مجموعة القانون الكنسى Corpus Juris Canonici التى قامت بجمعها . وهنا نلاحظ أن البابوية اختارت لمجموعة القوانين الكنسية اسما مطابقاً لاسم مجموعة جستنيان فى القانون المدنى (Corpus Juris Civilis) مما يدل على أن القانون الكنسى اقتفى أثر القانون الرومانى فى تطوره[٤] . والواقع أن العلاقة بين القانون الكنسى والقانون المدنى الرومانى كانت قوية واضحة ، كما بدت فى ثلاث نواح هامة : أولها أن القانون الرومانى كان مصدراً قويا استقى منه القانون الكنسى ، وثانيها أن القانون الكنسى اقتفى أثر القانون الرومانى فى تطوره وترسم خطاه فى دراسته ، وثالثها أن القانون الكنسى جاء بمثابة رد فعل قوى للقانون الرومانى حتى يكون للبابوية سند قوى تستند إليه كما استندت الامبراطورية إلى القانون المدنى[٥] .

---

(1) Eyre : op. cit. p. 275.
(2) Gabriel le Bras : The Legacy of the Middle Ages; p. 326
(3) Haskins : The Renaissance; p. 215.
(4) Stephenson : op. cit. vol. 1, pp. 341.
(5) Rashdall : op. cit.; vol. 1, pp 132-134.

ومن البابوات الذين عنوا عناية فائقة بتنظيم القانون الـكنسى وتبو يبه البابا اسكندر الثالث (١١٥٩ — ١١٨١) والبابا لوكيوس الثالث (١١٨١ — ١١٨٥) والبابا جريجورى التاسع (١٢٢٧ — ١٢٤١)[1] . وهكذا تم تنظيم القانون فأصبح مادة قائمة بذاتها تدرس فى الجامعات الأور بية الناشئة إلى جانب القانون الرومانى . هذا إلى أن البابوية رأت فى انتشار القانون الـكنسى توسيعاً لنفوذها وتقوية لسلطانها ، وأدركت أن هذا القانون يجد منافساً خطيراً فى القانون الرومانى — الذى يمجد دائما سلطة الإمبراطورية والأباطرة — لذلك لجأت البابوية سنة ١٢١٩ إلى تحريم دراسة القانون الرومانى على رجال الدين فى جامعة باريس .

وخلاصة القول إن العصور الوسطى شهدت نشاطاً كبيراً فى ميدان القانون والتشريع ، وهو نشاط أخذ فى الازدياد كلما اقتربت تلك العصور من نهايتها نتيجه لازدياد النشاط السياسى والاجتماعى والاقتصادى فى القارة الأور بية .

---

(1) Cam, Med. Hist, vol.,5, pp. 713-714.

الباب الثامن

العلوم

ظلت الفكرة سائدة حتى القرن التاسع عشر بأن العلوم — بمعناها البحث الحديث — لم تكن معروفة فى أوربا العصور الوسطى . ومن الواضح أن هذه الفكرة تحوى كثيراً من الخطأ والمبالغة ، لأن العصور الوسطى بوجه عام عرفت العلوم والدراسات العلمية بنسبة تفاوتت بتفاوت النشاط الفكرى الذى شهدته تلك العصور[1] .

والواقع أنه يمكن تقسيم تاريخ العلوم فى العصور الوسطى إلى ثلاث مراحل : المرحلة الأولى أو المظلمة وتشمل الفترة بين سنتى ٤٠٠ ، ٩٠٠ ومهمتها إيصال بقايا تراث الفكر القديم إلى العصور التالية ؛ والمرحلة الثانية وتشمل الفترة بين سنتى ٩٠٠ ، ١٢٠٠ وهى التى شهدت تدفق العلوم والمعارف العربية على غرب أوربا ، وأخيراً تأتى المرحلة الثالثة الممتدة حتى نهاية العصور الوسطى وتمثل عصر ازدهار الدراسات العلمية ، وهو الإزدهار الذى أدى إلى النهضة العلمية فى العصور الحديثة[2] .

الدور الأول : التطور العلمى فى فجر العصور الوسطى :

يبدو أن الجانب الذى وصل إلى العصور الوسطى من التراث العلمى للعصور القديمة لم يكن عظيما فى كمه أو موضوعه ، لأن الرومان كانوا قوما عمليين لم يهتموا كثيراً بما خلفه اليونان من تراث علمى ؛ فاكتفوا بمختصرات أبحاث اليونان

(1) Hearnshaw : Med. Contributions to Modern Civilization, p. 106.
(2) Iden ; pp. 114-115.

وأهملوا أصول هذه الأبحاث التى ظلت مجهولة فى غرب أوربا حتى القرن الثانى عشر، عندما عرفها الغربيون عن العرب. ومع ذلك فإن بعض المختصرات والكتيبات اليونانية حظيت بأهمية كبيرة فى غرب أوربا فى العصور الوسطى، مثل كتابات جالن Galen فى الطب التى ظلت متداولة حتى عرفت مؤلفاته كاملة فى مدرسة سالرنو فى القرن الحادى عشر؛ وذلك من طريق ترجمة هذه المؤلفات عن التراجم العربية التى نقلت عن الأصل اليونانى[1]. أما فى الرياضيات، فقد شغف الرومان بالمساحة والتخطيط، حتى صرفهم إهتمامهم بهذه الناحية عن الرياضيات البحته. وقد قام منلاوس السكندرى Menelaos of Alexandria ببعض أبحاث فلكية فى روما سنة ٩٨ م، كما ألف بحثا فى حساب الأوتار وآخر فى الكرويات، ولكن قدر لهذه الأبحاث التى وضعها منلاوس أن تظل فى طى النسيان حتى القرن الثانى عشر عندما عرفها غرب أوربا لأول مرة فى العصور الوسطى[2].

ويبدو أن هيمنة الكنيسة واللاهوت فى العصور الوسطى كانت من العوامل الأساسية التى أدت إلى عدم ترك مجال للدراسات العلمية، لأن العقيدة المسيحية — كما قال المعاصرون — تقوم على أساس الإيمان فى حين يعتمد العلم على التعقل[3]. ويكفى أن يطلع الفرد على كتابات مفكرى العصور الوسطى — مثل القديس أوغسطين — ليدرك مدى التأخر العلمى الذى كانت عليه بلاد الغرب المسيحية. هذا إلى أن إصرار الكنيسة على توجيه الناس نحو الحياة الباطنية أعمى أنظار المعاصرين عن العالم الطبيعى المحيط بهم. فالقديس أوغسطين (٣٥٤ — ٤٣٠) يبدى دهشته من أن الناس يذهبون بتفكيرهم بعيدا للتأمل فى إرتفاع الجبال أو دراسة مدارات الكواكب ويهملون التأمل فى أنفسهم. بل إن القديس أوغسطين نفسه يهزأ من فكرة كروية الأرض التى عرفها اليونان قبل ذلك

(1) Dampier: A Hist. of Science; pp 61-62.
(2) Thompson: op. cit; vol 2; p. 777.
(3) Cam. Med. Hist.; vol; 8; 601.

يقرون ، ويصرح بأن فكرة التقاطريين — الذين يحيون فى الجهة المقابلة من سطح الأرض — إنما هى فكرة خاطئة هرطقية[1] . وإلى جانب هذا الإنحطاط فى التفكير العلمى ، انتشر الإعتقاد فى الخرافات والمعجزات بين أهالى أوربا العصور الوسطى ، حتى قضى السحر على البقية الباقية من المعرفة العلمية[2] . على أنه ليس معنى ذلك أن التفكير العلمى انعدم تماما فى هذه الفترة المظلمة من أوائل العصور الوسطى ؛ إذ وجد من المفكرين من أعطى الدراسات العلمية قسطا من عنايته . فالفيلسوف المعروف بيوثيوس (٤٨٠ — ٥٢٤) دون عدة رسائل عظيمة ونافعة ، أحداها فى علم الحساب (De institutione arithmetica) والثانية فى الموسيقى (De institutione musica) والثالثة فى علم الهندسة (Geometrica)[3] . كذلك زود مارتيانوس كابلا (ت ٥٠٠) غرب أوربا بدائرة معارف كاملة فى تسعة كتب تناولت الحساب والهندسة والفلك والموسيقى ، زيادة على النحو والجدل والبلاغة وغيرها . ويبدو أن الفلك والرياضيات بوجه خاص احتلت مكانة خاصة عند المعاصرين لأهميتها فى تحديد الأعياد الدينية[4] .

ولم تكن الدولة البيزنطية فى حال أحسن من الغرب من حيث التقدم العلمى . ذلك أن الإمبراطور جستنيان أغلق مدارس آثينا سنة ٥٢٩ ، وبذلك انطفأت شعلة علوم اليونان وفلسفتهم فى هذا الركن الشرقى من أوربا ، وفر إلى البلاط الفارسى جمع من علماء تلك المدارس ؛ مما جعل عاصمة الفرس أعظم مركز ثقافى فى ذلك العصر ، فازدهرت فيها الرياضيات والعلوم الطبيعية والفلسفة بعد أن التقت فيها علوم اليونان بعلوم الهند[5] .

---

(1) Thorndike: A Hist. of Magic and Experimental Science, vol. 1; pp. 504-522.

(2) Coulton: Life in the Middle Ages; ; vol. 1; pp. 41-44.

(3) Hearnshaw: Med Contributions to Modern Civilization; p. 116.

(4) Cam. Med. Hist.; vol .3; p. 535

(5) Vasiliev: op cit.; Tome 1, p. 198.

ثم كان أن ظهر الإسلام وقامت الدولة الإسلامية ، فأدى فتح العرب لفارس والشام ومصر إلى انتقال التراث العلمي الذى خلفه اليونان والفرس والهندوس إليهم ؛ وأصبحت بغداد مركزا لنهضة علمية كبرى فى الوقت نفسه الذى قامت النهضه السكارولنجية فى غرب أوربا . على أنه يلاحظ أن هذه النهضة الأخيرة كانت تعليمية ، اهتمت باحياء الآداب دون أن يكون للعلوم نصيب منها[١] . وتتمثل أقصى ما وصلت إليه المعرفة العلميــة فى غرب أوربا فيما بين القرنين السابع والتاسع فى موسوعة ايسيدور القشتالى (ت ٦٣١) ومؤلفات بدى (ت ٧٣٥) ومعجم سالومونيس Glossae Salomonis الذى وضع فى دير سانت جال ونسب إلى سالومونيس الثالث رئيس أساقفة كونستانس . وجميع هذه المؤلفات الثلاثة السابقة استلهمت مادتها واستمدت معلوماتها من كتاب التاريخ الطبيعى لمؤلفه بلينى العالم الرومانى القديم[٢] .

الدور الثانى : وصول علوم العرب إلى غرب أوربا :

و إذا كانت العلوم قد اضمحلت فى غرب أوربا فى أوائل العصور الوسطى ، فإنها ازدهرت فى الشرق الإسلامى . ولم يكن كل العلماء الذين أنجبتهم الحضارة الإسلامية من العرب ، لأن كثيرا منهم كانوا فرسا أو يهودا مستعربين؛ ولكنهم درسوا وكتبوا باللغة العربية التى أضحت اللغة العالمية السائدة من حدود الهند والصين شرقا إلى أسبانيا غربا[٣] . وقد امتازت هذه النهضة الإسلامية من أول الأمر بطابعها العالمى ، مما جعل الفرق واضحا بينها و بين النهضة السكارولنجية من جهة والنهضة البيزنطية فى القرن التاسع من جهة أخرى[٤] . ذلك أن الظروف

---

(1) Thompson : op. cit ; vol. 2; p. 777.

(2) Hearnshaw : Med. Contributions; p 118.

(3) Dampier : op. cit.; p. 82.

(4) Eyre : op. cit.; pp.294- 295.

الجغرافية والتاريخية شاءت أن تجعل الدولة الإسلامية ملتقى التيارات الفكرية اليونانية والفارسية والهندية . وليس هذا هو موضع الغرابة وإنما الملاحظ هو أن الرياضيات الهندية تقدمت وتطورت مستقلة بعيدة عن نفوذ الرياضيات اليونانية حتى التقى التياران معا فى كنف المدارس الإسلامية و بين رحابها[١] .

و يضيق بنا المقام عن ذكر أسماء علماء العرب المبرزين فيما سنتى ٧٥٠ ، ١١٠٠ ؛وما قام به هؤلاء العلماء من أعمال تركت أثرا بارزا فى تاريخ الحضارة ؛ ولكننا نكتفى بالاشارة إلى بعضهم . فمن هؤلاء العلماء جابر بن حيان الكوفى فى القرن الثامن الذى اشتغل بالكيمياء وألف فيها موسوعة كبيرة ضمنها وصف كثير من المركبات الكيميائية التى لم تكن معروفة من قبل ، مثل حامض النيتريك (ماء الفضة) والبوتاس وروح النشادر وغيرها ؛ كما وصف كثيرا من العمليات الكيميائية مثل التقطير والترشيح والتصعيد والتبلور[٢] . و بعد ذلك يأتى الخوارزمى فى القرن التاسع ، وهو الرجل الذى نبغ فى الرياضيات والفلك والجغرافيا ، ومزج الرياضيات اليونانية بالهندية ، ووضع قواعد علم الجبر وصنف فيه . ثم يأتى البتانى المتوفى سنة ٩٢٩ وهو من أعلام الفلكيين بفضل ماتوصل إليه من نتائج بارزة جديدة فى علم الفلك[٣] . أما الرازى (ت ٩٢٣) فكان من أشهر أطباء العرب وألف كثيرا من المراجع الكبيرة فى الطب ؛ وشاركه فى هذا الميدان العلمى ابن سينا (١٠٣٧) الذى كان أشهر أطباء المسلمين على الإطلاق ، حتى أن كتابه « القانون » يعتبر أكبر دائرة معارف طبية عرفها الشرق والغرب جميعا فى العصور الوسطى[٤] . أما الحسن بن الهيثم (ت ١٠٢٠) فكان من أشهر العلماء فى الطبيعة فاشتغل بالعدسات والبصريات وكتب فى

(1) Dampier ; op. cit.; p. 100.
(2) Cam Med. Hist.; vol ; 8; p. 667.
(3) Delambre : Hist. de l'astronomie du Moyen Ages; pp. 10-60.
(4) Cam. Med. Hist.; vol. 4; p. 297.

الضوء والمرايا رسائل عديدة ، اعتمد عليها واستفاد منها بعد ذلك بقرنين روجر بيكون فى الغرب[١] . وأخيرا نختتم هذه السلسلة من مشاهر علماء الإسلام بالاشارة إلى عمر الخيام — أبرز الرياضيين فى الربع الأول من القرن الثانى عشر . على أن الحياة الفكرية والعلمية فى العالم الإسلامى أخذت تستنفد قوتها تدريجيا منذ ذلك الحين بعد أن حمل المسلمون لواء المعرفة فى العالم ـ شرقية وغربيه ـ عدة قرون توصلوا فيها إلى معارف ونتائج جديدة ، لم يعرفها معاصروهم من الأمم إلا عنهم ؛ الأمر الذى جعل الحضارة الإسلامية — باعتراف الغربيين — أعظم حضارة شهدها العالم على الإطلاق فى العصور الوسطى[٢] .

ذلك أن العرب استخدموا نظام الأعداد الهندى واستخدموا الصفر فى الحساب[٣] ، وكشفوا عن أصول الجبر وأضافوا إليها حتى خلقوا منها علماً حقيقياً طبقوه على الهندسة . أما فى الهندسة وحساب المثلثات ، فإنهم لم يقفوا عند معلومات اليونان التى توصل إليها إقليدس وغيره ، وإنما جددوا وأضافوا إضافات جديدة لم يعرفها غيرهم من قبل ؛ فأدخلوا المماس إلى علم حساب المثلثات وأقاموا الجيوب مقام الأوتار وحلوا المعادلات المكعبة وتعمقوا فى أبحاث المخروطات ؛ كما تقدموا بالميكانيكا ووصفوا كثيراً من آلاتهم فى كتبهم . وفى الفلك انتشرت المراصد العربية فى جميع بلدان المشرق والمغرب[٤] ، واستطاع علماء المسلمين تعيين انحراف سمت الشمس تعييناً دقيقاً وحددوا طول السنة الشمسية بالضبط ، ووضعوا جداول لأمكنة الجداول السيارة ، وتوصلوا إلى نظرية دوران الأرض ؛ واستخدموا الاسطرلاب والبوصلة ، كما صححوا كثيراً من الأخطاء التى وقع فيها من سبقهم ولا سيما ما يتعلق بتقدير بطلميوس السكندرى لعرض البحر المتوسط[٥] .

---

(1) Dampier op. cit.; p. 101.
(2) Thompson : op. cit.; vol. 2, pp. 778-779.
(3) Ball : A Short Account of the Hist. of Mathematics; p. 156.
(4) Cam. Med. Hist., vol. 4, pp. 298-299.
(5) Delambre : op. cit., pp. 10-60.

أما فى الطبيعة فقد توصل المسلمون إلى نتائج فائقة فى العدسات والبصريات والمرايا الكرية ، وأجروا تجارب لإيجاد العلاقة بين وزن الهواء وكثافته ، كما عالجوا النظريات المتعلقة بالجاذبية ومركز الثقل[1] . كذلك فى الكيمياء توصلوا إلى كثير من العناصر وحاولوا تحليلها أو تركيبها ، واستخدموا فى تجاربهم أجهزة لم تكن معروفة من قبل ، كما استخدموا القوة الناجمة عن انفجار البارود فى دفع قذائف إلى مسافات بعيدة . وأخيراً خطا المسلمون بالطب خطوات واسعة فشخصوا كثيراً من الأمراض المستعصية ، واستغلوا معلوماتهم فى الكيمياء لايجاد علاج لها ، كما ألفوا كثيراً من المراجع الجامعة فى وصف الأمراض وطرق علاجها وخصائص الأدوية[2] .

ولا يتسع هذا البحث للافاضة فى أهمية النتائج العلمية التى توصل إليها العرب فى الوقت الذى كانت أوربا تتخبط فى ظلمات الجهل . ولكن المهم هو أن هذه العلوم والنتائج التى توصل إليها المسلمون أخذت تنتقل إلى غرب أوربا قبل أن يبـــدأ نجم الحضارة الإسلامية فى الأفول[3] . أما المعابر الرئيسية التى انتقلت منها هذه الحضارة الإسلامية إلى الغرب الأوربى فكانت أسبانيا ثم صقلية ثم المشرق حسب ترتيب أهميتها[4] . وعلى الرغم من أن المسلمين كان لهم مركزان ثقافيان كبيران فى الغرب هما الأندلس وصقلية ، إلا أن الاتصالات الثقافية بين الغرب المسيحى من جهة والدراسات العربية من جهة أخرى ظلت محدودة حتى أواخر القرن الحادى عشر . ولعل من أسباب ذلك صعوبة تعلم اللغة العربية ، حتى ظهر فريق من الأوربيين أدركوا أهمية هذه الدراسات وأقبلوا

---

(1) Singer : From Magic to Science; p 90.

(2) Browne : Arabian Medicine, pp. 65-73.

(3) Cam. Med Hist., vol. 8, p 667.

(4) Hearnshaw. Med. Contributions, p, 123.

على ترجمتها إلى اللاتينية فى حماسة ومثابرة[1] . وأول هؤلاء المترجمين الأور بيين كان قنسطنطين الافريقى (Constantinus Africanus) ، وهو من مواليد قرطاجة ، رحل إلى الشرق حتى انتهى به المقام سنة ١٠٥٦ فى دير مونت كاسينو حيث انتظم به راهباً إلى أن توفى سنة ١٠٨٧ . وقد قام قنسطنطين هذا بترجمة بعض المؤلفات العربية أهمها الكتاب الذى ألفه على بن العباس فى القرن العاشر فى الطب[2] ، هذا فصلا عن بعض التراجم العربية لكثير من المؤلفات اليونانية القديمة مما ترك أثراً عميقاً فى دراسة العلوم فى جنوب إيطاليا ، حتى أن مدرسة الطب فى سالرنو تدين بنشأتها إلى تراجم قنسطنطين الإفريقى . كذلك ظهر فى دير ريشنو Reichenau — وهو أحد الأديرة البندكتية فى سويسرا — راهب اسمه هرمان الكسيح (Hermann the Cripple) (١٠١٣ — ١٠٥٤) ، كتب أبحاثاً هامة فى الرياضيات والفلك استعان بها خلفاؤه فى القرن التالى . وإذا كانت معرفة هرمان هذا باللغة العربية موضع شك كبير ولا سيما أن عاهته حالت دون سفره إلى أسبانيا أو غيرها من مواطن الدراسات العربية إلا أن كتاباته تعبر عن كثير من التيارات والمؤثرات العربية ، مما يرجح وصول هذه المؤثرات إليه عن طريق رجال العلم المتنقلين فى ذلك العصر[3] .

ثم كان أن اشتد تيار حركة الترجمة عن العربية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . ففى صقلية وجنوب إيطاليا ترجم ايوجنيوس البالرمى (Eugenius of Palermo) كتاب المرئيات لبطلميوس السكندرى عن العربية سنة ١١٥٠ وأعقب ذلك ترجمة مؤلفات أخرى لبطلميوس السكندرى وبخاصة فى الفلك والرياضيات عن العربية . واشتهر من المترجمين الصقليين عندئذ فرج بن سالم اليهودى (ت ١٢٨٥)[4] .

---

(1) Hearnshaw: Med. Contributions, p 123
(2) Rashdall: op. cit., vol 1. p 81.
(3) Hearnshaw: Med. Contributons; p. 120.
(4) Singer: op. cit., p. 81.

على أن أسبانيا كانت الملتقى الطبيعى للغتين العربية واللاتينية ، بعد أن ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية وازدحمت مدنها بالمؤلفات العربية فى العلوم والفلسفة وغيرها . ثم كان أن ساعد سقوط طليطلة فى أيدى المسيحيين سنة ١٠٨٥ على اتجاه كثير من طلاب المعرفة إليها للتزود من الدراسات العربية الإسلامية سواء كانت خالصة أو مترجمة عن اليونانية ، حتى أصبحت طليطلة بالذات المركز الرئيسى لحركة الترجمة عن العربية(١) . ومن هؤلاء الذين قصدوا أسبانيا فى ذلك العصر للوقوف على المعارف العربية وترجمتها إلى اللاتينية أديلارد الباثى وهرمان وجيرارد الكريمونى وروبرت الشسترى وغيرهم(٢) . هذا فضلا عن اليهود والمستعربين الأسبان الذين عكفوا على ترجمة المؤلفات العربية مثل دومونيقوس جونديسالفى Dominicus Gondisalvi و بطرس ألفونسى Petrus Alfonsi وحنا الأشبيلى John of Seville وغيرهم . وإلى ريموند رئيس أساقفة طليطلة يرجع الفضل فى انتعاش حركة الترجمة عن العربية ، إذ أنشأ مكتبا لترجمة أمهات الكتب التى ذخرت بها طليطلة فى النصف الأول من القرن الثانى عشر(٣) .

وقد ترتب على هذه الحركة ثورة علمية وفكرية شاملة فى غرب أوربا . ذلك أن المعارف الجديدة التى نقلت من العربية إلى اللاتينيه جعلت الأوربيين يفيقون من الظلمة والجهالة التى عاشوا فيها قرونا طويلة ويقبلون على الدراسات العلمية الجديدة فى شغف ونهم . ففى الحساب عرفت أوربا نظام الأعداد الهندى عن العرب ، وهو النظام الذى تتغير فيه قيمة الرقم بتغير وضعه من خانة الآحاد إلى العشرات أو المئات . . . ؛ وبذلك أخذت أوربا تنبذ نظام الأرقام الرومانية العقيم الذى وقف عقبة كئودا فى سبيل تقدم العمليات الحسابية(٤) . وقد نسب

(1) Hearnshaw : Med. Contributions, p 123
(2) Singer : From Magic to Science, p. 80.
(3) Rashdall : op. cit., vol. 1, p. 353.
(4) Eyre : op. cit., p. 298

الأروبيون هذا النظام العددى الجديد إلى الخوارزمى العالم الرياضى الشهير الذى ترجمت بعض أبحاثه إلى اللاتينية فى القرن الثانى عشر[١] . ويرجح أن البابا سلفستر الثانى (ت ١٠٠٣) — الذى قضى بعض السنوات فى شمال أسبانيا — كان من أوائل الأوربيين الذين نقلوا نظام الأعداد العربى إلى الغرب ، هذا بالإضافة إلى ما قام به ذلك البابا من تشجيع ترجمة بعض المؤلفات العربية التى توضح وظيفة الاسطرلاب[٢] . أما الصفر فلم تعرف أوربا استعماله إلا عن طريق العرب فى القرن الثانى عشر ؛ حتى قال بعض الكتاب المحدثين إن فكرة الصفر تعتبر أعظم هدية قدمها المسلمون إلى غرب أوربا[٣] . ونستطيع نحن أن ندرك أهمية الصفر فى علم الحساب إذا تصورنا كيف يكون الحساب بلا صفر . وفى سنة ١١٤٥ م ترجم روبرت الشسترى كتاب الخوارزمى فى الجبر إلى اللاتينية ، وبذلك عرف الغرب الأوربى علما جديدا لأول مرة . أما فى الهندسة وحساب المثلثات فقد ترجم كثير من المؤلفات العربية إلى اللاتينية ، وبخاصة جداول حساب المثلثات التى وضعها الخوارزمى والتى ترجمها أدلارد الباثى[٤] . وفى الفلك ترجم الأوربيون كتاب « الزيج الصابىء » للبتاني عدة مرات إلى اللاتينية فازدادت معرفة الغربيين بهذا العلم . أما فى الطبيعة ، فقد ترجمت بعض مؤلفات الحسن بن الهيثم (ت ١٠٢٠) والخازن البصرى (ت ١٠٣٨) إلى اللاتينية ؛ وعن هذه المؤلفات استقى روبرت جروستست Robert Grosseteste وروجر بيكون وغيرهما معلوماتهم . كذلك ترجم الأوربيون مؤلفات جابر بن حيان الكوفى فى الكيمياء ، كما ترجموا بعض مؤلفات الرازى وابن سينا فى الطب[٥] .

---

(1) Ball : op. cit., p. 156.
(2) Hearnshaw : Med. Contributions, p. 120.
(3) Eyre : op· cit., p 2:9.
(4) Ball : op. cit, p. 165.
(5) Hearnshaw : Med. Contributions, p. 127.

الدور الثالث : ازدهار العلوم فى غرب أوربا :

و يبدو أن وصول هذه المعارف العلمية الجديدة إلى غرب أوربا أثار فزع الـكنيسة التى خشيت أن ينشأ عن الإهتمام بها إضعاف شأن اللاهوت وإهماله[١] على أن الـكنيسة كانت لا تستطيع منع تداول هذه المعلومات ودراستها ، ومن ثم لجأت إلى التوفيق بينها وبين اللاهوت حتى لا ينتهى الأمر إلى زعزعة الثقة فى تعاليم الـكنيسة[٢] . ومع أن العصور الوسطى لم تعرف خطاً فاصلا — كالذى نعرفه اليوم — بين مظاهر الدين ومظاهر العلم ؛ إلا أننا يمـكننا تقسيم المجتهدين فى القرن الثالث عشر إلى فريق حصر اهتمامه الرئيسى فى اللاهوت والعقيدة وفريق آخر اتجـــه نحو العلوم[٣] . وعلى رأس الفريق الأول كان اسكندر الهاليسى (Alexander of Hales) والقديس توما الأكوينى ، فى حين برز من الفريق الثانى روبرت جروستست أسقف لنـكولن (ت١١٥٣) ، وميخائيل سـكوت الذى تمتع برعاية الإمبراطور فردريك الثانى والبرت الـكبير Albertus Magnus (ت ١٢٨٠) ؛ وعلى رأس هؤلاء جميعاً يأتى روجر بيـكون (ت ١٢٩٤)[٤] . وهنا تسترعى نظرنا ظاهرتان واضحتان ، الأولى أن معظم هؤلاء الأعلام من المهتمين بالعلوم الجديدة كانوا من الإنجليز — مثل أديلارد الباثى وروبرت الشسترى ودانيل المورلى (Daniel of Morley) وجروستست وروجر بيـكون ؛ فى حين كان ميخائيل سكوت انجليزياً من أصل أيرلندى . أما الظاهرة الثانية فهى أن معظم هؤلاء الأعلام كانوا من منظمة الدومينكان أو منظمة الفرانسسكان ، وإن كان الفارق واضحاً بين هاتين المنظمتين الدينيتين . فبينما كان علماء الدومينكان يغلب

---

(1) Coulton : Life in the Middle Ages, vol 2, pp. 58-62.
(2) Taylor : Med. Mind, vol 2, p. 432-436.
(3) De Wulf - op cit, pp. 256-259.
(4) Dampier - A Hist of Science, p 91.

عليهم طابع المحافظة فى الناحية الفكرية ، والرغبة فى التوفيق بين العلوم القديمه والجديدة للمحافظة على كيان التقاليد والدين ؛ إذا بالفرانسسكان يغلب عليهم طابع التطرف والمغالاة ونقد القديم والثورة عليه[١] .

على أن قصور عقلية العصور الوسطى فى مجال التفسير العلمى حال دون إدراك وحدة الطبيعة ، فالإنسان فى العصور الوسطى اعتقد أن كل شىء له قيمة وأهمية منفصلة عن قيمة أى شىء آخر وأهميته. وكان روجر بيكون هو الذى أدرك أكثر من غيره أن الظواهر الطبيعية جميعها متوافقة ومتآلفة، وهو التآلف الذى يؤدى إلى وحدة الطبيعة ؛ فقال بأن الطبيعيات والكيمياء والفلك والرياضيات تؤدى إلى وظائف مختلفة لشىء واحد هو الطبيعة هذا مع الإعتراف بأن بيكون آمن بكثير من الآراء والمعتقدات التى سادت عصره وأهمها أن الغرض الأساسى من الدراسات العلمية والفلسفية هو خدمة اللاهوت[٢] . ويبدو أن بيكون استقى الإلهام الأول لأفكاره من جروستست الذى أخضع الطبيعيات والكيمياء والفزيولوجيا وغيرها لهندسة الكون . فجميع المظاهر الطبيعية فى نظر جروستست كان يمكن ارجاعها إلى خطوط وزوايا ومسطحات ، والدائرة هى الشكل التام لأن الضوء ينتشر على شكل دائرى[٣] .

أما النتائج التى توصل إليها بيكون — رائد البحث العلمى بمعناه الحديث — فيمكن تلخيصها فيما يلى : أولا . أنه حاول وضع نظام للمعرفة الطبيعية يفوق المستوى الذى كان قائما فى عصره ويعتمد قبل كل شىء على المشاهدة والتجربة ؛ وثانيا أنه أدرك أهمية معرفة اللغات الأجنبية والقديمة فحاول أن يتعلم اليونانية والعبرية على أسس علمية وكذلك العربية . وثالثا أنه طبق أسلوبه

---

(1) Thompson : op. cit, vol 2 p. 785.
(2) Dampier : op. cit., p. 100,
(3) Thorndike : Hist of Magic; vol, 2, p.p. 436-456.

التجريبي فى الوصول إلى نتائج هامة فى البصريات والعدسات والفلك والجغرافيا والرياضيات وغيرها[1] . وهكذا استطاع بيكون أن يتنبأ بإمكان الوصول إلى اختراع سفن تسير بآلات دون حاجة إلى مجداف أو شراع ، وطائرات يحرك الانسان أجنحتها كما يفعل الطير ، ومفرقعات ملتهبة تبيد الجيوش ، وروافع ضخمة لرفع الأثقال ، وعقاقير سامة تبيد الحشرات والهوام ، ومصابيح تضئ دون أن ينفذ وقودها . . . إلى غير ذلك من الاختراعات التى توصل إليها الإنسان فعلا فيما بعدوالتى تثبت أن بيكون رسم للعالم الحديث الطريق الذى سار فيه[1] .

ومن هذا يبدو أن علماء الغرب فى العصور الوسطى لم ينقصهم النشاط الفكرى وإنما أعوزهم التنفيذ العملى . فعلماء العصور الوسطى كانوا أقل جهلا مما نتصور ، فلم يوجد منهم من اعتقد أن الأرض مسطحة ، كما عرفوا سبب خسوف الشمس فى حين قضى أحدهم — وهو أديلارد الباثى — عامين فى دراسة ظاهرة المد والجزر وتوصل إلى نظرية معقولة لهذه الظاهرة ؛ كما قال بمبدأ خلود المادة وعدم فنائها وإن لم يستطع إثبات هذا المبدأ لعدم توافر المعامل والأجهزة أمامه[3] . أما نظريات البصريات والعدسات فقد استقاها علماء الغرب من العرب ، فأفاض روجر بيكون فى وصف العدسات وأهميتها فى تكبير الكتابة ورؤية ما لا يمكن رؤيته بالعين المجردة . هذا فى حين قضى دونس سكوت Duns Scotus شتاء فى باريس فى حساب الاعتدالين مستعيناً بالرياضيات العربية واليونانية[4] .

ومعنى ذلك أن العالم الحديث يدين للعصور الوسطى بكثير من قواعد التقدم العلمى . فالقرن الثالث عشر كان لا يقل عن عصر النهضة الإيطالية فى سرعة التقدم العلمى . وقد بلغت المعرفة العلمية فى القرن الثالث عشر درجة

---

(1) Hearnshaw : Med Contribution ; p p. 142-143,
(2) Thorndike : cit.; vol. 2, p.p. 654-655,
(3) Thompson : op. cit.; vol. 2, p.780,
(4) Ibid.

من الغزارة والتنوع واجتذاب اهتمام الناس ، بحيث أصبح من المتعذر الاكتفاء بمؤلفات بليني وايسيدور . وهنا ظهرت مجموعة من مؤلفى الموسوعات العلمية الضخمة مثل اسكندر نكام Alexander Neckham (١١٥٧ — ١٢١٧) الذى كتب فى « طبيعة الأشياء »[١] ، وبارثلميو انجليسكوس Bartholomew Anglicus الذى ألف فى « خصائص الأشياء » . وفيما عدا هذين الانجليز بين ظهر فنسان الفرنسى Vincent de Beauvais (ت ١٢٦٤) الذى كتب ثلاثة مؤلفات هى « مرآة الطبيعة » و « مرآة العقيدة » و « مرآة التاريخ »[٢] .

ولا يفوتنا فى ختام هذا العرض السريع للتطور العلمى فى العصور الوسطى أن نشير إلى الامبراطور فردريك الثانى (١١٩٤ — ١٢٥٠) الذى كان أكبر راع للعلم والعلماء فى عصره[٣] . وليس هذا مجال الكلام عن شخصية فردريك الغريبة ذات الجوانب المتعددة ، وإنما نكتفى بالإشارة إلى أنه أولع بالبحث عن كل أمر غريب للوقوف على حقيقته ؛ كما شغف بمختلف الدراسات اللغوية والفلسفية والرياضية والفنية والعلمية . . . .[٤] وقد انتهز فردريك فرصة حضوره إلى الشرق للمشاركة فى النشاط الصليبى وأخذ يبحث فى المسائل المتعلقة بالهندسة والفلك والمنطق والبصريات . أما اهتمامه بالطب ووظائف الأعضاء فكان عظيما. وقد حظى برعاية الامبراطور فردريك الثانى عدد كبير من العلماء أشهرهم ميخائيل سكوت الذى دخل بلاط الامبراطور حوالى سنة ١٢٢٧ وكتب له عدة أبحاث فى العلوم الطبيعية والمنطق والفلك والميتافيزيقا والكيمياء[٥] . كذلك اتصل ليونارد البيزى — أشهر علماء الرياضة فى عصره — ببلاط الإمبراطور فردريك وحل عدة مشاكل رياضية فى حضرة الامبراطور ، كما ألف له بعض المصنفات

(1) Gilson : op. cit,; p.p 326-327.
(2) Idem; p 402.
(3) Kantorowicz : Frederick the Second; p.p. 334-336.
(4) Haskins : Studies in Med. Culture; p 124.
(5) Thorndike : op. cit ; vol. 2, pp. 316-317.

الرياضية(١) . وقد اعتاد فردريك الثانى أن ينعم بجوائز سخية على كل عالم يقدم إليه شيئاً جديداً يسترعى انتباهه فى ميدان العلم ، مما جعل منه أكبر راع للدراسات العلمية فى عصره(٢) .

* * *

وهكذا شهدت العصور الوسطى نشاطاً علمياً غزيراً استمر منذ ظهور المسيحية حتى القرن السادس عشر . والواقع أنه يمكن اختيار سنة ١٤٥٣ لتكون حداً فاصلا بين النشاط العلمى فى العصور الوسطى والحديثة ، إذ ظهر فى هذه السنة بحثان علميان قاما على أساس الطريقة العليمة التجريبية بحيث يبدوان أقرب إلى طريقة التفكير الحديثة منهما إلى طريقة العصور الوسطى . أما البحث الأول فقد كتبه رجل بلجيكى اسمه أندرياس فساليوس Andreas Vesalius ويتناول البحث فى تركيب الجسم الإنسانى وبنائه (De Fabrica Corporis Humani) ؛ فى حين كتب البحث الثانى رجل بولنــدى اسمه نيقولا كوبرنيقوس Nicholas Copernicus ويتناول فيه حركة الأجرام السماوية ودورانها ؛ (De revolutionilus orbiun Coelstium)(٣) .

---

(1) Kantorowicz : Fredrick the Second; pp, 341-343
(2) Thompson : op. cit., vol. 2, p.p. 787-790.
(3) Hearnshaw : Med. Contributions; p.p. 111-112.

الباب التاسع

الآداب

التطور الأدبي واللغوي في فجر العصور الوسطى :

لم تقتصر مظاهر ضعف الإمبراطورية الرومانية وانحلالها على ما أصابها من تدهور إداري واقتصادي واجتماعي ، وإنما انعكست صورة هذا الانحلال أيضاً في انحطاط اللغة اللاتينية وغروب شمس الأدب الكلاسيكي القديم[١] . على أنه ربما كان في إطلاق لفظ « انحطاط » على التغيير الذي اعترى اللغة والأدب عند نهاية العصور القديمة شيء من التطرف أو البعد عن الواقع ، إذا نظرنا إلى هذه التغييرات على أنها جانب من التطور العام الذي مرت به أوربا لتلائم اتجاهات العصور الوسطى وحضارتها . فهذه التغييرات إذا يمكن اعتبارها تعويضاً عن الخسائر التي ألمت بالحضارة القديمة ، أو بعبارة أخرى يمكن اعتبارها محاولة لإحلال شيء جديد محل آخر قديم مفقود[٢] .

والواقع أن اللغة اللاتينية تعرضت لتغييرات ضخمة في مدى القرنين ونصف القرن الواقعة بين تاكيتوس (٥٥ ... ١٢٠) وأوغسطين (٣٥٤ — ٤٣٠). ذلك أن انتشار المسيحية في الغرب خلال هذه الفترة لم ينشأ عنه إدخال ألفاظ جديدة من أصل يوناني فحسب ، بل أدى أيضاً إلى استحداث كلمات جديدة وابتكار تعبيرات لم تكن معروفة من قبل لتلائم الآراء والمعتقدات والطقوس الدينية التي أتت بها المسيحية . وقد نجم عن هذا التطور تغيير عظيم أصاب

---

(1) Poole : Med. Thought, p 6

(2) Taylor : The Med Mind; pp. 12-12,

اللغـــة اللاتينية نتيجة لتطرق كثير من الألفاظ العامية والدارجة إلى اللغة الفصحى من جهة ولاستحداث كثير من التعبيرات والـكلمات الجديدة من جهة أخرى[١] . ويبدو هذا الفارق واضحا عند المقارنة بين اللغة اللاتينية الفصحى كما كتبها شيشرون ، واللغة اللاتينية الجديدة أو الدارجة التى استخدمها كتاب العصر المسيحى منذ ترتوليان (حوالى سنة ٢٠٠ فصاعدا) . وهكذا انتهى عصر البلاغة والبيان الذى امتاز فيه الأسلوب اللاتينى باختيار اللفظ وانسجام العبارة واتزان الجملة ، وحل عصر جديد انسابت فيه الـكلمات وفقا لانسياب الأفـكار ، دون عناية باختيار اللفظ أو العمل على تحقيق نوع من الانسجام بين مختلف العبارات[٢] . من ذلك أن الفعل لم يعد يأت فى نهاية الجملة ليختتمها ، كما هو الحال فى اللاتينية الـكلاسيكية ، وإنما صار يأتى حيثما شاء له الفـكر دون مراعاة لأصول الأسلوب . كذلك استخدمت كثرة من الألفاظ للتعبير عن معان لم يستعملها فيها مطلقا كتاب العصر الـكلاسيكى ؛ بل كان من الصعب فهمها على هؤلاء الـكتاب . أما قواعد النحو الـكلاسيكية ، فلم تعد تحظى بعناية كتاب العصر المسيحى الجديد الذين أضروا بها وخرجوا عليها ، بحيث لم يكد يحل القرن الثالث إلا كان هناك نوع من اللاتينية العامية تشبه إلى حد كبير اللاتينية التى سادت غرب أوربا بعد ذلك بثلاثة قرون — إذا استثنينا الألفاظ الدخيلة التى أتت عن طريق الجرمان . وهذه اللاتينية العامية أو الدارجة[٣] هى التى أصبحت فيما بعد أما للغات الرومانيـــة فى أوربا ، وهى اللغات المشتقة عن أصل رومانى لاتينى كالفرنسية والايطالية والأسبانية والبرتغالية . هذا وإن كانت اللغة الجرمانية — التى احتفظت بسيطرتها على الجهات الشمالية من أوربا — قد أسهمت

(1) Foligno : Latin Thought; p. 22.

(2) Thompson : op cit , vol. 2, p. 794.

(٣) عرفت هــذه اللاتينية عادة باسم Lingua rustica أو Lingua vulrgaris أو Lingua plebeis ، وكلها مترادفات بمعنى اللغة العامية أو الدراجة أو الشعبية .

هي الأخرى بألفاظ عديدة فى اللغات الرومانسية،وذلك عن طريق احتلال الفرنجة لغاليا والقوط الغربيين لأسبانيا واللمبارديين لإيطاليا[١] .

وثمة مظهر آخر من مظاهر التأخر الذى أصاب أوربا فى ذلك العصر يتمثل فى تدهور مستوى الخط والكتابة فى المخطوطات أو الوثائق الحكومية المعاصرة. ففى العصور القديمة كانت الكتب تدون على مجاميع من أوراق البردى أطلق عليها اسم (volumina) ، ولكنها منذ القرن الأول الميلادى أصبحت تدون على صفحات من الرقائق الجلدية مقطوعة على هيئة مربعات قائمة الزوايا وأطلق عليها اسم المجاميع أوالكتب المربعة (codices quadrati) . ومعظم المخطوطات التى ترجع إلى العصر الميروفنجى أو القوطى من هذا النوع . أما الخط فكان على ثلاثة أنواع هى الحروف الكبيرة (majuscule) ؛ والحروف البوصية (unical)، والحروف الصغيرة (minuscule) . ولم يلبث أن أدى انتشار الجهل إلى فساد الخط وتعذر قراءته ، فوقع الكتاب فى أخطاء عديدة ، مما أفسد الكتابة إفساداً يبدو بوضوح فى الترجمة اللاتينية للأنجيل فى ذلك العصر[٢] .

أما دعائم هذا الأدب اللاتينى الجديد فقد أرسى قواعدها فى ميدان النثر القديس جيروم فى ترجمته اللاتينية للانجيل (vulgate) ، والقديس أوغسطين فى كتاباته اللاهوتية ، لا سيما « مدينة الله » و « الاعترافات »[٣] . ذلك أن ترجمة الأنجيل اللاتينية لم تؤثر شكليا فى أدب العصور الوسطى لعدة قرون فحسب، بل أثرت أيضا فى تفكير هذه العصور . و يكفى للتدليل على ذلك أن اللاهوت وعلم الكنسيات (ecclesiology) ، والقوانين والتشريعات ، والتاريخ ، تأثرت كلها إلى حد واضح بترجمة الأنجيل اللاتينية . فبعض النظم الكنسية — مثل ضريبة العشور — مأخوذة عن الكتاب المقدس. كما أن الملكيات البربرية التى قامت

---

(1) Taylor - op cit , vol. 2, pp. 250-252

(2) Thompson - vol. 2;794-795.

(3) Taylor : The Med. Mind, vol. 2, p. 180.

فى أوربا العصور الوسطى أخذت بمبادىء الحكومة الثيوقراطية التى وردت عنها أكثر من إشارة فى العهد القديم بوجه خاص[١] . أما القديس أوغسطين فقد وضع فى كتابه « مدينة الله » فلسفة سياسية لأوربا العصور الوسطى ظلت قائمة حتى القرن الثالث عشر[٢] . وتدور هذه الفلسفة حول محور واحد هو أن الكنيسة من عمل الله وأن لها وظيفة مقدسة تبرر سيادتها على السلطة الزمنية ، فى حين أن الدولة من عمل الإنسان ، ولذلك فهى تتصف بالنقص والشر ولابد من خضوعها لنفوذ الكنيسة . وتختلف « الاعترافات » فى طابعها عن « مدينة الله » لأنها عبارة عن ترجمة شخصية روحية تفيض بالزهد والتقوى فى قالب فلسفى يتسم بطابع الأفلاطونية الحديثة[٣] .

وفى هذا الأدب الجديد امتزجت الوثنية والمسيحية ، والدين والدنيا ، والقديم الجديد ؛ مما كان له أبعد الأثر فى النواحى الحضارية والتاريخية . ولم يكد يحل القرن الرابع إلا كان هذا الاتجاه الأدبى الجديد قد شق طريقه حتى تم له الانتصار فى القرن السادس عند ما ظهر بوضوح فى ميدانى النثر والشعر[٤] .

أما الشعر المسيحى فقد أصبح يعتمد على أوزان إيقاعية ، وتخلى عن المقاييس الكلاسيكية المعروفة، الأمر الذى جعل الترانيم والأناشيد الكنسية تمتاز بنوع من الوقع الموسيقى ساعد على انتشارها وبالتالى على انتشار المسيحية بين الشعوب البدائية[٥] . وكان أول من برز من شعراء المسيحية هو الشاعر كومّوديان Commodian الذى عاش قرب منتصف القرن الثالث ، ثم ظهرت بعد ذلك ترانيم القديس امبروز

(١) لأنه يولد لنا ولد ، ونعطى ابنا وتكون الرياسة على كتفه ، ويدعى اسمه عجيبا مشيرا إلها قديرا أبا أبديا رئيس السلام ؟؟
« سفر اشعياء الاصحاح التاسع ، ٦ »

(2) Gilson : op. cit., p. 127.

(3) Eyre : op. cit., p. 806.

(4) Thompson : op. cit., vol. 2, p. 796.

(5) Taylor : op, cit., vol. 2, pp. 216-217.

والأشعار الدينية التي نظمها برودنتيوس . وقد امتاز شعر برودنتيوس هذا — وهو شاعر أسبانى (٣٤٨ — ٤٠٥) بروحه العالية التي تهز المشاعر وتبعث على الأمل وتحث على التواضع[1] . على أن أبدع شعراء المسيحية الأوائل كان القديس بولينوس النولاوى St. Paulinus of Nola (٣٥٣ — ٤٣١) ، وهو مواطن من غاليا قضى حياته قسيساً متواضعاً فى كنيسة سانت فيلكس بنولا فى جنوب إيطاليا . وقد ظهرت فى أشعاره تلك القوة التى فتت من عضد الحكام المضطهدين للمسيحية وأتباعها ، وبثت روحاً قوية فى المسيحية وأنصارها[2] .

ولم تكن جميع الأشعار التى نظمها الشعراء المسيحيون دينية فى موضوعها ، إذ وجد عدد كبير من شعراء القرنين الخامس والسادس كانوا مسيحيين بحكم المولد ، ولكنهم ظلوا وثنيين فى تفكيرهم وتقاليدهم . ومن الغريب أن هذا النوع من الشعراء كانوا جميعهم من غاليا التى ظلت تحتفظ بقسط قوى واضح من التقاليد الكلاسيكية ، على الرغم من خضوعها لسيطرة الفرنجة والقوط الغربيين والبرجنديين[3] . ومن أمثلة هذا النوع من الشعراء أوزونيوس Ausonius فى القرن الرابع (٣١٠ — ٣٩٥) الذى امتازت جميع أشعاره بمذاق كلاسيكى وثنى[4] . وفى القرن الخامس ظهر سيدنيوس أبوليناريس Sidonius Apollinaris الذى عرف بصدق إيمانه حتى تولى منصب أسقف كليرمونت ؛ وعلى الرغم من ذلك فقد اعتاد أن يكتب فى أوقات فراغه رسائل جميلة لأصدقائه تفيض بالاتجاهات الكلاسيكية ، كما خلف مجموعة من الأشعار تعبر عن التقاليد الكلاسيكية والوثنية وإن امتازت بروحها المسيحية الصادقة . ومثل هذا القول ينطبق أيضا على فورتناتوس Fortunatus (٥٣٠ — ٦٠٣) ، وهو شاعر من

---

(1) Waddell : Med. Latin Lyrics, p. 297.
(2) Idem, pp. 291-296.
(3) Paris : Litterature Francaise, pp. 22-23.
(4) Waddell : op. cit., p. 291.

شعراء العصر الميروفنجى قضى حياته فى غاليا يعمل فى بلاط بعض ملوك الفرنجة[١].

أما عن النثر فى هذه الحقبة ، فقد ظهرت مجموعة من الكتاب الذين عالجوا التاريخ والفلسفة والسياسة وغيرها . وأبرز هؤلاء الكتاب سلبكيوس سفروس Sulpicius Severus الذى كان قانونيا غلبت عليه روح الرهبانية ؛ فكتب مؤلفا عن حياة القديس مارتن التورى — الذى عرفه شخصيا — وكان لهذا الكتاب أثر كبير فى انتشار الديرية بالغرب ، فضلا عما امتاز به من أسلوب لاتينى صحيح[٢] أما جريجورى التورى Gregory of Tours فامتازت كتابته بعدم وجود أى أثر فيها للتقاليد الكلاسيكية والوثنية ؛ فهو يمثل العصور الوسطى تمثيلا صادقا فى اللغة والروح . وقد كتب كتابا عن « تاريخ ملوك الفرنجة » يعتبر مصدرنا الأساسى عن تاريخ غاليا فى ذلك العصر ، ويمتاز بأسلوبه اللاتينى الدارج وملاحظاته الطريفة ومعلوماته النافعة[٣] .

وعلى العكس من غاليا ، افتقرت إيطاليا فى القرن الخامس إلى كتاب ملحوظين ، سواء أكانوا مسيحيين أم وثنيين . وربما كان عدم الاستقرار الذى ساد إيطاليا فى ذلك القرن مسئولا عن انهيار الانتاج الأدبى . أما فى القرن السادس — عندما استقرت أوضاع البلاد تحت حكم الملك ثيودريك القوطى — فقد أخذ الوضع يتغير فى إيطاليا . وكان أكبر كتاب ذلك العصر الفيلسوف بيوثيوس (٤٧٠ — ٥٢٥) الذى يعتبر أبرز أدباء الغرب المسيحى بأكمله ، لا إيطاليا وحدها[٤] . ففيه اجتمعت أجمل خصائص التراث الكلاسيكى والتقاليد الوثنية مع مثالية المسيحية وفلسفتها الأفلاطونية . ذلك أنه تهيأت لبيوثيوس عدة صفات جعلت منه شخصية بارزة فى عصره ، إذ كان من رجال

(1) Idem, p. 300.

(2) Thompson : op. cit., vol 2; 798.

(3) Paris : op. cit., p. 27.

(4) Foligno : op. cit. p. 50.

الدولة المبرزين ، كما أنه انحدر من أعرق البيوت الرومانية فى إيطاليا ، هذا زيادة على أنه آمن بالمسيحية إيمانا صادقا عميقا . وقد قدم إلى الفكر الغربي خدمة جليلة بترجمة منطق أرسطو إلى اللاتينية ، فضلا عن الأبحاث الخاصة التى كتبها فى الحساب والهندسة والموسيقى . على أن أعظم ما قدمه للفكر الغربى كان كتابه « سلوى الفلسفة » الذى كتبه وهو فى سجنه . ويشبه هذا الكتاب اعترافات القديس أوغسطين فى أن المؤلف ترجم لنفسه ترجمة روحية فى ضوء الفلسفة المسيحية[١] .

أما كاسيدورس (Cassiodorus) وزير ثيودريك فكان كاتبا من طراز آخر . إذ ألقت رسائله التى كتبها ضوءا ساطعا على أحوال إيطاليا السياسية والحضارية فى عهد القوط الشرقيين[٢] . وقد ألف كاسيدورس كتابا فى تاريخ القوط ، ولكنه فقد ولم يصلنا وكان من المحتمل أن يمدنا بمعلومات قيمة عن تاريخ إيطاليا فى القرن السادس، مثل المعلومات التى أمدنا بها جريجورى التورى عن تاريخ غاليا فى العصر نفسه . وعلى الرغم من أن كاسيدورس لم يكتب شيئا يمكن اعتباره أدبا خالصا ، وأنه لم يكن فيلسوفا أو شاعرا ، إلا أن أثره فى أدب العصور الوسطى لا يمكن إغفاله ، لأنه حاول أن يثبت فائدة العلوم الدنيوية وأهميتها[٣] ، كما أنه قام بتأسيس دير ڤيڤاريوم فى أواخر أيامه ومنح مكتبته الخاصة لذلك الدير ،هذا فضلا عن مثابرته على البحث والكتابة ؛ كما سن سنة طيبة للأديرة والديريين فى المحافظة على التراث الكلاسيكى وفى محاولة تأليف كتب جديدة .

والواقع أنه لم يصلنا من إيطاليا فى العصر القوطى إلا إنتاج مؤرخ واحد هو جوردين Jordanes — صاحب كتاب « تاريخ القوط » . وأهمية هذا

---

(1) Brehier : op. cit., pp. 10-13.
(2) Taylor : op. cit , vol. 2, pp 93-97.
(3) Poole: Med. Thought, p 6.

المؤلف هو أنه أول كاتب من البرابرة يصلنا إنتاجه ، ولذلك أمتاز أسلوبه اللاتينى بالخشونة والضعف ؛ ولكنه — لأول مرة — يدخل الأساطير والقصص الخرافية الجرمانية فى الأدب الغربى(1) .

أما أسبانيا فقد انجبت إلى جانب الشاعر برودنت كاتبا مبرزا — هو أرزيوس Orosius — الذى كان تلميذا للقديس أوغسطين والذى وضع مؤلفا عنوانه « سبع رسائل تاريخية للرد على الوثنيين » وقد حاول فى هذا المؤلف أن يدلل بأمثلة من التاريخ على أن متاعب الانسانية وسقوط الامبراطوريات ليس شيئا جديدا ، وأنه من التعسف أن ينسب المعاصرون المصائب التى حلت بأوربا حينئذ إلى المسيحيين ودياناتهم . وعلى الرغم من أن هذا الكتاب لا يعتبر تاريخا حقيقيا إلا فى الجزء الأخير منه فقط ، الذى ينتهى بحوادث سنة ٤١٧ ، والذى تنحصر أهميته التاريخية فى علاج الأحداث المعاصرة ، إلا أنه حصل على شهرة واسعة فى العصور الوسطى(٢) . وفى الوقت الذى بلغت قوة القوط الغربيين ذروتها فى أسبانيا ، ظهر إيسيدور أسقف أشبيلية (ت ٦٣٦) الذى امتاز بأسلوبه الخصب البارع(٣) .

على أن معين الغرب أخذ ينضب فى الفترة الواقعة بين القرنين الرابع والسادس ، بحيث لم يبق من التراث الكلاسيكى إلا بصيص خافت من النور عند نهاية القرن السادس ، كما اعترف بذلك جريجورى التورى نفسه . وفى الوقت الذى كان جريجورى التورى يكتب تاريخه فى غاليا (٥٣٨ — ٥٩٤) ، أخذ البابا جريجورى الأول أو العظيم (٥٩٠ — ٦٠٤) يوجه كل جهوده وإمكانيات منصبه نحو الوعظ والإرشاد وحياة القديسين والأبحاث اللاهوتية ،

---

(1) Thompson : op. cit., vol 2, p. 799.
(2) Taylor : op. cit. pp. 82-83.
(3) Foligno : op. cit., pp 25-26.

صارفا بصره — وأبصار من حوله — عن الكلاسيكيات[١] . ذلك أن هذا البابا كان معاديا للتراث الكلاسيكي الذى أوشك أن يزول فى ذلك الوقت لولا جهود الرهبان الايرلنديين فى حفظ هذا التراث[٢] . وقد بدأ غروب الأدب الكلاسيكى سنة ٥٢٩م على وجة التحديد ، وهى السنة التى أغلق فيها جستنيان مدارس آثينا الفلسفية القديمة ، كما أسس فيها القديس بندكت ديره المعروف فى مونت كاسينو[٣] . ومنذ ذلك الوقت أخذ نجم الدراسات الكلاسيكية فى الأفول سريعا من غرب أوربا .

ولكن شاء حسن حظ الحضارة الأوربية أن يحظى الأدب اللاتينى الكلاسيكى فى ذلك العصر ببعض المريدين والأنصار على الرغم من روح العداء التى أحاطت به من كل جانب . ذلك أنه لا يوجد شك فى أن الكنيسة ودت حينئذ لو أنهار بناء الأدب الكلاسيكى بأكمله لأنه وثنى الأصل؛ بل وجد فعلا من زعماء الكنيسة — مثل جريجورى العظيم — من كان يرجو أن تمكنه الظروف من تحقيق ذلك . ولكن إعجاب المعاصرين بسحر الأدب الكلاسيكى وسمو مستواه ، ساعد على حفظ ذلك التراث من الضياع[٤] . هذا إلى أن الطبقة المثقفة فى المجتمع الأوربى رغبت فى حماية هذا التراث الرومانى القومى من جهل البرابرة الذين تدفقوا على غرب أوربا وهددوا حضارته بالضياع فى القرنين الخامس والسادس . ويبدو أن هذه الرغبه فى إنقاذ ما يمكن إنقاذه من تراث الماضى حركت مشاعر المثقفين من المسيحيين والوثنيين على حد سواء ، حتى استطاع رجال مثل كاسيدورس وايسيدور أن يعقدوا اتفاقية ضمنية بين الكنيسة والآداب الدنيوية[٥] .

---

(1) Poole : Med. Thought, p. 7.
(2) Cam, Med. Hist, vol 3, p. 501.
(3) Vasiliev : op. cit.; Tome 1, p. 198.
(4) Thompson : op, cit., vol. 6, p, 806.
(5) Hall : Introduction to the Study of Classical Texts, pp. 68-71.

وفى الوقت الذى أصيب الأدب اللاتينى بفتور فى القرن السابع وأوائل الثامن ظهرت نهضـــة عظيمة فى أيرلند تزعمتها الـكنيسة والأديرة الأيرلندية ، وقدر لها أن تحفظ الـكثير من مظاهر التراث الأدبى الـكلاسيكى من الضياع[1] . وهكذا استطاعت أيرلند أن تحمل مصباح المعرفة فى ذلك العصر المظلم الذى انتشرت فيه الفوضى ومظاهر عدم الاستقرار فى بلاد غرب أوربا[2] . وسرعان ما أدى حب الأيرلنديين للهجرة إلى انتشار نهضتهم وذيوعها فى البلاد المجاورة ، لا سيما بعد أن أسسوا أديرة شهيرة فى صلب القارة ظلت محورا للنشاط الفـكرى عدة قرون . وقد بلغت هذه الحركة ذروتها فى القرن الثامن على عصر بدى (٦٧٥ — ٧٣٥) ، وهو الأديب الفذ الذى يمثل عصرا اكتملت فيه صورة الأدب اللاتينى فى العصور الوسطى[3] . ولم تمض أيام على وفاة بدى حتى ولد ألـكوين (٧٣٥ — ٨٠٤) الذى يعتبر حلقة الوصل بين النشاط الفـكرى فى أيرلند و بريطانيا من ناحية وغاليا و بقية الغرب من ناحية أخرى ؛ والذى كان أبرز أعلام النهضة الـكبيرة التى تعهدها شارلمان بالرعاية فى أواخر القرن الثامن .

النهضة الـكارولنجية :

والواقع أن الفضل يرجع إلى النهضة الـكارولنجية فى إنقاذ الأدب اللاتينى من الهوة السحيقة التى تردى فيها فى القرن السابع ، كما أنها منحته قوة دافعة ظهر أثرها بعد ذلك فى النهضة الأوتيه أو السكسونية فى ألمانيا وفى المدارس الديرية العظمى التى ازدهرت فى القرنين التاسع والعاشر . وهنا نسجل أن الانحلال السياسى الذى تعرض له غرب أوربا فى القرن التاسع لم يصحبه — لحسن الحظ — تدهور فى الدراسات الأدبية ، الأمر الذى جعل القرنين التاسع

(1) Cam Med. Hist., vol. 3, pp. 501-506.

(2) Poole : op. cit., p. 8.

(3) Eyre : op. cit., vol. 2, p. 368.

والعاشر يحتفظان بمستوى ثقافى لائق فى الدراسات الأدبية كالتاريخ والشعر[1] .

وقد جمع شارلمان حوله — فى بلاطه بمدينة آخن (اكس لاشابل) — أبرز علماء عصره الذين أجتذبهم من بلاد أوربا مثل ألكوين من إنجلترا وبولس اللمباردى وبطرس البيزى وثيودلف الأورليانى ورابان مور مقدم دير فولدا ؛ هذا فضلا عن سكرتيره اينهارت ومساعده إنجلبرت[2] . وامتازت النهضة الكارولنجية باتساع أفقها وصبغتها التعليمية ، وتغلب الطابع الدينى عليها . واحتل التاريخ والتدوين التاريخى ركنا هاما من هذه النهضة ، فكتب بولس اللمباردى « تاريخ اللمبارديين » ، كما كتب اينهارت « تاريخ حياة شارلمان» . ويعتبر الأخير من أهم كتب التراجم فى العصور الوسطى على الرغم من تقيد المؤلف بمنهج المؤرخ الرومانى سيتونيوس Suetonius (٦٩ — ١٤١) فى تراجمه لأباطرة الرومان[3] . وقد أصبحت هذه الترجمة التى وضعها إينهارت لحياة شارلمان مثلا يحتذى فى الكتابات التاريخية المعاصرة ، حتى أن ثلاثة من الكتاب قاموا بوضع تراجم لحياة لويس التقى ، ابن شارلمان وخليفته[4] .

وهناك جانب آخر من الكتابات التاريخية هو الحوليات التى مهدت فى العصر الكارولنجى لمولد نوع جديد من التدوين التاريخى ، قدر له أن يظل قائما حتى نهاية العصور الوسطى . ذلك أن هذه الحوليات لم تكن مجرد وقائع وصفية ، وإنما كانت — كما يبدو من اسمها (annals) — سرداً لأهم أحداث السنوات المتعاقبة ، كل سنة على حدة . وقد نشأ هذا النوع من التدوين التاريخى لأول مرة فى الغرب فى نورثمبرلاند بانجلترا حيث جرت العادة فى الأديرة بتدوين الحوادث الكبيرة أولا فأولا . ومن المحتمل أن يكون ألكوين هو الذى نقل هذا

---

(1) Thompson - op. cit., vol. 2, p. 801.

(2) Waddell : The Wandering Scholars, p. 30.

(3) Cam. Med. Hist., vol. 3, p. 517.

(4) Lavisse : op. cit., Tome 2, Livre 1, p. 347.

الأسلوب إلى غاليا ، حيث آمن شارلمان بأهميته فأمر الأديرة باتباعه فى تدوين حوادثها[1] . وكانت هذه الحوليات صغيرة ، قليلة الأهمية فى الأديرة الصغيرة إذ أنها لم تتعد ذكر الأحداث المحلية ؛ ولكنها صارت فى الأديرة الكبيرة — مثل دير لورخ Lorsch ودير سانت برتن St. Bertin — على جانب كبير من الأهمية وغزارة المادة التاريخية . وإلى جانب هذه الحوليات الديرية ، وجد نوع آخر عرف باسم الحيوليات الملكية (Annales Royales) التى دونت تحت إشراف رجال البلاط ، وتناولت تاريخ الكارولنجيين منذ تقسيم شارل مارتل لمملكته بين أبنائه . كذلك لم تهمل الكتابات التاريخية فى العصر الكارولنجى سير القديسين ؛ هذا زيادة على الكتب التاريخية المتعددة التى تناولت أخبار الحروب والحوادث مثل كتاب « تاريخ الحروب الأهلية » لمؤلفه نيثارد Nithard فى القرن التاسع[2] .

وإذا كان الشعر قد فاق النثر فى العصر الكارولنجى ، فإن هذا التفوق لم يكن فى الجودة بقدر ما كان فى الكثرة ، لأن الاتجاه السائد غلب استعمال الشعر فى مختلف شئون الحياة ، حتى أن معظم الأدباء المعاصرين — مثل بولس وألكوين وانجابرت وثيودلف قرضوا الشعر . كذلك خلف لنا ذلك العصر نحو سبعين أو ثمانين قطعة شعرية من أغانى المآثر — Chansons de Geste — التى تناول بعضها أعمال شارلمان أو أحداثا هامة تمت فى عهده[3] . على أن الطابع الغالب على الشعر الكارولنجى كان دينيا لأن معظم ناظميه كانوا من رجال الكنيسة ، زيادة على أن شعراء ذلك العصر استلهموا أشعارهم من شعراء المسيحية مثل برودنتوس وفورتناتوس[4] . وكان أبرز شاعرين فى العصر الكارولنجى

(1) Thompson : op. cit , vol, 2, p, 802
(2) Taylor : op, cit., vol. 1, p p. 234-235,
(3) Cam. Med. Hist., vol. 6, p.p, 816-824.
(4) Paris : op. cit., p p. 48-50.

على الإطلاق — سواء فى الشعر الدينى أو الدنيوى — هما والفرد سترابو Walafrid Strabo (٨٠٩ — ٨٤٩) أحد رهبان دير ريخنو ، وسدوليوس سكوت Sedulius Scotus (٨٤٨ — ٨٧٤) ، وهو راهب أيرلندى استقر فى لييج . وقد كتب الأول فى شعر الحكمة والشعر الغنائى ورسائل دينية منظومة ، كما خلف قطعة رائعة عنوانها « وصف الحديقة hortulus » وصف فيها حديقة دير ريخنو[1] . أما الثانى فقد ألف باقة من الأغانى الجميلة (Carmina) امتاز بعضها بدقة النظم — مثل « الحوار بين الوردة والزنبقة » — والبعض الآخر من أغانى الشراب التى تجلت فيها شخصية هذا الراهب الأيرلندى المرحة . على أن أهم ما قام به سدوليوس سكوت ، كان ترجمة بعض أجزاء من الإنجيل فى قالب شعرى ؛ وما زالت بعض هذه الأشعار الدينية تستخدم فى ترانيم الكنيسة حتى اليوم[2] . ومهما كان الأمر فإنه يؤخذ على شعر العصر الكارولنجى بعده عن الحياة العامة ، وضعف الصلة التى تربطه بالحياة الشعبيه ؛ هذا بالرغم من وفرة هذا الشعر وغزارته[3] .

ولعل خير ما يصور لنا مدى العناية بالأدب الكلاسيكى فى القرن التاسع هو أن عدد ما وصل إلينا من المخطوطات الكلاسيكية — التى يرجع أصلها إلى العصور القديمة والتى أعيد نسخها فى القرن التاسع - بلغ سبعا وثلاثين وثلثمائة — مخطوط ؛ فى حين أنه لم يصل إلينا من هذا النوع من مخطوطات القرن العاشر سوى مائة وخمسة عشر مخطوطا ، ومن القرن الحادى عشر سوى ستة وخمسين مخطوطا[4] . وكان رائد هذه الحركة العظيمة هو ألكوين ، الذى أخذ يعمل فى جد ونشاط لتصحيح المخطوطات القديمة وتنظيمها و إعادة نسخها مصححة

---

(1) Waddell : The Wandering Scholars, p. 32.
(2) Waddell : Med. Latin Lyrics, p.p. 319-320.
(3) Haskins : The Renaissance of the Twelfth Century, p. 153.
(4) Thompson : op. cit., vol. 2, p. 802.

وذلك بعد أن تعرضت هذه المخطوطات فى الفترة الواقعة بين القرنين السادس والثامن للإهمال والتحريف والضياع[1] . ويعتبر أهم ما قام به ألكوين فى هذا الباب مراجعة الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس مراجعة دقيقة شاملة . أما سرفاتوس لوبوس Servatus Lupus — مقدم دير فريير — فكان أعظم المهتمين بالآداب الكلاسيكية اللاتينية فى القرن التاسع ، كما أن رسائله التى كتبها فى هذا الموضوع ألقت ضوءا ساطعا على هذه الآداب[2] .

وفى وسط هذه التيارات الكنسية والكلاسيكية ، ظل الأدب الجرمانى القومى يحاول أن يشق لنفسه طريقا ولو ضيقا. ومن المعروف أن شارلمان كان جرمانيا بحكم أصله وطبيعته ، ولذلك لا نعجب إذا حرص على الاحتفاظ بمجموعة من الأغانى والأشعار الجرمانية ، كما حاول أن يجمع قواعد اللغة الجرمانية ، بل أطلق على الرياح والأشهر أسماء جرمانية[3] . أما الأغانى الجرمانية ، فكانت حينئذ عبارة عن مجموعة من أناشيد الحب والحرب والمغامرة ، ولكن الكنيسة اعتبرت هذه الأغانى صورة من صور الوثنية ، فوقفت منها موقفا معاديا ، حتى أحرقها لويس التقى — خليفة شارلمان — وبذلك حرمنا من هذا المصدر القيم للاداب الجرمانية وأصولها اللغوية .

القرن العاشر :

رأينا من كلامنا السابق عن النهضة الكارولنجية أن هذه النهضة اقتصرت على غاليا وجزء من ألمانيا ، وهى الجهات التى كانت تمثل قلب الإمبراطورية الفرنجية. ولكن حدث فى القرن العاشر ، عندما نهضت ألمانيا فى ظل الأسرة السكسونية

---

(1) Guizot : Hist. de la Civilisation en France, Tome 2, p. 185.

(2) Thompson : op. cit, vol. 2, p. 802.

(3) Taylor : op. cit, vol 2, p. 249

أن انتقلت النهضة الأدبية إلى شمال ألمانيا حيث ازدهرت فى أديرتها[١] . ذلك أن الإمبراطور أوتو العظيم لم يعمل على اقتفاء أثر شارلمان فى الجانب السياسى فحسب، بل أيضا فى الجانب الحضارى ، مما أدى إلى ازدهار الثقافة فى ألمانيا . وكان رائد هذه الحركة الفكرية برونو Bruno رئيس أساقفه كولونيا ، الذى أظهر اهتماما بالغا بتشجيع العلم والثقافة ، كما دفعه شغفه بعلوم القدماء إلى تعلم اللغة اليونانية من الرهبان الأيرلنديين فى ألمانيا[٢] . وهكذا تمخضت النهضة الأوتية أو ـ السكسونية ـ عن بضعة أعلام مثل ويدوكند Widukind مقدم دير كورفى وأمهر كتاب التاريخ فى ألمانيا ، وهورتسويثا Hortswitha التى دونت مجموعة من القصص الدرامية فى أسلوب لاتينى على درجة كبيرة من الجودة والنقاوة جعلت علماء النهضة الإيطالية فى القرن الخامس عشر يشكون فى صحة نسبة هذا الإنتاج إليها[٣] .

أما إيطاليا التى لم يبرز فيها كاتب ملحوظ فى القرن التاسع ـ باستثناء أنسطيوس السكتبى الذى كان متعالما أكثر منه عالما ؛ فقد شهدت فى القرن العاشر موهبة فذة فى شخص ليتوبراند أسقف كريمونا، الذى بلغ من إجادته لليونانية أن أختاره الإمبراطور أوتو الأول مبعوثا إلى القسطنطينية . وقد ترك ليتوبراند هذا عدة أبحاث بعضها فى وصف الحياة والعادات فى الدولة البيزنطية ، والبعض الآخر عبارة عن خليط بين المعلومات التاريخية والجدل والهجاء والدعابات الفكاهية[٤] . والواقع أن ليتوبراند كان أبرز أديب مثقف فى عصره ، وقد اشتهر بتعليقاته اللاذعة مثل قوله بأن الإيطاليين « مغرمون دائما بحب سيدين (يقصد البابا والإمبراطور) ، وهم لا يتظاهرون بحب أحدهما إلا لأنهم يكرهون الآخر ! »[٥] .

---

(1) Poole : Med. Thought, p. 74.

(2) Waddell : The Wandering Scholars, p. 66.

(3) Foligno : Latin Thought, p.p. 92-93.

(4) Taylor : op. cit., vol. 1, p.p. 257-258.

(5) Thompson : op. cit., vol. 2, p. 803.

أما فرنسا فكانت فقيرة فى الإنتاج الأدبى فى القرن العاشر؛ ولم يبرز فيها سوى مؤرخين أحدهما فلودورد Flodoard صاحب حوليات ريمس (٩٢٣ — ٩٦٦)؛ والثانى ريتشر Richer مؤلف « أربع رسائل فى التاريخ » . وقد امتاز الأول بالأمانة والدقة فى كتابته ، فى حين حاول الثانى أن يؤرخ لإنقلاب سنة ٩٨٧ الذى أدى إلى قيام أسرة كابيه ، كما استعمل خليطا من الإصطلاحات والألفاظ الفنية والحربية والإدارية ، مما جعل أسلوبه اللاتينى من الصعوبة بمكان[1] .

القرن الحادى عشر :

أما القرن الحادى عشر فقد شهد تطورات سياسية خطيرة فى أوربا ؛ مثل انتشار حركة الإصلاح الكلونية والنزاع حول التقليد العلمانى بين البابوية والإمبراطورية ، وازدياد نفوذ البابوية فى السياسة الأوربية ، وغزو النورمان لصقلية وجنوب إيطاليا فضلا عن غزوهم لإنجلترا ، والحروب الصليبية . . . ويبدو أن هذه الأحداث العظيمة كان لها أثرها فى صرف أنظار المعاصرين عن الأدب والنشاط الأدبى ، بحيث لم يخلف لنا ذلك القرن شيئا يستحق الذكر سوى ما تركه فى ميدان الدراسات التاريخية[2] . أما أبرز المؤرخين فى ذلك العصر فهو آدم البرمنى Adam of Bremen الذى ألف كتاباً عنوانه « أعمال رؤساء أساقفة هامبورج » . ويحوى هذا الكتاب معلومات تاريخية هامة عن شمال ألمانيا ، وبصفة خاصة العناصر السلافية الرابضة على نهر الإلب . كذلك ألف آدم كتاباً آخر تناول فيه أحوال سكندناوة وأيسلند وجرينلند فى تلك العصور ، وهو يعتبر مصدراً أساسياً لأحوال هذه البلاد حينذاك من النواحى التاريخية والجغرافية

---

(1) Waddell : The Waudering Scholars, ps. 68, 73.

(2) Thompson : op. cit., vol 2. p. 804.

والبشرية والاقتصادية(١) .وفى عهد الامبراطور هنرى الرابع كتب راهب اسمه برونو كتابا عنوانه « تاريخ ثورة سكسونيا » ، وهو يمتاز بالدقة والأمانة . كذلك دونت فى ألمانيا فى القرن الحادى عشر عدة تراجم هامة تناولت بوجه خاص حياة مشاهير الأساقفة . أما فرنسا و إيطاليا فقد ظهرت فيهما وقتئذ بعض الكتابات التاريخية التى تناولت حياة كبار الشخصيات المعاصرة — مثل ماتيلدا أميرة تسكانيا — أو الأحداث الهامة — مثل غزو النورمان لجنوب إيطاليا — ، أو أخبار بعض كبار الأمراء الإقطاعيين فى فرنسا مثل أمراء بيت أنجو(٢) .

القرن الثانى عشر :

على أن أحداث القرن الثانى عشر ، وما ترتب عليها من يقظة شعوب غرب أوربا من جهة ، وزيادة الاتصال مع المسلمين فى الشرق والغرب من جهة أخرى أدت إلى إثارة نهضة كبيرة فى مدارس غرب أوربا(٣) .

وقد احتل النشاط الأدبى والدراسات الإنسانية جانبا أساسيا من هذه النهضة الفكرية والعلمية الجديدة التى أخذت تظهر منذ نهاية القرن الحادى عشر لتتطور فى القرن الثانى عشر . وهكذا تم إحياء الأدب اللاتينى الكلاسيكى على الرغم من الفتور الذى أصاب دراسته فى القرن العاشر(٤) ، وسارت العناية بالدراسات الأدبية الكلاسيكية جنبا إلى جنب مع المعارف الجديدة فى العلوم والرياضيات والفلسفة والطب والقانون وغيرها . وقد بدأت حركة إحياء الأدب الكلاسيكى — كما هو الحال فى البحث العلمى — على يد جربرت الريمسى Gerbert of Reims ثم انتقلت من ريمس إلى شارتر على يد تلميذه الأسقف فلبرت Fulbert (٥)

---

(1) Beazley : The Dawn of Modern Geography, vol. p, 9.

(2) Thompson : op. cit,, vol. 2, p.p. 804-805.

(3) Eyre : op. cit., p.p. 269-270.

(4) Haskins : The Renaissance of the Twelfth Century, p. 115.

(5) Poole : op. cit., p. 98.

وكان هلدبرت Hildlert اسقف تورز شاعراً لاتينيا موهوبا ، بلغ من سلامة أسلوبه وجمال تعبيره أن علماء النهضة الإيطالية شكوا فى صحة نسبة أشعاره إليه ، حتى قال بعضهم بأن هذه الأشعار لا بد أن تكون نماذج من الشعر الكلاسيكى استكشفت فى القرن الحادى عشر(١) . حقيقة إنه وجد فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر بعض ذوى الآفاق الضيقة من رجال الدين حاولوا اقتفاء سياسة البابا جريجورى العظيم فى أواخر القرن السادس ، فنادوا بمحاربة الأدب الكلاسيكى وإعدامه بحجة أنه مظهر من مظاهر الوثنية ؛ ولكن هؤلاء كانوا قلة ولم يصبحوا خطراً حقيقياً على الأدب الكلاسيكى(٢) . أما الخطر الذى هدد الأدب الكلاسيكى فى القرن الثانى عشر فقد أتى نتيجة لمنافسة منطق أرسطو والاتجاه العملى الجديد فى الحياة الفكرية ، مما لم يترك مجالا واسعاً للدراسات الأدبية الكلاسيكية(٣) . ومع أن إحياء الدراسات الكلاسيكية كان أضعف مظاهر نهضة القرن الثانى عشر ، إلا أن ذلك الإحياء لم يذهب كلية تحت ضغط الفلسفة والعلوم الجديدة ، فقد ظهرت كتابات لاتينية تسترعى الانتباه مثل رسائل أبيلار وأشعار هلدبير ومؤلفات حنا سالسبورى وكلها تستحق الإعجاب والتقدير(٤) ..

أما مراكز العناية بالدراسات الكلاسيكية فكانت الأديرة البندكتية بحكم أقدميتها وانتقال تراث النهضة الكارولنجية إليها من ناحية ، وبحكم أنها لم تشارك المنظمات الديرية الجديدة فى الاهتمام بالحركات المتعلقة بإصلاح الكنيسة ولم تقحم نفسها فى التيارات السياسية المعاصرة من ناحية أخرى . وهكذا ظلت الأديرة البندكتية بمثابة المستودع الأساسى للدراسات الكلاسيكية حتى ورثتها

(1) Pirenne, Cohen, Focillon : op cit., p. 206.
(2) Haskins : The Renaissance of the Twelfth Century, p p. 96-98.
(3) Ibid.
(4) Thompson : op. cit,, vol. 2, p. 809.

المدارس الاسقفية فى هذه المهمة ،وأصبحت الأخيرة مركزاً للدراسات الكلاسيكية وغير الكلاسيكية من العلوم الجديدة[١] .

وقد احتل إنشاء الرسائل Epistolary Composition المكانة الأولى فى ميدان البلاغة فى ذلك العصر ، عندما ازدهر فن كتابة الرسائل فى بولونيا — أعظم مدارس القانون فى العصور الوسطى — ثم انتقل بعد ذلك إلى فرنسا حيث وجد بيئة صالحة فى مدرسة أورليان . وتمثل الرسائل التى كتبت حينئذ فى تورز وأورليان نوعا راقياً من النثر اللاتينى البليغ ، و بخاصة تلك التى ترجع إلى عهد فيلب أوغسطس (١١٨٠ — ١٢٢٣) والتى تناولت محاورات خيالية بين الشتاء والربيع ، وبين الروح والجسد ، وبين الإنسان والشيطان ... ولا تقتصر أهمية هذه الرسائل على ما بلغته من مستوى رفيع فى البلاغة ، بل ترجع هذه الأهمية أيضاً إلى ما تلقيه من ضوء ساطع على أوضاع العصر الذى دونت فيه[٢] .

أما الشعر اللاتينى فقد بلغ فى القرن الثانى عشر درجة كبيرة من الرقى والكثرة والتنوع . و يبدو أن هذا الشعر تأثر إلى حد واضح بالشعر الكلاسيكى من ناحية ، وبالطابع الدينى من ناحية أخرى . فالأثر الكلاسيكى يبدو واضحاً فى أشعار هلدبير (ت ١١٣٣) ، وبخاصة القصيدتين اللتين نظمهما عن روما وأبدى فيهما أسفه لزوال مجدها القديم ، كما أضفى عليها آيات التبجيل فى عصره لقيام البابوية فيها[٣] . أما الطابع الدينى فيبدو فى أشعار أبيلار ومار بود ، فضلا عن كثير من الأشعار الدينية التى تناولت قصصاً من الإنجيل وسير القديسين وغيرها من الموضوعات الدينية . ويحتل هؤلاء الشعراء الثلاثة مكانة كبيرة فى ميدان النشاط الأدبى فى القرن الثانى عشر ، إذ يعتبر هلدبير أعظم شعراء عصره وعالج

---

(1) Rashdall : Med. Universities, vol. 1, p.p. 43-44.
(2) Haskins : The Renaissance, p p. 142-148.
(3) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit., p. 206.

معظم فنون الشعر كالرثاء والمديح والموضوعات الدينية والخلقية . أما أبيلار (١٠٧٩ — ١١٤٢) فكان شاعراً مجيداً إلى جانب كونه من رجال الدين الذين اشتغلوا بالفلسفة ؛ وقد نظم كثيراً من الأشعار الدينية فضلا عن بعض الأناشيد التى تدل على عقلية ممتازة(١) . وأخيراً يأتى ماربور Marbode (١٠٣٥ — ١١٢٣) الذى تنسب إليه بعض الأشعار الدينية بالاضافة إلى أشعار أخرى تمجد الشباب والحب والنساء(٢) .

ومن الواضح أن أخصب أنواع الشعر فى العصور الوسطى كانت الترانيم والأغانى . أما الترانيم الدينية فقد امتاز أسلوبها بالتفخيم وانتقاء الألفاظ الكفيلة بأن تضفى رداء من المهابة والجلالة على الحياة الدينية ، فى حين دار معظم موضوعات هذه الترانيم حول القصة الأزلية المتعلقة بالله والإنسان كما جاءت فى العهدين القديم والجديد(٣) . وأما الشعر الغنائى فقد ظهر منه نوع يعبر عن العواطف الإنسانية وروح حب الطبيعة والتعلق بجمالها . وقد أطلق على هذا النوع من الشعر اللاتينى الغنائى اسم الشعر الجلياردى (Goliardic lyric poetry) نسبة إلى شخصية غامضة مجهولة اسمها جولياس (Golias) اعتقد المعاصرون أنها مصدر الإلهام الروحى للشعراء الجلياردييين(٤) . ومهما كان الأمر فإن هذا الشعر امتاز بطابعه الدنيوى وروحه الفكاهية الخفيفة التى غلبت عليها الرغبة فى الاستمتاع بلذات الحياة من شباب وخمر ونساء(٥) . ولما كان الشعر الجلياردى يتعارض مع آراء الكنيسة ورجال الدين تعارضاً حاداً ، فإن الشعراء الجلياردييين وقفوا موقفاً عدائياً من رجال الدين — كبيرهم وصغيرهم — واتخذوهم

---

(1) Waddell : Med. Latin Lyrics, p.p. 162-169 & 336

(2) Pirenne, Cohen, Focillon, op. cit , p. 206,

(3) Paris : Litterature Francaise au Moyen Age, p 146.

(4) Thompson, vol. 2, p. 807.

(5) Symonds : Wine, Women and Songs, p. 191 & Haskins : The Renaissance, p. 187.

موضوعا لسخريتهم ونقدهم اللاذع ؛ حتى المسيح والبابوية وفروض الدين لم تسلم من تهكمهم وهزلهم ؛ الأمر الذى سبب فزعا كبيرا للكنيسة فعقدت عدة مجامع دينية لتحريم هذا النوع من الشعر وإنزال اللعنة بأصحابه[1] . وكان هذا التطاول على الكنيسة ورجالها ومحاولة النيل منها وهدم نظمها ، من العوامل التى جعلت رجال حركة الإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر يعتمدون على الأشعار الجلياردية فى إثبات مفاسد نظام الكنيسة الكاثوليكية[2] .

ويبدو أن معظم الشعراء الجليارديين كانوا من طلبة العلم الجائلين الذين أخذوا يتنقلون فى ذلك العصر من مدرسة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر ، يرددون شعرهم الفكاهى ويجدون فيه بعض السلوى عن متاعب الحياة ومشاقها[3] . وقد حفظ لنا التاريخ اسمين من أعلام الشعر الجلياردى نسبت إليهما كثير من المقطوعات الشعرية الخفيفة . أما الأول فهو هيو الأورليانى (١٠٩٠ — ١١٥٠) الذى تعلم فى باريس ثم علم فيها ، حتى انتقل إلى شمال فرنسا بعد أن فقد ثروته ومنصبه فأخذ يخفف عن نفسه بهذا النوع من الشعر الفكاهى الذى تجلت فيه شخصيته ومواهبه . وقد ساعد على نبوغه فى الشعر تعمقه فى الدراسات الكلاسيكية وإحاطته بأوزان الشعر اللاتينى الكلاسيكى[4] . وأما الشاعر الثانى من أعلام الشعر الجلياردى فنجهل اسمه الحقيقى ، وإن كان من الثابت أنه خلف جولياس فى زعامة هذه المدرسة الشعرية الفكاهية ، حتى أطلق عليه فى المراجع لقب الشاعر الأول أو أمير الشعراء Archipoeta (ت ١١٦٠)[5] . وكل ما نعرفه

---

(1) Waddell : Wandering Scholars, pp 260-268

(2) Symonds : Wine, Women and Songs, p p. 7.

(3) Pirenne, Cohen, Focillon : op cit, p. 207.

(4) Haskins : The Renaissance, 179.

(5) Waddell : Med. Latin Lyrics, pp. 338-340 .

عنه هو أنه كان معاصرا لفردريك بربروسا واشتغل فى بلاطه ، كما امتازت أشعاره بالأحكام والتنوع وخفة الروح[١] .

الآداب الشعبية والمحلية :

على أننا إذا كنا فى كلامنا عن الأدب الغربى فى العصور الوسطى قد التزمنا جانب الأدب اللاتينى ، بحكم بقاء اللاتينية لغة الكنيسة والمتعلمين ، فليس معنى ذلك أن عامة الناس لم يكن لهم أدب شعبى خاص بهم[٢] . ذلك أن طبقة العامة فى غرب أوربا لم تعرف اللاتينية الفصحى ، وإنما عرفت اللغة التى توارثها الناس عن أجدادهم — سواء كانت هذه اللغة لاتينية دارجة أم جرمانية — هذا مع ملاحظة أن اللغات الوطنية المحلية (vernacular) لم تنهض لتعبر عن النشاط الأدبى قبل القرن الحادى عشر[٣] . وحتى قيام اللغات المحلية بهذه المهمة كان لعامة الناس — من سلالة العناصر الجرمانية والكلتية — آدابها الشعبية ، ولكنها كانت آدابا غير مكتوبة ، تتألف من أغان وقصص وأساطير يتناقلها الناس شفاها ويتوارثها الخلف عن السلف . والواقع أنه مهما بلغت بدائية شعب أو قوم ، فإن لكل شعب مقدرته على التعبير التصويرى الذى قد يبدو لنا تافها وبسيطا ولكنه لا يخلو من جمال فطرى[٤] .

ويلحظ المتتبع للادب الغربى فى النصف الأخير من القرن الثانى عشر أن هذا الأدب لم يعد لاتينيا خالصا . ذلك أن تيار اللغات المحلية — أو الوطنية — أخذ يقوى ويشتد فى ذلك العصر ، تمهيداً لظهور اللغات الحديثة الخاصة بمختلف

(1) Haskins : The Renaissance, p. 181.
(2) Paris : Litterature Française au Moyen Age, pp. 2-3.
(3) Thompson : op. cit., vol. 2; p. 809.
(4) Waddell : Poetry in the Dark Ages; p. 7.

بلدان غرب أوربا ؛ الأمر الذى يجعل من النصف الأخير من القرن الثانى عشر مرحلة انتقال من الأدب اللاتينى الخالص إلى الآداب الوطنية الناشئة[١] .

و يمكن تقسيم المصادر التى نبعت منها الآداب المحلية فى العصور الوسطى إلى ستة ؛هى التراث الكلاسيكى القديم، والإنجيل، والجرمان،والسكانت، والفيكنج، والمسلمون ومن شابههم من العناصر الشرقية. ومع أن هذه المجارى الفكرية المنفصلة تداخلت على مر الزمان وامتزجت تياراتها إلى حد كبير، بحيث تشابهت الموضوعات والبواعث فيها جميعا ؛ إلا أن الخلافات والفروق ظلت واضحة فيما بينها . ذلك أن الأصول الأولى للتيارات السابقة استمرت محتفظة بخصائصها من جيل إلى آخر ، دون أن تمتزج بغيرها من الآراء إلا امتزاجا سطحيا طفيفا لا يغير من حقيقتها أو جوهرها[٢] .

ومن الواضح أن التراث الكلاسيكى — اليونانى واللاتينى — كان أقدم منبع للآداب الوطنية فى أوربا فى العصور الوسطى؛ إذ ظلت الأساطير والقصص والروايات التاريخية القديمة متداولة فى غرب أوربا . و بظهور المسيحية وانتشار الكنيسة فى مختلف أنحاء غرب أوربا ، أصبح الكتاب المقدس يمثل مصدراً جديداً للالهام الأدبى ، حتى صار كل حدث ورد فى ذلك الكتاب موضوعا لتعبير أدبى — منظوما أو منثوراً[٣] . على أن الجرمان الذين غزت قبائلهم غرب أوربا فى العصور الوسطى ، كانت لهم أغانيهم الحربية الحماسية ، وأبطالهم الذين صارت أعمالهم و بطولاتهم محور كثير من القصص المعاصر . وقد سجل مؤرخو العصور الوسطى الذين عالجوا تاريخ الشعوب الجرمانية — مثل جوردان Jordanes صاحب تاريخ القوط ، وجريجورى التورى مؤلف تاريخ الفرنجة ، و بولس اللمباردى

(1) Pirenne; Cohen; Focilon . op. cit.; pp. 204-205.
(2) Thompson ; op. cit , vol., 2; p. 810.
(3) Taylor : op. cit.; vol 2; p. 200.

مدون تاريخ اللمبارديين — كثيراً من أساطير البطولة التى ترتبط بتاريخ هذه الشعوب المبكر ، لأنهم لم يجدوا مصدراً آخر — عدا هذه الاساطير — يستقون منه معلوماتهم عن نشأة الشعوب الجرمانية . كذلك كشفت الابحاث التى تمت فى القرن الاخير النقاب عن مدى ما تمتعت به الشعوب الجرمانية من تقدم أدبى بعد الوقوف على كثير من الآثار — النثرية والشعرية — عند الفيكنج و بخاصة فى أيسلندوالنرويج (١) .ومهما كان الأمر ،فإن أهم الميادينالتى ظهرت فيها الآداب الوطنية الناشئة فى أواخر العصور الوسطى كانت أشعار الملاحم من جهة وأشعار التروبادور من جهة أخرى ، مما جعل لهذين النوعين أهمية خاصة تتطلب معالجة كل منهما على حدة .

الملاحم :

كان الرأى السائد حتى زمن قريب هو أن الملاحم التى عرفتها العصور الوسطى جاءت وليدة نمو أدبى بطىء ؛ وأن الملحمة — على الصورة التى نعرفها — كانت فى القرنين التاسع والعاشر نوعامن الأغانى والقصص الشعرية، حتى حلت الحروب الصليبية وعندئذظهرت مجموعة من الكتاب جمعت هذه القصص والأغانى وحولتها إلى ملاحم مترابطة . على أنه ثبت خطأ هذا الرأى ، واتضح أن ملاحم أوربا العصور الوسطى جاءت عملاابتكاريا مبتدعا ،وليست تحويرا أو جمعا لإنتاج سابق . وهذه الحقيقة على جانب عظيم من الأهمية، لانها تثبت لنا أنه عند حلول القرن الثانى عشر كانت اللغات الوطنية المحلية قد بلغت درجة من النضج سمحت لها بالتعبير عن المعارف والمشاعر — من حب وكراهية وخوف وأمل و يأس — فى صورة قصص إمتاز بالحيوية والخصب (٢) .

---

(1) Cam. Med. Hist.; vol. 6; p. 837 & Thompson : op. cit; vol. 2; pp. 811-812.

(2) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit,; pp. 243-244.

وأكبر مجموعة من شعر الملاحم فى العصور الوسطى هى المجموعة التى انتجتها فرنسا ، والتى تمتاز بأهميتها البالغة للمؤرخ والأديب واللغوى . ذلك أن هذه المجموعة تعتبرخير مرآة انعكست فيها صور المجتمع الإقطاعى وحياةالفرسان والمجتمع الدينى . وكان شارلمان أهم شخصية اتخذتها أشعار الملاحم موضوعا لها ، فاحتل مكانة بارزة فى أغانى المآثر Chansons de geste التى دونت باللغةالوطنية والتى أخذت تنتشر انتشارا واسعا فى عصر الحروب الصليبية[1] . وفى هذا العصر بالذات ظهرت فى الأدب الشعبى الأسطورة القائلة بزيارة شارلمان لبيت المقدس ، وهى زيارة صورتها الأسطورة فى قالب سامى[2] . أما أغنية رولان Chanson de Roland فقد ظهرت لأول مرة على عصر الحملة الصليبية الأولى ، وأظهرت شارلمان فى ثوب الصليبى الذى قام بحرب دينية مقدسة ضد مسلمى الأندلس[3] . وقد دونت أغنية رولان باللغة الفرنسية الناشئة فى أسلوب جميل يجمع بين البلاغة وقوة التأثير ، مما مكن رجال الدين من استغلالها فى الدعوة للحروب الصليبية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر[4] .

ويبدو أن كثيرا من أغانى المآثر كان الغرض منها تشجيع المعاصرين على الحج وزيارة الأماكن المقدسة فى كومبوستلا وروما وفلسطين ؛ كما يبدو أن نسبة كبيرة من هذه الأغانى كتبها بعض رجال الدين . وبعبارة أخرى فإن هذه الأغانى كانت نوعا من الدعاية الدينية فى العصور الوسطى اتخذت شكل ملاحم[5] .

وهناك مجموعة أخرى من أشعار الملاحم المنظومة باللغات الوطنية الناشئة ، تحتل مكانة خاصة فى الأدب الأوربي الوسيط ، هى المعروفة بأشعار الملك آرثر .

---

(1) Taylor : op. cit ; vol. 1; pp. 574-575.
(2) Lanson : Hist. de la Litterature Farnçaise; pp.23-25.
(3) Cam. Med. Hist.; vol. 6; 816-817.
(4) Paris : Littarature Francaise; p. 71.
(5) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit.; pp. 211-216.

وقد ظهرت هذه الأشعار حوالى سنة ١٢٠٠ ، مما جعلها تصور المجتمع الإقطاعى بعد أن هذبته آداب الفروسية وتقاليدها(١) . وتبدو الفروسية فى هذه الأشعار أقرب إلى أن تكون وظيفة مقدسة تباركها الكنيسة ، إذ يحتفل برفع الفرد إلى مرتبة الفروسية وتدشينه دينيا ؛ فيقضى الليلة السابقة لتدشينه بجوار مذبح الكنيسة لتطهير نفسه مما عاق بها من آثام ، ثم يغتسل بماء طهور وفقا للطقوس الدينية ؛ وأخيرا تنتهى هذه الإجراءات الدينية بالصلاة من أجل العذراء . وهكذا صارت هذه المجموعة الشعرية من روايات الملك آرثر مصدرا لكثير من القصص الخيالى الذى انتشر فى كثير من بلدان أوربا العصور الوسطى(٢) .

وأخيرا نلاحظ أن جميع بلدان الغرب شهدت منذ سقوط الامبراطورية الرومانية جماعة من الرواة والمنشدين والحواة والمشعوذين ، اختلفت ألسنتهم وتباينت تسمايتهم(٣) ولكن جمعت بينهم حرفتهم ؛ إذ دأبوا يتنقلون بين الضياع والحصون والأديرة والأسواق وطرق الحجاج ليتعيشوا من إنشاد أغانيهم الشعبية وعرض ألعابهم(٤) . وقد شابهت هذه الفئة من الناس المنبوذين أو الغجر ، حتى أنهم عرفوا بسوء الخلق وانحطاط المستوى الاجتماعى والخلقى ، مما جعل الكنيسة فى العصور الوسطى تصدر عدة تشريعات ضدهم(٥) . كذلك شابه هؤلاء المنشدون الشعراء الجليارديين فى خفة روحهم وأغانيهم ، مع الفارق الأساسى وهو أن شعر الجليارديين جاء لاتينيا لأن معظم هؤلاء الشعراء كانوا من الطلبة الجائلين أو القساوسة الهاربين أو الرهبان الشاردين ؛ وكلهم يعرفون اللاتينية ويتغنون بها(٦) .

(1) Taylor · op. cit. vol 1; pp 581-5?2.

(2) Thompson : op. cit. vol. 2; p. 815.

(٣) أطلق على هؤلاء الرواة اسماء كثيرة عرفوابها العصور الوسطى منها ؛ mimi ؛ jongleurs ، histriones ، minstrels ، gleemen .

(4) Paris : Litt rature Francaise; p. 61.

(5) Thompson : op cit.; vol 2; p 815.

(6) Waddell ; The Wandering Scholars; pp. 171-173.

التروبادور والشعر الغنائى :

وفى ختام كلامنا عن الشعر الغربى فى العصور الوسطى ، يصح أن نشير إلى أن الشعر الغنائى المنظوم باللغات الوطنية ترجع نشأته الحقيقة إلى جنوب فرنسا ، أو اقليم بروفنسال على وجه التحديد[١] . ومع أن هذا الشعر البروفنسالى يدين بقسط ما للشعر اللاتينى الذى عرفته العصور الوسطى ، إلا أن الابحاث الحديثة أثبتت تأثر الشعر البروفنسالى بالموشحات الأندلسية العربية ، التى تمتاز بخفة أوزانها ورقتها وخيالها فضلا عن موضوعاتها التى تدور حول الغزل العفيف والحب العذرى[٢] . وقد عرف الشعراء الذين تغنوا بهـذا النوع من الشعر البروفنسالى باسم « التروبادور » ، وهو لفظ لا يستبعد أن يكون تحريفا لعبارة « طرب دور » — أى « دور طرب » بالعربية — مع تقديم الصفة على الموصوف كما هو الحال فى معظم اللغات الأوربية[٣] . وأول من نعرفه من شعراء التروبادور هو وليم التاسع أمير أكوتين (١٠٨٧ — ١١٢٧) ، وهو الذى عرف بالمرح وحب الموسيقى والغناء . وسرعان ما تكاثر شعراء التروبادور وأخذوا يتجولون من مكان إلى آخر وقد حمل كل منهم قيثارته ليغنى أشعاره على أنغامها[٤] . وتحت رعاية خلفاء وليم التاسع ، ترجم بعض الأدباء فى النصف الأخير من القرن الثانى عشر قصيدة « فن الحب Ars Amatoria » للشاعر اللاتينى أوفيد (٤٣ ق.م — ١٦ م) ، وهى القصيدة التى أصبحت بمثابة إنجيل شعراء التروبادور[٥] .

ولم يلبث هذا الشعر البروفنسالى أو التروبادورى أن انتشر فى جميع أنحاء أوربا ، مثله مثل أغانى المآثر والملاحم وقصص الملك آرثر . وهنا أيضاً أصبح لهذا

---

(1) Lanson : Hist. de la Littérature Française; p.86.
(2) Pirenne; Cohen; Focillon : op. cit.; pp 216-217.
(٣) انظر أحمد أمين : ظهر الإسلام ، الجزء الثالث .
(4) Paris : Littérature Française; p. 86,162.
(5) Thompson : op. cit.; vol. 2; p. 820,

اللون من الشعر أثره الفعال فى رفع مستوى فرسان أوربا وتعليمهم أساليب التغنى بالغزل العفيف[١] . وقد اتضح بالبحث أن غزل الفروسية الذى انتشر بعد ذلك فى ألمانيا تأثر إلى درجة كبيرة بأشعار الترو بادور التى نشأت فى جنوب فرنسا[٢] .

ويبدو أن المعاصرين وجدوا فى الأدب الوطنى المحلى مخرجا من سيطرة اللاهوت والعلوم المدرسية . حقيقة إن العنصر الدينى كان بارزا واسع الانتشار فى هذا النوع أيضا من الأدب الوطنى ، ولكن هذا العنصر الدينى كان ممثلا فقط بالقدر الذى يناسب العلمانيين لا رجال الكهنوت . وخير دليل على ذلك أن هذه الآداب الوطنية الناشئة حظيت برعاية الملوك والأمراء المعاصرين مثل هنرى الثانى بانجلترا[٣] ، وهنرى الأسد بسكسونيا وأمراء شامبنى وغيرهم من الأمراء الذين زخر بلاطهم بالشعراء والمؤرخين . وكانت هذه الرعاية التى حظى بها الأدب والأدباء من الملوك والحكام شيئا جديدا على الحياة الأوربية فى العصور الوسطى ، وظل أثرها ، قويا حتى القرن الثامن عشر . أما فى القرن الثالث عشر فإن أبرز الحكام تشجيعاً للأدب — فضلا عن العلم — كان الإمبراطور فردريك الثانى ، الذى جمع حوله العلماء والأدباء ، كما حضرت مجموعة من شعراء الترو بادور حفل تتويجه فى روما سنة ١٢٢٠[٤] .

الشعر القصصى والتمثيلى :

وقد عرفت أوربا العصور الوسطى نوعا آخر من الشعر القصصى أطلق عليه اسم fabliaux ، امتازت قصصه بأنها قصيرة ، تغلب عليها روح الفكاهة والبعد عن التكلف فى الأسلوب[٥] . وانتشر هذا النوع من الأشعار فيما بين القرنين

(1) Lanson ; Hist. de la Litterature Francaise; p.87.

(2) Draper : A Hist of Intellectual Development of Europe; vol. 2: pp 33-34.

(3) Stubbs : Seventeen Lectures on Med. and Mod. Hist. pp.137-143.

(4) Kantorowicz : Frederick the Second; p. 324.

(5) Lanson : Hist. de la Litterature Francaise; pp. 103-104.

الثانى عشر والرابع عشر ، ولـكنه ظل دائما يعبرعن الذوق الشعبى والبورجوازى ؛ بمعنى أنه كان يمثل أدب الأسواق والعامة بعكس الحال مع أغانى المآثر والملاحم التى ظلت تمثل أدب الحصون والارستقراطية الحربية فى مجتمع العصور الوسطى(١).

أما التمثيليات الدينية فى العصور الوسطى فقد ولدت داخل الـكنيسة ، واستمدت مسرحها وموضوعاتها ومناظرها وأسلوبها من وحى الـكنيسة ، وقام بأدوارها قسيسون ورهبان ؛ وبذلك لم يبق إلا المشاهدون والمستمعون فقط الذين كانوا من العلمانيين . وقد أطلق على هذه التمثيليات الدينية اسم تمثيليات المعجزات ؛ ويرجح معظم الباحثين أن هذا النوع من التمثيليات لم يكن له وجود فى العصور الوسطى قبل القرن الحادى عشر(٢) . ولما كانت هذه التمثيليات قد ظهرت فى وقت اشتد ساعد اللغات الوطنية كالإيطالية والفرنسية والبروفنسالية والأسبانية ، فإن هذه التمثيليات الدينية أخذت تعمل — عن طريق غير مباشر — على إدخال كثير من ألفاظ اللغات الوطنية فى لغة الـكنيسة اللاتينية(٣). وسرعان ما تطور الأمر حتى أصبحت هذه التمثيليات تبدأ بافتتاحية لاتينية ثم تستأنف باللغة الوطنية السائدة ، ثم صارت التمثيلية كلها تتم باللغة الوطنية . وأخيرا انتهى التطور بالاقلاع عن الموضوعات الدينية واختيار موضوعات دنيوية بحتة لتكون محورا لهـذه التمثيليات ، وبذلك انفصلت التمثيلية عن الـكنيسة وأصبحت انتاجا علمانيا دنيويا(٤) .

إيطاليا ودانتى :

أما إيطاليا بالذات فلم تظهر فيها أية عبقرية أدبية مبتكرة فى العصور الوسطى قبل القرن الثالث عشر . حقيقة إن الإيطاليين شاركوا بقية شعوب أوربا العصور

---

(1) Paris : Litterature Francaise; pp 127-129.
(2) Haskins : The Renaissance; pp 170-174,
(3) Thompson : op. cit.; vol. 2; pp 823-825.
(4) Pirenne, Cohen, Focillon; op. cit,; pp. 408-412.

الوسطى فى إنتاجهم الأدبى ، ولـكنهم لم ينتجوا قطعة أدبية ممتازة ، ولم تتمخض قريحة أحدهم عن ملحمة خاصة يفخرون بها فى هـذا الشطر الأول من العصور الوسطى[١] . ويعلل بعض الباحثين هذا النضوب الأدبى فى إيطاليا بأن جهود الشعب الإيطالى انصرفت إلى ناحيتين من نواحى النزاع السياسى ، أولاهما النزاع بين البابوية والإمبراطورية ، والأخرى جهاد المدن اللمباردية فى سبيل استقلالها. ويبدو أن هذه الأحداث — التى كانت إيطاليا مسرحها الرئيسى — أعمت أنظار الإيطاليين عن الآداب والفنون واللاهوت ، فى حين انصرف المبرزون إلى الدراسات القانونية والنشاط السياسى[٢] .وكانت اللغة الإيطالية قد أخذت تنهض وتبرز شيئا فشيئا شأنها شأن بقية اللغات الوطنية الناشئة ، حتى أصبحت قبل مولد دانتى صالحة للتعبير الأدبى شعرا ونثراً ، ولا سيما فى صقلية وجنوب إيطاليا . وقد حبا الامبراطور فردريك الثانى هذه اللغة الناشئة بعطفه ورعايته ، فجمع فى بلاطه جمعا من شعرائها[٣] . وتستطيع هذه المجموعة من الشعراء الإيطاليين — التى بلغت نحو الثلاثين فى بلاط فردريك الثانى — أن تفخر بأمرين : أولهما أنهم كانوا أول من استعمل الإيطالية فى الـكتابة ، وثانيهما أنهم كانوا أول من ابتكر ذلك النوع من القصائد المعروفة باسم السونت (sonnet)[٤] .

ثم كان أن ظهرت على مسرح الأدب عبقرية فذة أنجبتها إيطاليا فى ختام العصور الوسطى . ونقصد بهذه العبقرية دانتى (١٢٦٥ — ١٣٢١) الذى كتب عدة أشعار شهيرة ، أولها عن « الحياة الجديدة Vita Nuova » التى استلهمها

---

(1) Thompsou : op. cit.; vol. 2; p. 818.
(2) Symonds : Italian Literature; p 10.
(3) Feligno : Epochs of Italian Literature; p. 9 & Kantorowicz : op. cit.; p 325.

(٤) السونت نوع من القصائد يغلب عليها الطابع الغزلى ، تنظم على هيئة مجموعات ، تتألف القصيدة من ١٤ بيتا أو ١٢ بيتا حسب اختلاف العصور . وتمتاز بوزنها الخاص الذى يتطلب ترتيب الأبيات وفق نظام خاص أيضا . فالمجموعة المؤلفة من أربعة أبيات ينتهى البيت الأول منها بحرف A مثلا ثم البيتان الثانى والثالث بحرف B ثم الرابع بحرف A وهكذا .

من حبه لسيده (Béatrice ت ١٢٩٠) لم يستطع أن يتزوج منها ولم تخاطبه سوى مرة واحدة ولكن حبها ظل عالقاً فى قلبه(١) . كذلك كتب دانتى دفاعاً عن اللغة الوطنية (De Vulgari Eloquentia) ؛ وهو دفاع مكتوب باللاتينية ليتمكن المثقفون من قراءته ، ذكر فيه اقتراحاته للنهوض باللغة الإيطالية الجديدة والتوحيد بين لهجاتها لتصبح أداة فعالة فى التعبير الأدبى(٢) . أما رسالة دانتى عن الملكية (De Monarchia) فكانت باللاتينية أيضاً وتناولت طبيعة الدولة . على أن أبرز انتاج دانتى كان الكوميديا الإلهية أو المقدسة ، وهى أشبه بدائرة معارف نظمها بالإيطالية وتخيل فيها رحلة إلى العالم الآخر ، فى أسلوب يمتاز بالروعة وجمال التصوير . ولا تقتصر أهمية هذه الكوميديا على أنها أول إنتاج كامل ضخم بالإيطالية الصحيحة فحسب ، بل ترجع أهميتها أيضا إلى الآراء القوية الجريئة والمعانى العميقة التى عبر عنها دانتى فى إنتاجه(٣) .

(1) Pirenne, Cohen, Focillon; p. 338'
(2) Foligno : Epochs of Italian Literature; p. 10.
(3) Pirenne, Cohen, Focilon: op. cit ; pp. 336-351.

الباب العاشر

الفنــــون

تشمل الفنون بمعناها الواسع كل ما تمخضت عنه العبقرية البشرية من إنتاج فكرى ويدوى ، فالجراحة فن والشعر فن والموسيقى فن . . . ولكن من الممكن أن نحدد أفق هذا الاصطلاح ليقتصر على ما يتفتق عنه العقل البشرى من إنتاج راق يجمع بين قوة الابتكار وجمال الخيال من ناحية ، والمهارة اليدوية من ناحية أخرى. وفى هذه الحالة تضيق دائرة الفنون لتقتصر على العمارة والتصوير والنحت — وهى المجموعة التى يطلق عليها اسم الفنون الكبرى ؛ ثم المصنوعات اليدوية الصغيرة التى تتطلب دقة فائقة وعبقرية راقية وخيالا واسعاً — وهى التى يطلق عليها اسم الفنون الصغرى(١) .

وأول ما نلاحظه على فنون أوربا العصور الوسطى هو أنها كانت تعبيرا روحياً ، بحيث جاءت هذه الفنون مرآة صادقة انعكست فيها الحماسة لمبادىء الكنيسة . لذلك لا نكون مبالغين إذا قلنا إن كل ما اشتمل عليه الفن الأوربى فى العصور الوسطى من رمزية وجمال ومثالية ، إنما يستهدف غاية واحدة هى إرضاء الشعور الدينى . وهكذا جاء هذا الفن آية صادقة عبرت تعبيراً أميناً عن أثر العقيدة المسيحية وعصور الإيمان ، وهى العصور التى امتازت بسمو العامل الدينى والباعث الروحى على غيرها من قيم الحياة(٢) .

على أن المتتبع لتاريخ الفنون يلمس ثلاثة عوامل قوية ظلت تؤثر دائماً فى الطابع الفنى وتكيف هذا الطابع تكييفاً خاصا . أما هذه العوامل فهى تقاليد

---

(1) Thompson : op cit.; vol 2; p. 828.
(2) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit.; pp. 419-420.

الشعب وتراثه العنصري ، وظروف البيئة التي ينبت فيها الفن والتي تتحكم في صياغته وتشكيله ، ثم عامل الزمن والتطور[1]. و بتأثير هذه العوامل في الفن الأوربي في العصور الوسطى انقسم هذا الفن إلى طرز وألوان مما أوجد فناً بيزنطياً وفناً رومانسكيا وفناً أيرلنديا . . . هذا و إن اتفقت هذه الطرز جميعها في صدق تعبيرها عن البواعث الدينية الكنسية .

فن العمارة

كان عدد الكنائس — قبل أن يعترف الامبراطور قنسطنطين بالمسيحية — قليلا ، مما لم يترك مجالا واسعاً للتعبير عن الفن المسيحي . لذلك لم يظهر الفن المسيحي في هذه المرحلة من فجر العصور الوسطى إلا في المقابر ذات القباب ؛ وهي المقابر التي شيدت من الآجر وكسيت جدرانها من الداخل بطبقة من الطلاء سجلت عليها تصاوير استمدت موضوعاتها من القصص الدينية وصور القديسين[2] ، فضلا عن بعض الإشارات والرموز الدينية مثل الصليب والسمكه والمصباح والنخلة[3] . . . أما اجتماعات المسيحيين في هذه المرحلة . فمن المرجح أنها كانت تتم في بعض الدور الخاصة أو في بعض المعابد الوثنية ، لأنهم لم يجرءوا على إقامة كنائس خاصة بهم . على أن صدور مرسوم ميلان سنة ٣١٣ ، وما أعقبه من انتشار المسيحية انتشاراً آمناً ، أدى إلى مولد فن جديد مثلما أدى إلى ظهور أدب جديد . وكان مولد هذا الفن في القرون الرابع والخامس والسادس[4] .

والواقع أن المسيحية ألفت نفسها — عند اعتراف قنسطنطين بها — في حاجة إلى مبان عامة تتخذ مراكز علنية للديانة الجديدة و إحياء طقوسها الروحية . وهنا لم يكن أمام المسيحيين سوى أحد طريقين : إما الحصول على مبانى قديمة من معابد الوثنية المتداعيه — عن طريق الهبة أوالشراء — لتحويلها إلى كنائس ،

(1) Cam Med Hist.; vol. 3; pp. 530-540.
(2) Cam Med. Hist ; vol 1; p. 510
(3) Mâle : Hist, Générale de l'Art; Tome I; pp 255-260.
(4) Simpson : A Hist. of Architectural Development, vol. 1; p. 163

وإما تشييد مبانى جديدة لهذا الغرض. ولم يكن منتظرا أن تمتاز هذه المبانى الكنسية الأولى بروح الإبتكار والتجديد، لذلك جاءت تقليداً وتطبيقا للطرز المعارية السائدة حينئذ[1]. والواقع أنه يمكن تقسيم الكنائس فى عصور المسيحية الأولى إلى قسمين، وذلك من حيث تصميمها: الأول يشمل الكنائس ذات التصميم المركزى الدائرى، والثانى يشمل الكنائس المستطيلة الشكل أو البازيليكا (basilica). ويبدو أن هذا التقسيم يرجع إلى ظروف التقاليد والتراث من ناحية، والبيئة من ناحية أخرى، لأن النوع الأول من الكنائس كان شرقيا يونانيا، فى حين كان النوع الثانى غربيا رومانيا[2]. على أن هذا التقسيم الفنى بين الشرق والغرب لم يكن فاصلا ودقيقا، إذ وجدت فى بعض بلاد الشرق البيزنطى كنائس على الطراز البازيليكى فى حين لا تزال إيطاليا بوجه خاص تحتفظ ببعض كنائس دائرية التصميم[3]؛ هذا وإن كان المهندسون الرومان قد لجئوا إلى تمييز هذه المبانى الشرقية الأخيرة بعمل قباب لها. ومهما كان الأمر، فإن الكنائس المستديرة — ذات القباب أو بدونها — صارت نواة فن العمارة البيزنطى، فى حين صارت المبانى المستطيلة البازيليكية عماد فن بناء الكنائس والكتدرائيات فى الغرب[4].

فن العمارة البيزنطى :

أما الطراز البيزنطى فى بناء الكنائس فقد أخذ فى أول الأمر عن النمطين اليونانى والرومانى، ثم تأثر بعد ذلك بالفنون الشرقية التى وجدت فى آسيا الصغرى وفارس. وتمتاز الكنائس البيزنطية بأنها مربعة الشكل، بخلاف الكنائس البازيليكية المستطيلة، كما تمتاز بالقباب نصف الدائرية التى تعتبر من أهم مميزات الطراز البيزنطى[5]. على أنه إذا كان إيوان الكنيسة البيزنطية مربع الشكل،

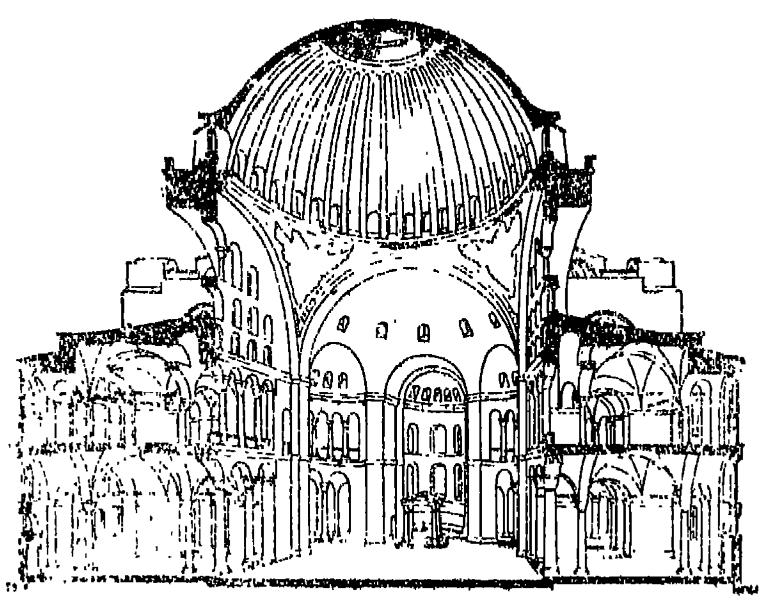
(1) Morey : Med. Art; p. 21
(2) Lethaby : Med, Art; pp. 12-13.
(3) Cam. Med. Hist ; vol. 3; p. 542.
(4) Thompson : op, cit ; vol, 2; p. 830.
(5) Simpson : A Hist. of Architectural Development; vol. 1; p. 214.

إلا أنه روعى أن يكون لذلك المربع ذراعان جانبيان قصيران ليتخذ الشكل العام للكنيسة هيئة صليب . أما عقود الكنيسة البيزنطية فكانت مقوسة أو على هيئة نعل الفرس . ويبدو أنه كان من الصعب الحصول على الأحجار اللازمة لبناء الكنائس فى القسطنطينية ، بدليل أن معظم الكنائس البيزنطية شيدت من الآجر ، ثم كسيت جدرانها من الداخل بأعمال القسيفساء والرخام المنقوش على هيئة صور رمزية للقديسين والعذراء والمسيح[١] . أما أعمدة الكنائس البيزنطية فقد أخذت أشكالها عن الطراز الرومانى مع تجديد هيئة تيجانها بحيث صارت فى معظمها مستمدة من أشكال الوحدات الهندسية والنباتية والحيوانية ، مثل الصلبان وأوراق الأشجار والطيور وغيرها . والواقع أن زخرفة الكنائس فى الشرق البيزنطى بلغت درجة أرقى كثيرا مما كانت عليه فى الغرب ، وظل الأمر على ذلك حتى ظهور الفن الرومانسكى فى غرب أوربا فى القرن الحادى عشر[٢] .

وتعتبر كنيسة القديسة أيا صوفيا — التى تم بناؤها على عهد جستنيان سنة ٥٣٧ — أعظم مثل للكنائس البيزنطية . وهذه الكنيسة مشيدة من الآجر ، وخط مسقطها الأفقى على هيئة صليب يونانى متساوى الأذرع تقريبا ، إذ يبلغ طول أحدهما ثمانين مترا والآخر خمسة وسبعين مترا[٣] . وعند تقاطع الذراعين توجد قبة يبلغ ارتفاع قمتها عن سطح الأرض ستين مترا تقريبا . ويتخلل محيط هذه القبة أربعون نافذة مرتبة مرصوصة وفق نظام هندسى بديع ، يكفل دخول قدر كاف من الضوء إلى داخل الكنيسة[٤] . على أنه إذا كانت جدران الكنيسة مشيدة من الآجر ، إلا أنها مغطاه من الداخل بالرخام والفسيفساء المختلف الألوان كما امتاز داخل الكنيسة بالأعمدة الكثيرة والنقوش الجميلة . وقد أعيد بناء قبة

---

(1) Morey : Med Art; p 96.
(2) Thompson : op cit ; vol 2; p. 532.
(3) Camb. Med, Hist.: vol. 4; pp. 513-546,
(4) Lethaby : Med A t; p. 34



مسقط رأسي في كنيسة أيا صوفيا

هذه الكنيسة بعد أن دمرها زلزال سنة ٥٥٨ ، وظلت قائمة حتى فتح العثمانيون القسطنطينية سنة ١٤٥٣ فحولوها إلى مسجد وأضافوا إلى بنائها أربعة مآذن ، كما أدخلوا عليها بعض التعديلات لتناسب الوضع الجديد[1] . والواقع أن كنيسة أيا صوفيا تعتبر بفنها الرائع وجمال هندستها وزخارفها إحدى العجائب ؛ مما جعل الروس — عقب انتشار المسيحية فى بلادهم — يحاولون محاكاتها، فشيدوا كنيسة فى كييف على نمطها .

الكنائس البازيليكية :

وسواء كانت البازيليكا المسيحية ترجع فى أصلها وتصميمها إلى القاعات الرومانية القديمة التى استعملها الرومان دورا للقضاء ، أو ترجع إلى بيوت الرومان الخاصة التى تقاربها فى التصميم ، فإن المهم هو أن اتخاذ البازيليكا دارا للعبادة

(1) Stephenson : Med. Hist,; p. 124.

المسيحية ترتب عليه ادخال بعض تعديلات معمارية هامة عليها. وهكذا أصبحت الكنيسة البازيليكية تتكون من أيوان (ا) مستطيل (nave) على جانبيه جناحان(ب)موازيان له(aisles)، يفصل كل منهما عن الإيوان الأوسط صف أو صفان من العمد؛ مع مراعاة أن يكون سقف هذين الجناحين أقل ارتفاعا من سقف الإيوان الأوسط. وقد أتاح ارتفاع الإيوان عن الجناحين الجانبيين فرصة عمل صفين من النوافذ فى أعلى جانبيه ينفذ منهما الضوء إلى الإيوان فى حين تظل الأجنحة الجانبية ضعيفة الإضاءة[١]. وإذا كانت الكنيسة البازيليكية على هيئة مستطيل، فإنه روعى أن يكون الضلعان القصيران لهذا المستطيل جهتى الشرق والغرب؛ على أن يبرز الضلع الشرقى إلى الجانبين قليلا ليكون بمثابة جناح عرضى (transept) خاص بالقساوسة، وبذلك يتخذ الشكل العام للكنيسة هيئة حرف (T). وبوسط هذا الجناح العرضى توجد حنية الكنيسة أو محرابها(جـ)(apse) على شكل نصف دائرة. أما الضلع الآخر الغربى المواجه للضلع الشرقى فكان به باب الكنيسة (د). وكان كرسى الأسقف يوضع فى حنية الكنيسة وعلى جانبيه مقاعد آباء الكنيسة ورجالها[٢]. وفى الجزء الواقع بين مكان الأسقف وجمهور المصلين فى الإيوان يوجد المذبح الذى كان يشيد فى العادة فوق قبر القديس أو الشهيد الذى شيدت الكنيسة باسمه.

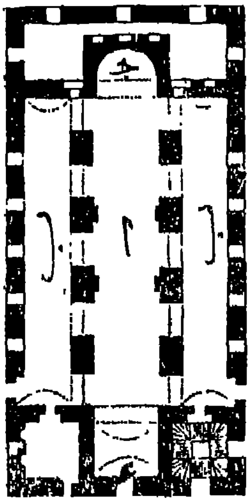
هذا، ويلاحظ أن سقف الكنيسة البازيليكية كان يصنع عادة من الخشب المموه بالذهب فى حين كسيت أرضيتها بالرخام المقسم إلى أشكال هندسية[٣].

---

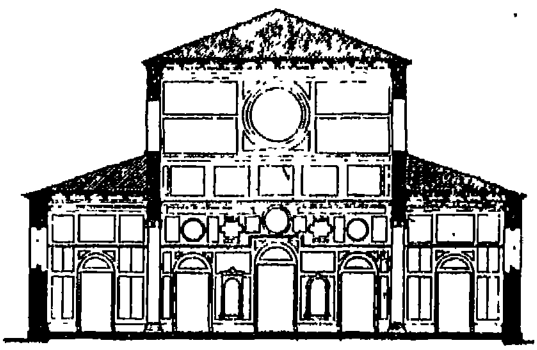
(1) Mâle : Hist. Generale de l'Art; Tome 1; pp,: 261-262.

(2) Simpson : op. cit.; vol. 1; pp. 175-178.

(3) Briggs : Architecture; pp. 52-53.



قطاع أفقى فى كنيسة بازيليكية

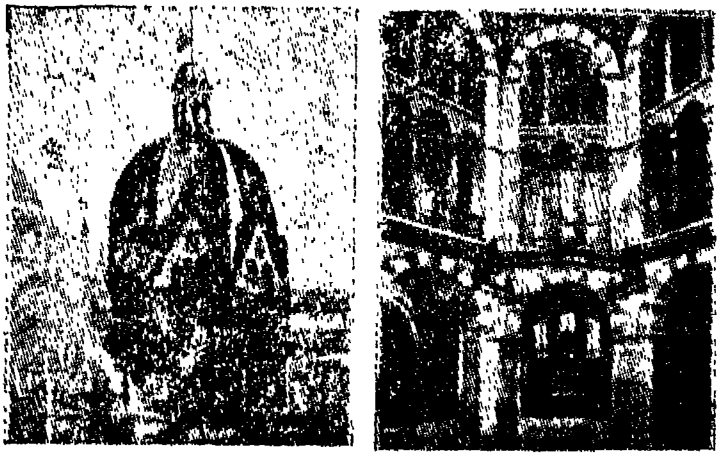


قطاع رأسى فى كنيسة بازيليكية

فنون العمارة فى الغرب فى العصور المظلمة (٥٠٠ — ١٠٠٠) :

لاتوجد لدينا معلومات كافية عن أحوال الكنائس فى غرب أوربا قبل عصر شارلمان ، اللهم سوى ما ذكره بعض المؤرخين — مثل جريجورى التورى — من إشارات عابرة . ثم كان أن ظهرت النهضة الكارولنجية التى تبناها شارلمان والتى امتدت حتى شملت الفنون . والحق إن شارلمان كان بنّاء كبيرا ، فبنى كثيرا من الكنائس ، وتعهد القديم منها بالإصلاح ؛ كما اهتم بزخرفة قصوره المفضلة ،

لاسيما تلك القائمة فى آخن (اكس لا شابل) وانجلهايم[١] . وقد استعان شارلمان فى هذه النهضة الفنية ببعض الفنانين الانجليز والايرلنديين ، مما أدى إلى انتقال كثير من المؤثرات الفنية من انجلترا وأيرلند إلى الدولة الكارولنجية ، لاسيما فيما يتعلق بالزخرفة بوجه عام وزخرفة الكتب والمجلدات بوجه خاص[٢] . هذا إلى أن غزو شارلمان لشمال إيطاليا ترتب عليه انتقال المؤثرات الفنية البيزنطية هى الأخرى إلى غرب أوربا عن طريق ايطاليا . وهكذا جاء قصر آخن الذى شيده شارلمان تحفة فنية ، بأعمدته الرخامية التى جلبها من رافنا ، فى حين امتازت الكتدرائية التى بناها



قصر آخن من الداخل والخارج

شارلمان بجوار قصره السابق بأبوابها البرونزية التى أبدع الفنانون الإيطاليون فى زخرفتها . وهنا نلاحظ أن هذه النهضة الفنية التى تبناها شارلمان كانت رومانية فى طابعها العام مع ظهور بعض المؤثرات الشرقية والبيزنطية . أما الأثر الجرمانى فكان ضعيفا وغير واضح[٣] .

(1) Lethaby : Med. Art; p. 90.
(2) Morey : Med. Art; p.p.197-198.
(3) Thompson : op cit.; vol. 2; pp 835-836.

وعلى الرغم من أن الفن الغربى مستمد من إيطاليا ، إلا أن الحياة الفنية فى غرب أوربا نشطت فى القرنين التاسع والعاشر فى المناطق الواقعة شمالى الألب أكثر منها فى إيطاليا نفسها(١) . وقد وجد من البابوات فى هذين القرنين — مثل ليو الثالث — من أظهروا اهتماما كبيراً ببناء الكنائس ؛ ولكن تأخر هندسة العمارة حال دون القيام بمشروعات معمارية ضخمة . وكانت المواد الخام اللازمة لبناء هذه الكنائس — مثل الأحجار والأعمدة الرخامية — تنتزع غالباً من الآثار الرومانيه القديمة والتى كان بعضها فى روما نفسها ، مما عاد بخسارة فادحة على علمى التاريخ والآثار(٢) . ولكن يلاحظ أن الدمار الذى تعرض له غرب أوربا فى القرن التاسع نتيجة للحروب الأهلية والإغارات التى قام بها الفيكنج والمجريون ، أدت إلى تدمير كثير من مظاهر النهضة الكارولنجية وآثارها الفنية ، بحيث لم يبق منها سوى القليل فى ألمانيا القرن العاشر(٣) .

ثم كان أن أخذت الأوضاع تستقر فى غرب أوربا فى القرن الحادى عشر ، وهو القرن الذى امتاز بمولد حركة إحياء الدراسات الإنسانية وحركة الإصلاح الديرى وازدياد النشاط الدينى ، الذى تمثل فى الإقبال على الحج وزيارة الأماكن المقدسة فضلا عن الحروب الصليبية ضد المسلمين فى الأندلس ثم فى المشرق . ولما كانت العلاقة قوية دائماً بين الحياة الفنية من جهة والتيارات الاجتماعية والدينية من جهة أخرى ، فإن هذا القرن لم يكن أقل بروزاً فى ميدان الفن فى أوربا العصور الوسطى(٤) .

والواقع أن الحاجة أضحت ماسة إلى كنائس قوية كبيرة بعد أن اتضح أن الكنائس البازيليكية ذات الأسقف الخشبية سريعة الفناء ومعرضة للاحتراق

(1) Cam. Med. Hist.; vol. 3; pp. 553-555.
(2) Thompson : op cit ; vol. 2; p 837.
(3) Morey : Med. Art; pp. 207-214.
(4) Pirenne, Cohen, Focillon; op. cit.; pp. 460-462.

للاحتراق بين حين وآخر . لذلك أدت الحماسة الدينية التي ظهرت فى القرن الحادى عشر من ناحية ، وتوافر الإمكانيات والاستقرار من ناحية أخرى ، إلى ابتكار طراز جديد ، يعبر عنه باسم « الفن الرومانسكى » ؛ ويمكن وصفه بأنه فن رومانى مسيحى [1] .

الطراز الرومانسكى :

ظهر الفن الرومانسكى نتيجة لتداخل عوامل مختلفة — شرقية بيزنطية ، وبربرية جرمانية ودينية كنسية — فضلا عن الأساس الرومانى الغربى [2] . وإذا كان القرن الحادى عشر قد شهد مولد الطراز الرومانسكى فى أوربا ، إلا أن عمر هذا الطراز تفاوت باختلاف البلاد الأوربية ، فأخذ يختفى من إيطاليا فى بداية القرن الثالث عشر ، واستمر فى ألمانيا حتى نهاية هذا القرن ؛ فى حين بدأ ينكمش فى فرنسا منذ منتصف القرن الثانى عشر . أما فى انجلترا فقد أدخله النورمان عند غزوهم لها فى القرن الحادى عشر واستمر سائدا فيها حتى حل محله الفن القوطى فى القرن الثالث عشر [3] . وكذلك فى أسبانيا أدخله الفرنسيون فى القرن الثانى عشر وظل قائماً حتى حل محله الفن القوطى فى القرن التالى .

وأهم ما فى البناء الرومانسكى أنه أحل الأحجار محل الأخشاب فى عمل الأسقف ، مما استلزم تقوية جدران الكنيسة عن طريق مضاعفة سمكها ، الأمر الذى تعذر معه إيجاد فتحات كثيرة فى الجدران بسبب سمكها من ناحية وحتى لا تضعف عن حمل السقف من ناحية أخرى [4] . وفيما عدا هذه الخصائص ، فإن من الصعب إعطاء وصف جامع للعمارة الرومانسكية ، نظراً لاختلاف هذا

---

(1) Cam. Med. Hist, vol. 3; p. 556.
(2) Cam. Med. Hist; vol. 3; pp. 558-557.
(3) Briggs : op cit.; pp. 69-70.
(4) Mâle : Hist. Generale de l'Art; Tome 1; pp.294-295.

الطراز من بلد إلى آخر فى الخصائص ، مما يجعل موضوع دراسة الفن الرومانسكى بصورة صحيحة أمراً يتطلب دراسة خاصة بكل بلد من بلدان الغرب الأوربى [١] .

ومع ذلك فإنه يمكن وصف الكنيسة الرومانسكية بوجه عام بأن داخلها كان أقل اتساعاً وجدرانها أقل ارتفاعا من الكنيسة البازيلكية التى عرفت فى أوائل العصر المسيحى . وقد احتفظت الكنيسة الرومانسكية بتقسيمها الداخلى إلى إيوان وجناحين موازيين له ، ولكن هذه الأجنحة الجانبية كانت دائماً أضيق عرضاً من إيوان الكنيسة الأوسط . أما عن مواد البناء فقد استخدمت فى الكنيسة الرومانسكية الأخشاب والآجر والحجارة ، وإن كانت الأخيرة أكثرها شيوعاً [٢] . وإذا كانت الكنيسة البازيليكية فى العصر السابق قد اتخذ شكل حرف (T)— كما سبق أن أشرنا — فإن الكنيسة الرومانسكية حولت هذا الشكل إلى هيئة صليب ، و يبدو أن الحاجة العملية هى التى دفعت إلى اتخاذ هذا الشكل الجديد ، وذلك لبناء غرفة اضافية تمثل رأس الصليب ، و يتخذها القساوسة لاستعمالهم الخاص . ولم يلبث هذا التغيير أن أدى إلى تطور آخر ، هو انشاء خورس أو مكان خاص بجوقه المرنمين (Choir) أمام حنية الكنيسة ، يفصله عن بقية الإيوان حاجز قليل الارتفاع و بجواره منبر لتلاوة الكتاب المقدس ورسائل الرسل [٣] . أما الأبراج التى كانت فى الكنيسة البازيليكية مبانى منفصلة عن صلب الكنيسة ، فقد غدت فى البناء الرومانسكى جزءا أساسيا من مبنى الكنيسة الرئيسى ، هذا فى الوقت الذى تحولت هذه الأبراج من الشكل المستدير إلى الشكل المربع [٤] .

---

(1) Idem, pp. 296-307.

(2) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit., p. 468.

(3) Cam. Med. Hist., vol. 3, p 563.

(4) Thompson : op. cit., vol., 2, p. 841.

كذلك روعى فى تصميم الكنيسة الرومانسكية أن يكون الجزء الأوسط من المبنى الذى يمثل إيوان الكنيسة أكثر ارتفاعا ليسمح بدخول قدر كاف من الضوء ، زيادة على الضوء الذى يدخل عن طريق النوافذ المقامة على امتداد الأجنحة الجانبية . أما الأسقف فى الطراز الرومانسكى فهى منحنية ونصف اسطوانية ومكونة من كتل حجرية صغيرة . والمعروف أن الأسقف المسطحة لا تلقى وزنا ثقيلا على الجدران الجانبية ، بعكس الأسقف المنحدرة والاسطوانية التى تسبب ضغطاً شديداً على الجدران ، الأمر الذى استدعى إقامة أعمدة مربعة على الجوانب لتحمل ضغط السقف ، كما روعى عدم الاكثار من النوافذ الجانبية فى الجدران حتى لا تضعف هذه الجدران عن حمل السقف[١] .

ويبدو أن إقامه القباب والأقواس كانت أعظم مشكلة واجهت المهندسين المعماريين فى العصور الوسطى . ذلك أن الغرض الأول من إقامة هذه الأقواس لم يكن مجرد الزينة والزخرف واكساب المبنى شيئاً من الجمال والرونق — كما قد يتصور البعض — وإنما أقيم القوس فى المبنى ليحل اشكالا ويقوم بوظيفة هندسية خاصة يتوقف عليها فهم طبيعة العمارة الرومانسكية ثم القوطية من بعدها[٢] . فالسقف المقوس أو المدبب يمثل خير أنواع الأسقف نظراً لتعرض السقف المسطح للتلف نتيجة لتراكم الأمطار عليه . ولما كانت هندسة العمارة لم تتقدم فى أوائل العصور الوسطى بالدرجة التى تمكن من عمل أسقف من الحجارة ، فإن هذه الأسقف كانت تصنع وقتئذ من الخشب على شكل منحدر . على أن هذا الاتجاه الذى قصد به تلافى ضرر مياه الأمطار ، عرض كثيراً من الكنائس — قبل ظهور الطراز الرومانسكى — للحريق والإنهيار[٣] ، وظل الأمر على ذلك حتى استعان

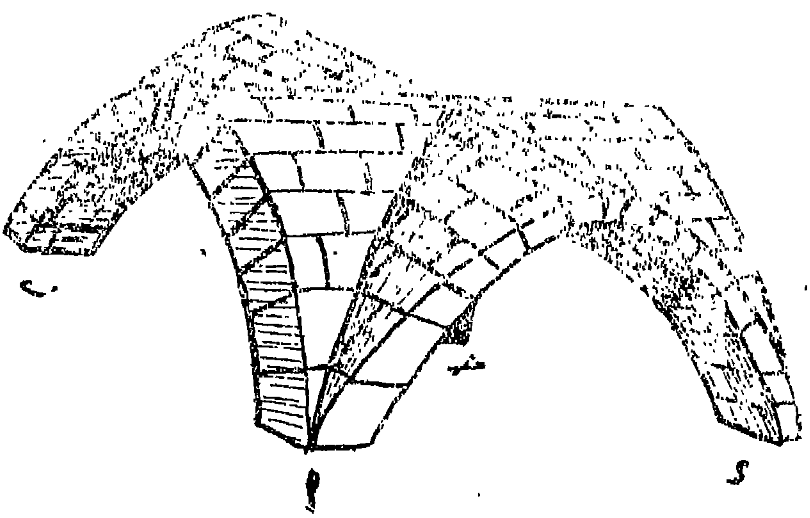
---

(1) Mâle : Hist. Generale de l'Art, Tome 1, pp. 294-295.

(2) Morey : Med. Art, pp. 221-263.

(٣) احترقت كنيسة انجرز Angers سنة ١٠٠٠ ثم سنة ١٠٣٢ ، وكنيسة أوكسر =

المهندسون — فى الطراز الرومانسكى — بالأقواس فى حل الإشكال و بناء أسقف غير مسطحة من الحجارة[1] . وهكذا كانت إقامة سقف الكنيسة على شكل أقواس نصف أسطوانية تحملها أعمدة ، هى الغاية التى عمل المهندسون طويلا فى سبيل الوصول إليها ؛ فلما توصلوا إليها أدت إلى تغيير الطابع العام لهندسة الكنائس ، وأصبحت العمارة فناً وعلماً يقوم على قواعد رياضية دقيقة[2] . أما النظرية التى قامت عليها إقامة السقف على أقواس فتتلخص فى تقسيم مساحة سقف المبنى إلى مربعات ، كل مربع منها يتألف من منحنيين متقاطعين تقاطعاً عموديا بحيث يقع ثقلهما على الأعمدة القائمة عند زوايا المربع (ا، ب، ج، ى). وهكذا يخرج الشكل النهائى على هيئة أربعة أقواس (اب ، ب ج ، ج ى ، ى ا)،



رسم تخطيطى يوضح إقامة السقف الحجرى على شكل اقواس تحملها عمد

= سنة ١٠٢٥ ثم سنة ١٠٦٥ ، وكنيسة بوفيه سنة ٩٢٣ ثم سنة ١٠١٨ ، وكامبراى سنة ١٠٢٧ ، وشالون على المارن سنة ٩٣١ ثم سنة ٩٦٣ ، وشارتر سنة ٩٦٢ ثم سنه ١٠١٩ سنة ١١٩٤ ، وليمان سنة ١٠٩٩ ، وبواتيه سنة ١٠١٨ ، وروان سنة ١٠١٩ ، وستراسبورج سنة ١٠٠٢ ، وتورز سنة ١٠٢٧ فى حين احترقت كنيسة فردون ثلاث مرات .

(1) Lethaby : Med. Art, pp, 221-263.
(2) Thompson op cit,, vol. 2,p.842,

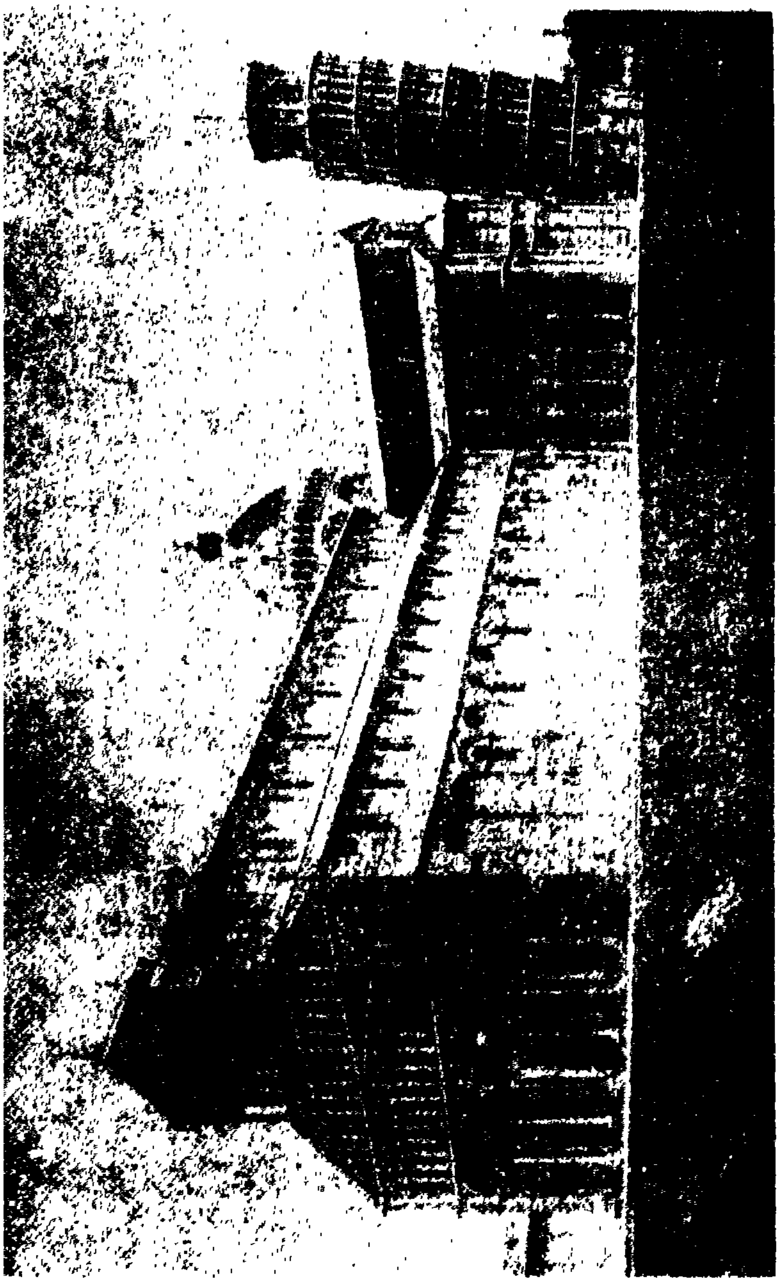
تستطيع أن تحمل فوقها سقفاً تساوى مساحته المربع المحصور بين الأعمدة الأربعة[1] .

ولسنا فى حاجة بعد ذلك إلى القول بأن العمارة الرمانسكية أحدثت ثورة فى فن بناء الكنائس ، إذ ترتب عليها قيام نوع جديد من الطرز المعمارية حل محل الكنائس البازيليكية القديمة . وأشهر كنائس الطراز الرومانسكى فى إيطاليا كنيسة بيزا التى افتتحت سنة ١١١٨ والتى اشتهرت ببرجها المائل وواجهتها المقنطرة وفخامتها من الداخل[2] . أما ألمانيا فكانت البلد الذى بلغت فيه الكنائس الرومانسكية أقصى درجات الكمال ، كما يتضح ذلك من كتدرائية بامبرج Bamberg التى أقامها الامبراطور هنرى الثانى (١٠٠٢ - ١٠٢٤) ، وكتدرائية سبير Speyer التى شيدها الامبراطورهنرى الرابع (١٠٩٣ - ١١٠٥). ولعل أهم ما امتاز به هذا الطراز من الكنائس الألمانية هو أنه صمم غالباً بحيث يكون للكنيسة محرابان أحدهما شرقى والآخر غربى ، وبذلك أصبح باب الكنيسة فى أحد الجانبين الشمالى أو الجنوبى . هذا بالإضافة إلى إقامة مجموعة من ثلاثة أبراج عند كل طرف من أطراف مبنى الكنيسة[3] . أما كنائس فرنسا الرومانسكية فقد احتفظت بمبدأ المحراب الواحد ، مع توسيع ذلك المحراب بإضافة بعض ملحقات إليه[4] .

على أن عظمة الفن الرومانسكى لم تبد فى الجانب المعمارى فحسب ، بل بدت واضحة أيضاً فى الزخارف الجميلة التى استخدمت فيها الفسيفساء والنقوش الجصية (Fresco) لتصوير بعض المناظر والرموز الدينية . كذلك حليت قواعد الأعمدة وتيجانها بأشكال تمثل الوحوش أو ورقة الأكنث ، فى حين صنعت

---

(1) Stephenson : Med. Hist , p. 374.
(2) Morey : Med. Art, p. 222.
(3) Mâle : Hist. Generale de l'Art, Tome 1. p. 305.
(4) Lethaby : Med. Art, p. 97.



كنيسة بيزا وبرجها المائل

نوافذ الكنائس من الزجاج المعشق بالرصاص ليتيح قدراً كافيا من الضوء ينفذ إلى داخل الكنيسة[١] .

أما عن المبانى غير الدينية فى ذلك العصر فلا نعرف عنها سوى النذر اليسير، لأن أعظم المبانى وأضخمها كانت دينية من جهة ، ولأن الكتاب الذين وصفوا هذه المبانى كانوا من رجال الكنيسة من جهة أخرى . على أنه لا يوجد لدينا من الأدلة ما يمنعنا من الاعتقاد بأن ملوك وأمراء القرنين الحادى عشر والثانى عشر اعتنوا ببناء قصورهم وحصونهم الإقطاعية ، وزخرفوها بأنواع الزخارف التى سادت حينذاك . وتدل بقايا الحصون التى ترجع إلى ذلك العصر على أنها كانت تزخرف من الداخل بالرسوم والزخارف الجصية، ومن الخارج بالتماثيل والنقوش الجميلة[٢] .

الفن القوطى:

وإذا كان الطراز الرومانسكى قد نجح فى حل مشكلة الأسقف الجانبية عن طريق حملها على أعمدة وأقواس نصف دائرية ، فإن مشكلة رفع سقف إيوان الكنيسة ظلت قائمة بدون حل ، حتى توصل الطراز القوطى إلى حل لها فى نهاية القرن الثانى عشر عن طريق حملها على أكتاف معلقة[٣] . والواقع أن الفن القوطى يمثل مظهراً عظيما من مظاهر النهضة الأوربية فى القرن الثانى عشر ، كما يعبر عن الحماسة الدينية التى سادت أوربا فى ذلك العصر[٤] . ذلك أن انتعاش المدن وازدياد نشاطها الاقتصادى فى ذلك القرن ، وظهور النقابات التى عملت على تحسين مستوى الحرف والصناعات ؛ أدى إلى جعل هذه المدن مسرحا

(1) Thompson : op. cit , vol 2, p. 843.
(2) Mâle: Hist. Generale de l'Art; Tome 1, p. 308.
(3) Pirenne, Cohen, Focillon : op. cit., p. 525.
(4) Cam. Med. Hist , vol. 6, pp 771-772.

لنشاط فني كبير تمخض عن نشأة كتدرائيات تجمع بين الجدة والعظمة والروعة[1] .

ومن الواضح أن الفن القوطي نشأ عن نهاية القرن الثاني عشر لمداواة العيوب التي اتصف بها الفن الرومانسكي. ذلك أن طراز العمارة الأخيرة كانت به عدة عيوب أساسية أهمها سمك الجدران وعدم مرونة الأقواس ، وعدم استكمال تكوين القباب ، وثقل الضغط على الأعمدة والدعائم الداخليه[2] . هذا إلى أن سمك الجدران وعظم الثقل المطلوب منها حمله ، حال دون شق نوافذ كافية فيها مما جعل داخل الكنيسة الرومانسكية معتما تنقصه الإضاءة اللازمة . وهكذا ظهرت الحاجة إلى طراز جديد يتلافى العيوب السابقة بقدر الإمكان ، حتى دفعت هذه الحاجة المهندسين إلى ابتكار الطراز القوطي . وفي هذا الطراز الجديد، عمل المهندسون على تلافي العيوب السابقة ، فأنشئوا الدعائم أو المساند المعلقه (Flying buttresses) ، وهي أكتاف تستند إلى الجدران بقصد إلقاء ثقل البناء على الجدران الخارجية بدلا من الأعمدة الداخلية[3] . وفي سبيل تحقيق هذه الأغراض لم يهمل المهندسون أمر العناية بجمال الكنيسة القوطية من الداخل والخارج ، حتى جاءت الكتدرائية المشيدة وفق هذا الطراز آية فنية تعبر تعبيرا صادقا عن قوة العامل الروحي وأثره[4] .

على أن أعظم ما امتاز به الطراز القوطي كان القوس المدبب ، ويمتاز هذا القوس المدبب عن القوس نصف الدائرى بأن أى جزء من أجزائه لا يمثل خطا أفقيا يخشى ألا يتحمل الثقل الذى يقع فوقه مما يؤدى بعد ذلك إلى إنهيار القوس

---

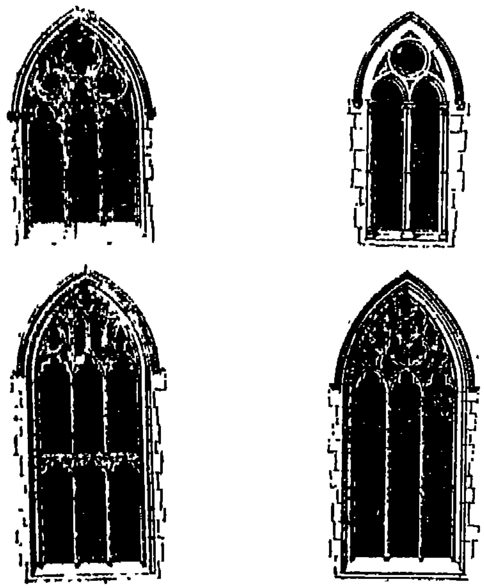
(1) Morey ; Med. Hist. Art, p. 256.

(2) Thompson : op. cit , vol. 2, p 846.

(3) Lethaby : Med. Art, pp.116-119 & Cam. Med, Hist., vol. 6 p.764.

(4) Bailey ; The Arts and Religion, pp. 86-88.

وما يحمله من بناء[١]. فإذا كان القوس نصف الدائرى لم يتوصل إلى حل للنظرية المعروفة فى هندسة العمارة — وهى أن الضغط الجانبى للبناء يتناسب تناسبا مطردا مع ارتفاع البناء — فإن الحل جاء سهلا فى حالة الأقواس المدببة . وبعبارة أخرى فإن الطراز القوطى وجد حلا لهذه المشكلة عن طريق عمل الأقواس والعقود والحنيات المدببة ، وهى التى يكون ثقلها على الجدران رأسيا؛ لا أفقيا كما هو الوضع فى حالة الأقواس نصف الدائرية التى عرفها الطراز الرومانسكى[٢] . وإذا كان السقف يعتمد على عقود مرتفعة مدببة ، فإن هذا من شأنه أن يوجد حلا لمشكلة النوافذ والإضاءة ، لأن السقف العالى



نماذج لنوافذ قوطية مدببة

المرتفع يتيح الفرصة لعمل نوافذ عالية طويلة ؛ هذا فى الوقت الذى لا يخشى على الجدران الرقيقة من كثرة فتحات النوافذ فيها لأن هذه الجدران لا تتحمل سوى نسبة ضئيلة من ثقل البناء[٣].

(1) Mâle : Hist. Generale de l'Art, Tome 1, pp. 321-322.
(2) Briggs : op cit,. pp 91 92
(3) Pirenne, Cohen, Focillon, pd, 529-531.

وهكذا يبدو - إذا وازنا بين كنيسة رومانسكية وأخرى قوطية - أن الأولى تبدو قليلة الإرتفاع ثقيلة البناء ، سميكة الجدران ، فى حين تمتاز الأخرى بعظم ارتفاعها وخفة بنائها ورقة جدرانها[1] . وإذا كانت المساحة الداخلية للكنيسة الرومانسكية قليلة بالنسبة لسمك جدرانها وضخامة أعمدتها ، فإن المساحة الداخلية للكنيسة القوطية تبدو فسيحة واسعة[2] . وبينما الكنيسة الرومانسكية تنقصها الإضاءة الكافية فى الداخل بسبب قلة النوافذ وصغر مساحتها ، إذا بالكنيسة القوطية تمتاز بنوافذها العديدة المتراصة الطويلة ، التى تسمح للضوء بالدخول بقدر كاف إلى إيوان الكنيسة؛ حتى عبر عن ذلك بعض الكتاب بقوله «إن الكتدرائية القوطية بناء سقفه من الحجر وجدرانه من الزجاج[3] . » هذا إلى أن الكنيسة الرومانسكية تتصف بعقودها نصف الدائرية وسقوفها نصف الإسطوانية، فى حين تمتاز القوطية بعقودها وأسقفها المدببة[4] .

أما الواجهات الخارجية للكنائس القوطية فامتازت بالأبراج العالية ذات الأطراف المدببة والشرفات والكرانيش وصفوف النوافذ المتراصة ، والتى لم يراع التناظر بينها فى كثير من الأحيان . وامتازت النوافذ القوطية بجمال أشكالها وزجاجها المزخرف المعشق بالرصاص ، والذى كان يعبر فى كثير من الأحيان عن مناظر أو قصص دينية[5] . كذلك حرص المهندسون على عمل نافذة مستديرة فى واجهة الكنيسة القوطية . وتنبعث من مركز هذه النافذة نحو محيطها خطوط مستقيمة تجعل النافذة تبدو كزهرة جميلة أما داخل الكنيسة القوطية فكان مقسماً إلى أقسام طولية يفصلها بعضها عن بعض صفوف من الأعمدة التى تستخدم فى حمل

---

(1) Cam. Med. Hist, vol 6, pp. 764-765.

(2) Ibid.

(3) Thompson: op. cit, vol 2, p. 847.

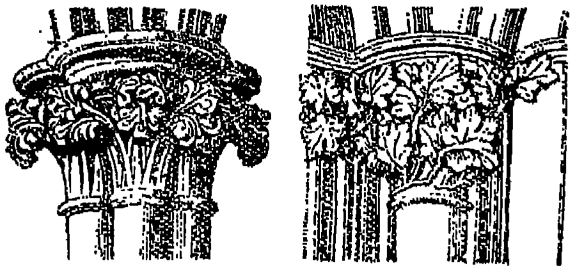
(4) Mâle: Hist, Generale de l'Art, Tome 1, pp. 322-323.

(5) Lethaby: Med. Art, pp. 130-133.



واجهة كنيسة قوطية

السقف . واختلفت أشكال هذه الأعمدة ، فكان منها ما هو عادى ، ومنها ما هو لولبى ، ومنها ما هو على هيئة مجموعة من الأعمدة الملتفة حول بعضها البعض. كذلك امتازت تيجان الأعمدة القوطية بأن أغلبها كان على شكل ناقوس منكس تكسوه بعض الزخارف المؤلفة من أوراق النبات وأغصان الشجر. أما القواعد السفلى التى



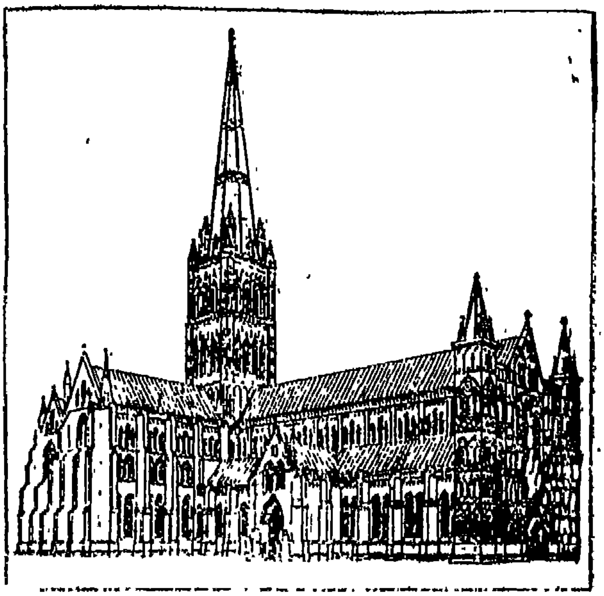
نماذج لتيجان أعمدة قوطية

ترتكز عليها الأعمدة ، فقد امتازت هى الأخرى بجمال النقش والتصميم[١] .

على أنه إذا كانت الخصائص السابقة تمثل المميزات العامة للطراز القوطى ، إلا أنه من الثابت أن هذا الطراز اكتسب طابعا خاصا فى كل بلد من بلدان غرب أوربا وفقا لعوامل البيئة والتقاليد . وقد أجمع الباحثون على أن نشأة الفن القوطى ترتبط بفرنسا مثلما ارتبطت نشأة الفن الرومانسكى بإيطاليا. وكان تصميم معظم الكنائس القوطية فى فرنسا على شكل حرف (H) مع العناية بتجميل هذه الكنائس من الداخل والخارج . كذلك روعى عمل كرانيش وأفاريز خارجية للكنائس فى الأجزاء الجنوبية من فرنسا حيث الشمس ساطعة لتهيئة قدر كاف من الظل[٢] . وتعتبر كتدرائية نوتردام وكتدرائية أميان خير ما يمثل هذا الطراز فى فرنسا . أما انجلترا فامتازت كنائسها القوطية بالإنسجام بين نسبها الهندسية وعدم الإسراف فى استخدام الزخارف . وربما يرجع السبب فى هذه الظاهرة الأخيرة إلى أن كثرة الغيوم والسحب تطلبت الأكثار من اتساع النوافذ ، مما لم يترك قدراً كافيا من الجدران لهذه الزخارف[٣] . هذا إلى أنه روعى فى اسقف الكنائس بانجلترا شدة الإنحدار لكثرة الأمطار . وأظهر الكنائس القوطية بانجلترا كتدرائية كانتربورى التى شيدت فى النصف الأخير من القرن الثانى عشر ، ثم تلتها كتدرائيات ويلز واكستر وغيرها ؛ وكلها تمتاز بجمال أعمدتها

(1) Mâ'e : Hist. Generale de l'Art, Tome 1, pp. 326-327.
(2) Pirenne, Cohen, Focillon, pp. 532-436.
(3) Cam. Med. Hist., vol 6, pp. 706-767.

وروعة زخارفها وجمال تيجان أعمدتها التى اقتبست وحداتها من الطبيعة[1] .



رسم تخطيطى لكتدرائية سالسبورى

و إذا كان الطراز القوطى قد ظهر فى ألمانيا فى وقت متأخر عنه فى فرنسا وانجلترا ، إذ لم تظهر أولى الكنائس القوطية فى ألمانيا إلا فى القرن الثالث عشر ، إلا أن هذا الطراز سرعان ما وجد تربة خصبة فى ألمانيا ، فاستعملت الأحجار فى بناء الكنائس الجميلة فى مختلف المدن الألمانية مثل كولونيا ومالبورج وستراسبورج وغيرها[2]. وقد تفنن المهندسون الألمان فى زخرفة قواعد الاعمدة ، وفى استخدام الزجاج المؤلف بالرصاص فى النوافذ محاكين فى ذلك النمط الفرنسى[3] . أما إيطاليا فكانت أقل البلدان الأوربية تحمسا للطراز القوطى . و ربما كان السبب فى ذلك هو تعلق الإيطاليين دائما بتراث الماضى وتقاليد أجدادهم الرومان[4]. ومع ذلك فقد تسرب الطراز القوطى إلى شمال إيطاليا فى القرن الثالث عشر ، وظهرت نماذج جميلة له بعد

(1 B iggs : op. cit., pp. 85-105.
(2 Cam. Med. Hist , vol. 6, p 770.
(3) Lethaby : Med Art, p. 2..0.
(4) Cam. Med. Hist, vol. 767-768.

ذلك فى سينا و بولونيا وفلورنسا و بيزا والبندقية وميلان. وهنا نلاحظ أن الإيطاليين لم يهتموا بفن الزجاج المؤلف بالرصاص اهتمامهم بالتصوير والزخرفة على الجص (الفرسكو)(١).

* * *

ومهما كان الأمر ، فإن طراز العمارة القوطى ظل هو الطراز السائد فى غرب أوربا حتى القرن السادس عشر، هذا على الرغم من ظهور حركة النهضة الإيطالية ؛ وهى الحركة التى نادت بالعودة إلى الفنون والطرز الكلاسيكية ونبذ فنون العصور الوسطى البربرية . ولعل هذا الشعور من جانب فنانى النهضة هو الذى دفع فاسارى (١٥١٢ — ١٥٧٤) تلميذ ميخائيل أنجلو إلى إطلاق اسم « القوطى » على هذا الطراز الذى يمثل أقصى ما بلغته الحياة الفنية فى غرب أوربا العصور الوسطى من كمال وابداع . ومن الواضح أن فاسارى لم يقصد بهذه التسمية التى استحدثها — والتى صارت علما لهذا الفن — سوى التحقير والازدراء ، والإشارة إلى أن هذا الفن يعبر عن روح البرابرة وهمجيتهم(٢)

فن التصوير والزخرفة

إذا كان فن العمارة فى أوربا العصور الوسطى قد ارتبط إلى درجة كبيرة بالمؤسسات الدينية — من كنائس وكتدرائيات وأديرة — فإن فن التصوير هو الآخر اتخذ طابعا دينيا ، وذلك لنفور الكنيسة ورجالها من صور الوثنية التى تحبب الناس فى الحياة الدنيا ولذائذها ، وهو اتجاه يتعارض مع دعوة الكنيسة نحو التقشف والبساطة والزهد(٣) .

---

(1) Lethaby : op. cit, pp. 201-214.

(2) Cam. Med Hist., vol. 6, p. 771.

(3) Bailey : The Arts and Religion; p.p. 45—46.

على أنه من الملاحظ أننا لا نجد أثرا للرقى والسمو الفنى حتى فى الصور الدينية التى ظهرت فى العصور الوسطى . فالمقابر ذات القباب — فى فجر العصور الوسطى — كانت تغطى اسقفها وجدرانها ببعض رسوم هندسية أو صور لطيور وحيوانات تغلب عليها البساطة ومعظم ألوانها مزيج بين الأحمر والأخضر[1] . أما الصور البيزنطية فكانت فى كثير من الحالات أقرب إلى الجمود والبعد عن الحركة والحيوية والطبيعة . ولعل خير ما فى هذه الصور ألوانها الزاهية والانسجام والتوافق بين هذه الألوان فى الرسم . وتعتبر أعمال الفسيفساء أبرز ناحية فى فن التصوير البيزنطى ، وبخاصة ما تم من تلك الأعمال فى كنيسة القديسة صوفيا حيث تبدو صورة المسيح على أرضية مذهبه وقد التف حوله الحواريون فى ملابسهم البيضاء ، فى حين وقفت مريم العذراء على مقربة منهم فى رداء أزرق سماوى[2] . وفيما عدا صور الفسيفساء التى رسمت على جدران الكنائس وفوق مذابحها ، فإننا نجد بقية الصور البيزنطية لا تختلف بعضها عن بعض كثيرا فى طابعها العام من حيث الجمود والخلو من الحياة[3] .

أما الفن الرومانسكى فقد امتاز بالزخارف الجصية (الفرسكو) فضلا عن أعمال الفسيفساء . على أننا نلاحظ فى هذا الفن قلة صور الأحياء واتجاه الزخرفة فى أول الأمر نحو الأشكال الهندسية والوحدات النباتية[4] . وإذا كانت صور الأحياء قد أخذت تتكاثر نوعا ما بعد مدة من نشأة هذا الفن ، فإن الفضل يرجع فى ذلك إلى الفرنسيين بوجه خاص ، الذين أكثروا من صور الحيوانات والطيور والأشكال الآدمية إلى جانب الصلبان والزخارف النباتية والرموز الدينية . كذلك شغف الإيطاليون بصفة خاصة باستخدام الرموز المسيحية فى الفن

(1) Cam. Med. Hist ; vol. 1; p. 600
(2) Lethaby : Med. Art; p. 54.
(3) Simpson : op. cit.; vol 1; p.p. 219—220.
(4) Mâle : Hist. Generale de l'Art; Tome 1; p p. 315—317.

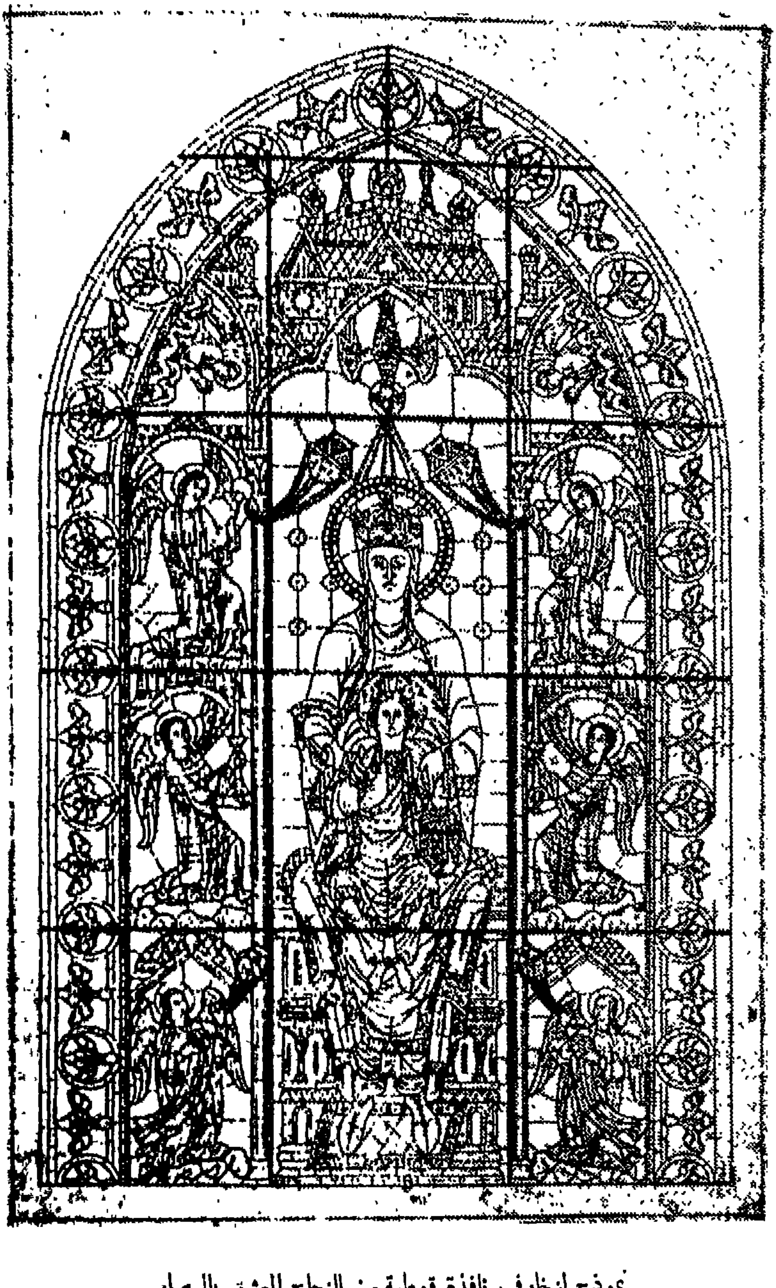
الرومانسكى ، فاستبدلوا بصور المسيح والقديسين رموزا خاصة كالعصفور والشجرة والسمكة . أما الحلزون المتصل الذى لا تبدو له بداية أو نهاية فقد عبروا به عن الخلود[١] .

وإذا كانت الكنائس الرومانسكية قليلة الضوء — بسبب قلة النوافذ — مما أضفى على الصور الموجودة داخل الكنيسة مسحة قاتمة جافة ، فإن اتساع النوافذ وكثرتها فى الطراز القوطى لم يترك متسعاً للتصوير على الجدران . لذلك اتخذ الفن القوطى من زجاج النوافذ مسرحا للتصوير ، فبلغت الرسوم على الزجاج المؤلف بالرصاص درجة رائعة من الجمال فى الكنائس القوطية ، وذلك بفضل ألوانها المركبة المنسجمة ومناظرها الخلابة[٢] . وكثيراً ما استغلت هذه الرسومات على زجاج النوافذ فى التعبير عن مناظر دينية أو أفكار مستمدة من الإنجيل ، حتى ليبدو أن الكنيسة استغلت قوة تأثير الفن على عقول رعاياها غير المتعلمين ، « فجعلت من الكتدرائية كتابا من الحجر يطالعه الناس فيقفون على كثير من القصص الدينى الذى يزيدهم ولاء وخشوعا »[٣] . وفيما عدا هذه المناظر الدينية اشتهر الطراز القوطى باستخدام الوحدات النباتية كأوراق النبات والأزهار فى الزخرفة ، مما جعل الفنان يزداد قربا من الطبيعة وحيويتها[٤] .

فإذا تركنا الكنائس وزخارفها ، فإننا نجد فن التصوير — من زخرفة ورسم — يظهر بوضوح فى ميدان آخر هو المخطوطات والكتب . ولا توجد لدينا معلومات كافية عن نشأة هذا النوع من أنواع التصوير فى أوائل العصر المسيحى ، ولكننا نلمس بعد ذلك مركزين مهمين لهذا الفن أحدهما فى الشرق البيزنطى

---

(1) Pirenne, Cohen, Focillon : op cit.; p p 515 – 523.
(2) Lethaby : Med Art; p p 132 – 135.
(3) Mâle : Religious Art, p.p. 95 – 96.
(4) Cam. Med. Hist.: vol. 8; p.p. 727 – 728.



نموذج لزخارف نافذة قوطية من الزجاج المعشق بالرصاص

والآخر فى أيرلند[1] . و يبدو أن نشأة هذا الفن فى الشرق البيزنطى جاءت بدافع

(1) Thompson : op. cit.; vol. 2; p. 851.

الرغبة فى تصوير المناظر التى توجد داخل الكنائس مصغرة على رقائق الكتب. أما فى أيرلند فقد اختلف الوضع إذ اقتصر الأمر على تزيين الكتب برموز ورسومات غير واضحة(١). ثم كان أن انتقل فن تزيين الكتب من أيرلند والشرق البيزنطى إلى انجلترا وغاليا الفرنجية، فظهر فى الكتب الأنجلو سكسونية هذان الطابعان من زخرفة الكتب. ومن انجلترا انتقل هذا الفن إلى القارة حيث جاءت مخطوطات غاليا وألمانيا خير مثل لما بلغه فن تصوير الكتب فى عصر النهضة الكارولنجية(٢).

فن النحت

أما فن النحت فقد سار هو الآخر فى ركاب المسيحية، فحل المسيح والعذراء فى العصر المسيحى محل زيوس وجوبيتر وأبولو وغيرهم من آلهة المسيحية (٣). وقد أجمع الباحثون على أن انتشار المسيحية أدى إلى تأخر فن النحت عما كان عليه فى العصور القديمة، وذلك لكره هذه الديانة السماوية لأوثان العهد البائد (٤)؛ حتى أن بعض الباحثين يميلون إلى القول بأن فن النحت لم يولد من جديد فى أوربا العصور الوسطى إلا فى القرن الحادى عشر(٥).

وقد أدت الحركة اللاأيقونية فى الدولة البيزنطية إلى محاربة نحت الأيقونات والصور الإنسانية، ومن ثم اتجه الفن البيزنطى فى الفن نحو الاقتصار على عمل الأشكال الهندسية والوحدات النباتية. وهناك نوع من أنواع النحت كان شرقيا بحتا ولم يعرفه الغرب إلا عن طريق الدولة البيزنطية، هو النحت فى العاج. ولم

---

(1) Cam. Med Hist ; vol. 3; p. 566
(2) Morey : Med Art; p.p. 196–206
(3) Cam Med Hist ; vol. 1; p p. 601 -602.
(4) Vitry : The Legacy of the Middle Ages; p. 96.
(5) Mâle : Religious Art: p. 17.

يلبث أن انتشر هذا النوع من النحت فى عصر النهضتين الكارولنجية والأوتية ، بحيث خلف لنا ذلك العصر أمثلة رائعة لتماثيل منحوتة من العاج فى غرب أوربا[1].

أما النحت فى الفن الرومانسكى فقد اتضح فى عدة ميادين ، أهمها تيجان الأعمدة التى نحتت بدقة وعناية لتصور أوراق النبات والأزهار وغيرها . وقد ظهرت التماثيل الخرافية والمضحكة فى الفن الرومانسكى فى شمال إيطاليا ، ووضعت هذه التماثيل عند قواعد الأعمدة ، كما حفرت بعض مناظر تمثل صورا من الحياة اليومية كالصيد . أما ألمانيا فقد شاع استعمال الآجر فيها فى العصر الرومانسكى ومن ثم قلت التماثيل المحفورة فى الحجر . وفى فرنسا استعملت التماثيل عند أبواب الكنائس ، كما استعمل الحفر فى زخرفة تيجان الأعمدة وواجهات الأبنية[2]. ويلاحظ على تماثيل العصر الرومانسكى بوجه عام خلوها من عنصر الحيوية والحركة واتصافها بالجمود ، هذا على الرغم مما فيها من قوة ومهارة .

والواقع أن روح الحيوية والدقة فى محاكاة الطبيعة لم تبدأ فى الظهور فى أوربا العصور الوسطى إلا فى الفن القوطى . حقيقة إن فنانى العصر القوطى الأول ظلوا يرسفون فى كثير من القيود التى لم يتحرروا منها إلا فى عصر النهضة الإيطالية ، ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن ننكر أن الفن القوطى بذل جهداً كبيراً فى العمل على محاكاة الطبيعة[3] . وهكذا جاءت الكنيسة القوطية بمثابة معرض كبير ، بفضل ما بذله النحاتون من جهود فى نقش مختلف المشاهد الدينية وغير الدينية ، مثل تماثيل القديسين وحشوات الحفر المأخوذة من الوحدات النباتية ، والتماثيل الخرافية المبتكرة كالغول والعنقاء[4] . وفى كل هذه النواحى حاول الفنانون

---

(1) Lethaby : Med. Art; p.p. 159—160.

(2) Mâle : Hist. Generale de l'Art; Tome 1; p.p. 309—314.

(3) Morey : Med. Art; p. 275.

(4) Cam. Med. Hist ; vol. 8; p.p. 722—725.

محاكاة الطبيعة والتخلص — بقدر الإمكان — من التقاليد البالية التى قيدت فن النحت فى العصور السابقة[١]

أما خارج الكنيسة القوطية فقد امتاز بالزخارف المحفورة فى الحجر ، والتى تقسم واجهتها إلى أقسام رأسية تبدو واضحة على الجدران والأبواب والأبراج والعقود العمياء . هذا فى الوقت الذى روعى أن تمثل الميازيب الحجرية أشكالا خيالية لبعض الحيوانات والطيور الممسوخة[٢] .

* * *

وبعد ، فإننا فى كلامنا عن الحياة الفنية فى العصور الوسطى اعتمدنا على المشاهدة وعلى الآثار المادية التى خلفتها لنا تلك العصور[٣] . ذلك أن الكتاب المعاصرين وجهوا عنايتهم نحو التطورات السياسية والدينية وأهملوا ما عداها من تطورات فنية . وهكذا نجد أنفسنا فى كثير من الحالات لا نملك سلاحا سوى الاستنتاج وذلك عند ما نريد الوقوف على الطريقة التى كان يتم بها تشييد هذه المبانى الضخمة ، وعلى حياة العمال والفنانين المهندسين والأدوات والآلات التى استعملوها فى انجاز أعمالهم ، أو الطريقة التى تعلموا بها حرفهم حتى أجادوها .

من ذلك أنه لا يوجد هناك شك فى أن الصناع والفنانين فى أوربا العصور الوسطى استخدموا الآلات والأدوات نفسها التى كانت تستعمل فى العصر الرومانى القديم ، وأنهم لم يتلقوا أصول فنهم فى مدرسة خاصة أو كتب معينة ، وإنما تلقوها فى ميدان الحياة العملية . ولما كانت إقامة كنائس ضخمة أو حصون منيعة أمراً لا يمكن أن يتم بطريقة ارتجالية ، فإنه من الثابت وجود مهندسين فنيين وضعوا التصميمات الخاصة بمثل هذه المبانى العظيمة وأشرفوا على تنفيذها[٤]

(1) Vitry : The Legacy of the Middle Ages; p. 193.

(2) Mâle : Hist. Generale de l'Art; Tome 1, p.p. 341—347.

(3) Coulton : Life in the Middle Ages; vol. 2; p. 10.

(4) Harvey : The Gothic World; p.p. 14—16.

وفى هذه الحالة لم تهتم المراجع والوثائق المعاصرة بذكر أسماء هؤلاء المهندسين ، اهتمامها بتخليد اسم السيد الذى استأجرهم وعهد إليهم بالقيام بذلك العمل الهندسى. ولم يحفظ لنا التاريخ سوى أسماء نادرة من مهندسى العصور الوسطى مثل فيلارد دى هونيكورت (Villard de Honnecourt) الذى ترك كتابا به بعض ملاحظات قيمة فريدة فى بابها . ومن هذه الملاحظات نفهم أنه هو الذى وضع تصميم كتدرائية كامبراى Cambrai ، وأنه أشرف على بناء عدة كتدرائيات أخرى عظيمة ، حتى كانت سنة ١٢٥٠ عندما عهدت إليه ملكة هنغاريا بالإشراف على بناء بعض الكنائس فى بلادها . وقد ترك فيلارد كتابا يحوى بعض التصميمات والرسوم الهندسية ، ليهتدى به من يريد أن يخلفه فى مهنته . وإذا كان هذا هو الكتاب الوحيد الذى وصل إلينا من المراجع الهندسية التى وضعها مهندسو القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، إلا أنه يثبت لنا أن العلاقة بين الهندسة والفن كانت قوية فى أوربا العصور الوسطى ؛ بل ربما كانت أقوى مما هى عليه الآن(١) .

(1) Stephenson : Med. History; p.p. 387—396.

الباب الحادى عشر
إيطاليا والنهضة

أوربا بين عصرين :

سبق أن ذكرنا فى بداية الجزء الأول من هذا الكتاب أن تقسيم التاريخ إلى عصور أمر غير طبيعى ، على الرغم من أهمية هذا التقسيم لدراسة التاريخ[١] . حقيقة إن الفوارق بين العصور التاريخية القديمة والوسطى والحديثة تبدو فى كثير من الأحيان واضحة جلية ، ولكن من التعسف أن نضع فواصل تاريخية معينة بين كل عصر وآخر لأن التطور التاريخى يأتى تدريجياً دون أن يخضع لحدث معين أو يتحدد بيوم أو سنة أو قرن . وكل ما هنا لك هو أنه توجد فترة انتقال زمنية بين كل عصر وآخر من عصور التاريخ ، وفى هذه الفترة نرى بعض بشائر العصر الجديد وقد أخذت تشق طريقها وسط معالم العصر السابق .

وعصر النهضة هو الذى يمثل فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة[٢] ؛ فهو العصر الذى نختتم به دراستنا لتاريخ العصور الوسطى، وفى الوقت نفسه نبدأ به دراسة تاريخ أوربا العصور الحديثة . وفى كلتا الحالتين لا يمكننا تحديد بداية زمنية دقيقة لهذه النهضة ، ولكن من الممكن القول بأن بذورها ظهرت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر لتبلغ أشدها فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ؛ ثم تستمر ذيولها فى صورة حركات الإصلاح الدينى والنزاع المذهبى فى القرن السادس عشر[٣] . وبعد ذلك ينتهى عصر النهضة -- أو فترة

---

(1) Cam. Med. Hist.; vol. 8; p.903 & Cam. Modern Hist ; vol.1, p.1.

(2) Symonds : Renaissance in Italy, vol' 1, p. 1.

(3) Idem; p. 7.

الانتقال — لنجد أنفسنا فى عصر حديث يختلف فى معالمه ومثله وآفاقه وحضارته المعنوية والفكرية والمادية عما كان عليه عالم العصور الوسطى .

والواقع أنه يصعب على الباحث حصر جميع أوجه الخلاف بين العصور الوسطى والحديثة ، وإنما نستطيع أن نبرز ثلاثة عناصر أساسية كبيرة تجعلنا نشعر فعلا بالفارق بين العهدين[1] . أما الجانب الأول فيبدو فى أن العصور الحديثة عرفت الدولة كوحدة سياسية تقوم على أساس الشعور القومى الذى يربط بين أبناء الأمة الواحدة . فالأمم الحديثة كالأمة الأسبانية أو الإنجليزية أو الإيطالية لم يتم تكوينها على أساس التماسك بين أبنائها والشعور بالفارق بينهم وبين غيرهم من أبناء الأمم الأخرى إلا فى أواخر عصر النهضة . وبينما ظل المفكرون السياسيون فى العصور الوسطى متأثرين بتقاليد الامبراطورية الرومانية العالمية وفكرة الكنيسة العالمية أيضاً ؛ ومن ثم اعتبروا العالم المسيحى بأكمله يمثل دولة واحدة على رأسها زعيمان هما البابا والامبراطور ليعبر الأول عن السلطة الدينية ويعبر الثانى عن السلطة الدنيوية ؛ إذا بالعصور الحديثة تتنكر لكل هذه المبادىء وتنادى بأن لكل دولة كيان سياسى مستقل يعتمد على الشعور القومى الذى يربط بين أبنائها ويجعلهم يتعصبون بعضهم لبعض فضلا عن تعصبهم لوطنهم[2] .

والفارق الثانى بين العصور الوسطى والحديثة هو أن الأولى لم تتخذ الفرد وحدة أو أساسا للبناء الاجتماعى[3] . فالفرد فى العصور الوسطى لا يمثل الخلية الأولى فى بناء المجتمع ، وإنما تتمثل هذه الوحدة فى المجموعة ، سواء كانت هذه الوحدة الضيعة الإقطاعية أو كانت القومون — وهى المدينة ذات الكيان السياسى

---

(1) Lodge : The Close of the Middle Ages; p.p. 516- 517.

(2) Cam. Modern. Hist., vol. 1, p. 2.

(3) Cam. Med Hist., vol. 5, p. 624.

المستقل — أو كانت النقابة التى تنظم مصالح أبناء الحرفة الواحدة . و بعبارة أخرى فإن الفرد كان لا شىء فى العصور الوسطى ، فى حين كانت المجموعة هى كل شىء . ولم يكن هناك مجال أمام الفرد فى العصور الوسطى لإظهار نشاطه وكفايته ؛ اللهم إلا إذا انتظم فى سلك الكهنوت فعندئذ فقط يستطيع الفرد المغمور أن يبرز ويظهر ويحتل مكانة مرموقة فى المجتمع ، أما العصور الحديثة فقد اعترفت بحرية الفرد ومكانته وأعطته حقه كاملا فى المجتمع وفى الحياة(١) ؛ حتى قيل إن أعظم ما حققته النهضة هو أنها كشفت عن العالم والفرد(٢) !

أما الفارق الثالث بين العصور الوسطى والحديثة فهو انتشار الجهل والجمود فى الأولى واتساع نور المعرفة ونطاق التفكير فى الأخرى . ولسنا نريد أن نبالغ فنحا كى البعض فى القول بأن العصور الوسطى كانت عصور ظلام وجهل على طول الخط ، إذ أثبت الواقع أن ركاب الحضارة لم يتوقف فى أوربا العصور الوسطى ، وأن تلك العصور لم تخل من دراسات ونهضات ووثبات حضارية(٣) . بل إننا نكرر القول بأنه يمكن اقتفاء جذور نهضة القرن الخامس عشر فى أوربا القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، كما يبدو لنا من أبواب القسم الثانى من هذا الكتاب أن العصور الوسطى كانت لها حضارتها ذات الطابع الخاص التى تنفى عنها تهمة الظلام المطبق . ولكن كل ما نريد أن نثبته هو أن الكنيسة ومؤسساتها ورجالها هم الذين احتكروا العلم والتعليم طوال الشطر الأكبر من العصور الوسطى . وليس بخاف أن الكنيسة كانت تعرض قيوداً شديدة على حرية الفكر وحرية البحث العلمى ، حتى انتهى مصير كل من حدثته نفسه بشىء من التحرر الفكرى إلى اتهامه بالهرطقة ، وبئس المصير . فالجمال إثم ، والمرح وزر ، والحياة عرض زائل ، والجهل برهان على الخضوع لله والرضاء بأحكامه . . .

(1) Cam. Modern Hist , vol. 1, p. 3.

(2) Symonds : Renaissance in Italy, vol. 1, p. 12.

(3) Eyre : op. cit., p. 334.

وهكذا حتى جاءت النهضة فحررت العقل البشرى من هذه المعتقدات وجعلته طليقاً يسبح حراً فى دنيا التأمل والجمال[1] . هذا بالإضافة إلى أن وسائل التعلم واكتساب المعرفة كانت محدودة و باهظة النفقات فى أوربا العصور الوسطى . فالطباعة لم تكن قد عرفت بعد ، والورق لم تتوصل إليه أوربا إلا عن طريق العرب فى أواخر العصور الوسطى ، ورقائق جلود الحيوانات التى استخدمت فى الكتابة كانت باهظة التكاليف ؛ حتى لجأ الناس إلى محو ما على الرقائق من كتابات قديمة لإعادة استخدامها أكثر من مرة . فإذا أضفنا إلى ذلك انتشار الخرافات والمعتقدات الباطلة فى العصور الوسطى ، وقلة من عرفوا اللغة اللاتينية قراءة وكتابة — وهى لغة الأدب والعلم فى تلك العصور — أمكننا فى النهاية إدراك مدى الفارق الثقافى بين العصور الوسطى والعصور الحديثة[2] .

فعصر النهضة إذا هو العصر الذى شهد نهاية النظام الاجتماعى والسياسى الذى عرفته العصور الوسطى ، كما أزيلت فيه القيود التى فرضتها تلك العصور على حرية الفكر والبحث . والواقع أن الجزء الأخير من العصور الوسطى شهد تغييرات وتطورات على جانب كبير من الأهمية ؛ منها اضمحلال الامبراطورية والبابوية جميعاً[3] ، ونمو الأمم الفرنسية والأسبانية والانجليزية ، وظهور اللغات القومية ، وانهيار النظام الاقطاعى ونظام الفروسية نتيجة لنمو الصناعة ونشاط التجارة وتحرر المدن[4] . هذا كله بالإضافة إلى التخلص من سيادة أرستقراطية الأمراء ورجال الدين نتيجة لارتقاء عامة الناس إلى المناصب السياسية ، ونمو ملكيات قوية تعتمد على تأييد الشعب فى كثير من بلاد أوربا . ولا بد من أن نضيف إلى هذه التغييرات التى أدت إلى حركة النهضة وساعدت على مولدها

---

(1) Symonds : Renaissance in Italy, vol. 1, p. 11 & vol. 2, p 130.

(2) Lodge : op. ci ., p 518.

(3) Pirenne : La Fin du Moyen Age; Tome 2, p.p. 1 - 24.

(4) Idem, p.p, 142—155.

ما تم فى ذلك العصر من اختراعات واستكشافات عظيمة[١]. فاستخدام البوصلة والاسطرلاب وما ترتب عليهما من تقدم الملاحة البحرية ، أدى إلى الكشف عن طريق الهند البحرى والكشف عن العالم الجديد ؛ مما ساعد على ازدياد المعرفة واحداث ثورة شاملة فى طرق التجارة فى العالم أجمع . هذا بالإضافة إلى استكشاف البارود وما وما ترتب عليه من ثورة فى نظم الحرب والمجتمع ، واستكشاف الطباعة ، وما أدى إليه من انتشار العلم والمعرفة[٢] . وأخيرا جاء سقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين سنة ١٤٥٣ ليدفع كثيرا من علمائها إلى الفرار نحو الغرب حاملين معهم قسطا كبيرا من علوم اليونان وحضارتهم[٣] .

وجميع هذه التطورات تنتمى إلى النهضة وترتبط بها ، وعلى ذلك تجب علينا دراستها كلها دراسة شاملة إذا أردنا الإحاطة التامة بالنهضة فى كافة البلاد الأوربية ؛ وهو الأمر الذى يخرج عن نطاق هذا الكتاب . لذلك نكتفى بالإشارة إلى أوجه نشاط النهضة بمعناها الضيق — أعنى حركة إحياء الآداب والفنون — وهى الحركة التى ارتبط مولدها ونشأتها بإيطاليا . هذا مع اعترافنا بأن اصطلاح النهضة بمعناه الواسع لا يقتصر على إحياء الآداب والفنون ودراسات القدماء من يونان ورومان فحسب ، وإنما يمتد هذا المعنى ليشمل تغيير الآراء والمثل المعنوية والاجتماعية والسياسية التى سادت العصور الوسطى[٤] .

إيطاليا وحركة النهضة :

والواقع أن إيطاليا تستطيع أن تفخر بأنها الدولة التى شهدت مولد النهضة الأوربية العظيمة وتولت زعامتها ، وهى النهضة التى ظهرت واضحة جلية فى القرن

(1) Lodge : op. cit , p.p. 518—519.
(2) Symonds : Renaissance in Italy, vol. 1, p.p. 22—23.
(3) Eyre : op cit.; p. 287.
(4) Ibid.

الخامس عشر . ولا عجب ، فإن إيطاليا امتلكت لغة قومية وجواً معتدلا وحرية سياسية ورخاء اقتصاديا ، فى الوقت الذى كانت بقية البلاد الأوربية لا تزال فى حالة واضحة من الجمود والتأخر[1] . وفيما يتعلق بالأدب والفن ، لم تشهد إيطاليا حركة إحيائهما فحسب ، وإنما تعهدتهما بالرعاية والعناية حتى اكتمل نموهما وازدهرا بين ربوعها . وبعد ذلك أخذت بقية الأمم الأوربية تتلقى من إيطاليا أصول النهضة وتطبق هــذه الأصول فى ميادين جديدة كالإصلاح الدينى والاستكشافات التى تمت فى مختلف ميادين المعرفة .

وهنا نواجه مشكلتين هامتين : الأولى هى لماذا انفردت إيطاليا — دون غيرها من البلاد الأوربية — بشرف مولد النهضة الأوربية الحديثة بين ربوعها ؟ والأخرى هى كيف تولد النهضة فى إيطاليا ، وهى مركز البابوية والكنيسة الغربية التى عرفت طوال العصور الوسطى بالجمود والتزمت وتقييد حرية الفكر ؟ أما الإجابة عن السؤال الأول فخلاصتها أن إيطاليا — وعاصمتها روما — ظلت فى العصور الوسطى تحتفظ بقدر كبير من تراث الرومان القدماء ومجدهم ، على الرغم من أنها تعرضت لغزو البرابرة وتدميرهم ، شأنها شأن بقية الولايات الرومانية[2] . وإذا كانت روما لم تعد حاضرة إمبراطورية ضخمة كما كان الحال فى سالف الزمان ، فإنها أضحت فى العصور الوسطى مركز البابوية وقبلة العالم المسيحى الغربى بأكمله ، مما أضفى على إيطاليا مكانة خاصة لم تتوافر لغيرها من الدول الأوربية . هذا بالإضافة إلى أن موقع إيطاليا الجغرافى على جانب عظيم من الأهمية فى عصر كان البحر المتوسط مركز التجارة العالمية . وهكذا أدى النشاط التجارى ووفرة الإنتاج إلى ازدياد ثروة المدن الإيطالية الشهيرة مثل البندقية وجنوا وفلورنسا[3] . وهل هناك شك فى أن ازدياد ثروة الأفراد والجماعات تؤدى

---

(1) Cam. Modern Hist., vol. 1, p. 3

(2) Lodge : op cit., p. 520.

(3) Cam. Med. Hist.; vol. 8; p. 219.

فى معظم الحالات إلى الاعتداد بالنفس والشعور بالقوة والسلطان والرغبة فى تنوير الفكر والتحرر من كافة القيود والأغلال ، فضلا عن حب الترف والتفنن فى اقتناء التحف والمبالغة فى مكافأة المنتجين ، مما يدفعهم إلى زيادة الإتقان والتحمس للابتكار[١] .

وأما عن المشكلة الثانية الخاصة بموقف البابوية من حركة النهضة الإيطالية فخلاصة حلها أن البابوية فى أواخر العصور الوسطى لم تعد كما كانت عليه فى أوائل تلك العصور . ذلك أن البابا أضحى فى أواخر العصور الوسطى — بالإضافة إلى صفته الدينية كرأس للكنيسة — حاكما دنيويا لا يختلف عن الملوك والأمراء وغيرهم من الحكام الدنيويين المعاصرين ؛ فله أراضى يحكمها ، وله بلاط يعج بالأتباع والموظفين ؛ بل إن البلاط البابوى لم يخل من المفاسد والمخازى التى ليس لها نظير فى بلاط بقية الملوك والأمراء العلمانيين[٢] . وفى الوقت الذى أخذ المسيحيون فى شمال أوربا يستقبحون هذا الوضع الذى أمست فيه البابوية و بلاطها ، و يستنكرون القبائح التى تردى فيها البابوات ، إذا بالإيطاليين أنفسهم ينظرون إلى هذه الأوضاع على أنها شىء عادى لا عيب فيه ، ولا يختلف عما كان عليه بقية الأمراء الإيطاليين فعلا[٣] . وكل ما كان يهتم له الإيطاليون حينئذ هو أن يبقى الكرسى البابوى فى روما ، وأن تظل إيطاليا مركز الكنيسة الغربية حتى تتدفق عليها الأموال التى يجمعها رجال البابا من مختلف بلاد العالم الغربى . ولم يلبث البابوات أن أخذوا يسابقون الأمراء الإيطاليين فى تشجيع الآداب ورعاية الفنون ، فنافسوا آل مديتشى فى فلورنسا وملوك نابلى ، وهرع الأدباء والفنانون إلى البلاط البابوى طامعين فى حسن الجزاء وكرم العطاء[٤] . وهكذا وجد من البابوات أمثال نيقولا الخامس

---

(1) Eyre : op. cit., p. 628.

(2) Cam. Med. Hist., vol 7, p.p. 281—282.

(3) Symonds : Renaissance, vol. 1, p.p. 292—295

(4) Cam. Med Hist, vol. 8, p. 773.

(١٤٤٧ — ١٤٥٥) وليو العاشر (١٥١٣ — ١٥٢١) من أسهم فى بناء النهضة وعمل على تشجيع رجالها ، بل إنه منذ وقت مبكر — يرجع إلى أوائل القرن الرابع عشر — ظهر فى البلاط البابوى فى أفينون إتجاه نحو تشجيع التراث الكلاسيكى [١] .

النهضة الأدبية :

وليست الأهمية فى إحياء الآداب والفنون إلى أن هذا الإحياء أثار موجة من التقدم الفكرى قضت على الجهل والخرافات فحسب ، بل إن هذا الإحياء جاء خطوة كبرى فى سبيل تحرير الفرد من قيود العصور الوسطى . ذلك أن الفرد كثيراً ما يجد فى الفن والأدب مجالا واسعاً للتعبير عن مواهبه الذاتية والوصول إلى قمة الشهرة والمجد ، دون حاجة إلى الاعتماد على شرف المولد أو الارتباط بهيئة أو جماعة معينة [٢] . وكان دانتى (١٢٦٥ — ١٣٢١) — الذى احتل مكانة بارزة عند مدخل النهضة الإيطالية — أول رجل عظيم فى العصور الوسطى وقف بمفرده واعتمد على نفسه وعلى مواهبه فى الوصول إلى قمة الشهرة دون أن يرتبط بهيئة دينية أو علمانية . ذلك أن « الكوميديا الإلهية » التى وضعها دانتى صبغت أولى اللغات الأوربية الحديثة بطابعها الأدبى ، ومن ثم أصبح هذا الإنتاج بالغ الأهمية بالنسبة لإيطاليا ، كما ترك أثراً عميقاً فى نفوس الإيطاليين وعقولهم [٣] . وحسبنا أن أسمى أمنية يتمناها الكاتب الإيطالى اليوم هى أن يستخدم أسلوب دانتى ولغته ، حتى أنه كثيراً ما يرجع إلى المعاجم ليتأكد من أن لفظه المختار كان مستعملا فى القرن الثالث عشر . على أن دانتى — على الرغم من عظمته — لم يكن مشبعاً بالروح الحديثة ، ولم يحاول أن يحرر نفسه من آراء معاصريه ومعتقداتهم ليرتفع فوق مستواهم . ففى رسالته عن الملكية (De Monarchia)

(1) Eyre : op. cit , p. 589

(2) Lodge : op. cit., p. 522.

(3) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 2, p p. 196—201.

يراه يستسلم لآراء الفلسفة المدرسية ، ويبذل مجهوداً كبيراً للدفاع عن نظرية الامبراطورية العالمية[1] . وعلى ذلك قد يكون من الصواب أن نقول إن دانتى الذى يقف على عتبة النهضة ، يمثل فى الواقع آخر عمالقة العصور الوسطى أكثر منه أول رسل العصور الحديثة[2] .

وبعد دانتى جاء بترارك (١٣٠٤ — ١٣٧٤) الذى أثرت قصائده الغزلية فى آداب جميع البلاد الغربية ، فى حين يعتبر أول الانسانيين الإيطاليين نظرا لحبه لأدب القدامى وشغفه بحريتهم[3] . وقد عثر بترارك على خطبتين لشيشيرون فى ليبيج سنة ١٣٣٣ ، وعلى مجموعة أخرى من رسائله سنة ١٣٤٥ ؛ ومن ثم أخذ يواصل البحث عن تراث القدامى حتى جمع ما يقرب من مائتى مخطوطة ظل يحتفظ بها أمام عينيه فى حله وترحاله[4] . وقد عاصر بترارك عبقرى آخر على جانب كبير من الإلهام وقوة الابتكار — هو بوكاشيو Boccaccio (١٣١٣ — ١٣٧٥) — الذى حاكى بترارك فى ولهه بدراسه آداب القدماء حتى أنه فعل الكثير من أجل إدخال دراسة اللغة اليونانية فى إيطاليا[5] . وكان أن أحرز بوكاشيو شهرته العظيمة من المائة قصة التى وضعها ، والتى تعرف باسم « الأيام العشرة Decameron على أساس أن سردها يستغرق عشرة أيام[6] . وفى هذه المجموعة من القصص يظهر بوكاشيو احتقاره لخرافات العصور الوسطى وتقاليدها البالية ، كما ينظر إلى الحياة نظرة مرحة باسمه ؛ وهذه كلها اتجاهات غريبة عن العصور الوسطى جديدة عليها[7] . وقد استعار شوسر فيما بعد فى مؤلفه « قصص

(1) Eyre : op, cit , p p 476–477.
(2) Symonds : Renaissance in Italy, vol, 1, p.p. 8 – 9
(3) Foligno : Epochs of Italian Literature, p. 12.
(4) Eyre : op. cit., p, 589.
(5) Eyre : op. cit., p. 590.
(6) Symonds : Renaissance, vol. 2, p. 63.
(7) Stephenson : Med. Hist., p. 583.

كانتربورى » كثيرا من الفصول والمواقف التى زخرت بها قصص بوكاشيو ؛ وعن طريق شوسر تأثر بقية الكتاب فى العصور التالية للأدب الانجليزى بنفوذ بوكاشيو .

والحق إن هؤلاء الأعلام الثلاثة — دانتى و بترارك و بوكاشيو — هم الذين أعادوا لإيطاليا حريتها الفكرية . حقيقة إن النهضة لم تكن قد بدأت بعد ، ولكن ظهورهم بشر بها وجعل قدومها أمراً متوقعاً فى السنوات التالية[1] . وقد أعقب هؤلاء الثلاثة مجموعة من الجامعين ، وهم الذين أخذوا يتنقلون بين مختلف أنحاء أوربا — بل خارجها — للبحث عن مخطوطات القدماء وجمعها ، بفضل ما صادفوه من تشجيع بعض الأمراء والبابوات مثل كوزيمو دى مديتشى والبابا نيقولا الخامس[2] . ومن الصعب علينا الآن تصوير مدى الحماسة التى أقبل بها هؤلاء على مهمة الجمع ، حتى لقد دفعتهم الرغبة فى اقتناء المخطوطات القديمة إلى الاحتيال والخداع فى بعض الأحيان[3] . وقد ظهر من هؤلاء الجامعين فريق أدوا خدمة لا تقدر للعلم والعالم ، مثل بوجيو ، وفرانسسكو فليلفو ، ونيقولو نيقولى مؤسس مكتبة سانت مارك فى فلورنسا[4] . أما اللغة الإيطالية فى خلال هذه الفترة — أى فى النصف الأول من القرن الخامس عشر تقريباً — فكانت فى طى النسيان ، لعدم ظهور كتاب كبار حينئذ — سوى بوجيو وسلفيوس — وكلاهما لم يكتب سوى باللاتينية . والواقع أن الفضل فى عدم زوال اللغة الإيطالية كلية ، إنما يرجع إلى آل مديتشى فى فلورنسا ، وهى الأسرة التى حرصت على تشجيع الآداب والفنون واستمالة الأدباء والفنانين حتى جعلوا من مدينتهم « آثينا إيطاليا »[5] .

---

(1) Symonds : Renaissance, p. 9.
(2) Eyre : op. cit ; p.p 600-601.
(3) Symonds : Renaissance; vol. 2; p.p. 98-103.
(4) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1; p.p.517-519.
(5) Eyre : op. cit, p. 614.

وحسبنا أن لورنزو مديتشي — الذى تسلم أعنة الحكم سنة ١٤٦٩ وهو فى الحادية والعشرين من عمره — كان يعرف اللاتينية واليونانية ، و يتذوق التاريخ والفلسفة فضلا عن تحمسه لجميع ألوان الفنون ، حتى أنه دون بنفسه مجموعة شهيرة من الأغانى بالإيطالية لتنشد فى الأعياد الشعبية ، مما يوضح لنا إلى أى حد عمل هذا الأمير على النهوض باللغة الإيطالية وسط محيط متضارب من الدراسات اليونانية واللاتينية [١].

ثم كان أن دخلت الدراسات الكلاسيكية فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر فى دور جديد — خلاف دور الجمع — هو دور النقد [٢]. فبعد أن انتهى المعاصرون من جمع أكبر قدر ممكن من التراث القديم ، أخذوا يتفهمون هذا التراث و يدرسونه و يحاولون تطبيق تعاليم القدماء على الأوضاع والمشاكل التى يعيشون وسطها . وليس من المبالغة أن نعترف بعظم الأثر الذى تركته هذه الدراسات فى الفكر البشرى ، إذ أخذ الناقدون ورجال العلم يدرسون النصوص الأصلية للفلاسفة القدماء — مثل أرسطو — و يهملون الدراسات المدرسية التى قامت على تراجم محرفة مأخوذة عن العربية . وكان على رأس هذه الحركة لورنزو ڤالا فى روما ونابلى وفشينو و بوليتيانو فى فلورنسا [٣]. وقد نشر لورنزو ڤالا مقالا ليثبت تزو ير وثيقة « هبة قسطنطين » التى اعتمد عليها البابوات فى العصور الوسطى فى إثبات شرعية سلطانهم العلمانى . وكان ڤالا عندئذ فى خدمة ألفونسو ملك نابلى — خصم البابا اللدود — الأمر الذى شجع ڤالا على الاحتماء به ومهاجمة النظامين الكنسى والديرى [٤]. ولو أن الأمر اقتصر على إيطاليا وحدها، لهان شأن هذا الهجوم ، ولكن الدراسات والعلوم الجديدة التى أتت بها النهضة

---

(1) Idem; p. 615.

(2) Symonds : Renaissance; p.p, 18-19.

(3) P.renne : La Fin du Moyen Age; Tome 2, p.p. 160-168.

(4) Eyre : op cit'; p.p. 607-609.

أخذت تنتشر حينئذ فى بقية بلدان أوربا ، مما جعل لوثر (١٤٨٣ — ١٥٤٦) يتأثر بروح العصر التى أثارها الناقدون ، ويعلن ثورته على الكنيسة ونظمها البالية ، وهى الحركة التى عرفت بالإصلاح الدينى .

النهضة الفنية :

وإذا كانت حركة النهضة قد بدأت بإحياء الدراسات الكلاسيكية على أيدى الإنسانيين الإيطاليين ، فإنها استؤنفت بوساطة الفنانين الذين كشفوا النقاب عن جمال الآثار القديمة وعملوا على محاكاتها فى روحها وتعبيراتها [1]. وبعبارة أخرى فإنه إذا كان الإيطاليون أصحاب الفضل الأول فى نشأة الأدب الحديث فإنهم يستطيعون أن يفخروا أيضاً — وعلى مقياس أعظم — بأنهم مبتكرو الفن الحديث ، وبصفة خاصة فنى التصوير والنحت . ذلك أن فن العمارة كان الجانب الفنى الوحيد الذى لم يصبه انهيار فى العصور الوسطى والذى استطاع أهال شمال أوربا أن يبذوا أهالى إيطاليا فيه . أما فى الرسم والزخرفة من ناحية والنحت من ناحية أخرى ، فإن الإيطاليين احتفظوا بشرف إحيائها جميعاً والنهوض بها إلى مستوى الجمال والكمال ، بعد أن أصبح الجمال غاية لا وسيلة ، يقدس ويحترم لأنه شىء جميل ، لا لأنه يعبر عن مجرد فكرة دينية [2].

أما عن فن التصوير ، فقد كان فى العصور الوسطى مقيداً بقواعد جعلته غير جدير باسم فن . ذلك أن الرسم اقتصر على الأغراض الدينية ، وأصبح مفروضا أن يطابق الروح الدينية فى اتجاهاته ؛ بحيث صارت الزخرفة تخضع لتقاليد معينة ثابتة تحدد موضع الرسم وطريقة معالجته ، بل نوع الألوان التى يجب أن يتقيد بها الرسام فى رسمه . فإذا تغاضى الرسام عن إحدى هذه القواعد أو أهمل اتباعها فى

---

(1) Stephenson : Med. Hist.; p. 585.

(2) Symonds : Renaissance; vol. 3; p p 16-17.

رسمه اعتبر ذلك خروجا عن الدين . وهكذا صارت مذابح الكنائس فى العصور الوسطى لا تكسوها إلا صور جامدة للقديسين أو لمريم العذراء ، مما جعل لها أهمية تقليدية دون أن تتمتع بمستوى فنى معين[١] . حقيقية إن العصور الوسطى خلفت لنا تراثا ضخما من الصور والزخارف والرسومات ، ولكنها لم تخلق فنانين مبرزين ؛ لأن شخصية الفرد — كما سبق أن ذكرنا — اختفت وذابت وسط الجماعة التى اضطر الفرد إلى الارتباط بها . ويمكننا أن ندرك عظم الفارق إذا وازنا بين رسمين أحدهما حديث والآخر يرجع إلى العصور الوسطى . وإلى عصر النهضة يرجع الفضل فى سد هذه الثغرة الواسعة بين العصرين ، إذ أخذ الفرد يتحرر تدريجيا فى ذلك العصر من قيود العصور الوسطى وأغلالها . أما أهم مظاهر هذا التطور فتبدو فى ازدياد تعلق الناس بالطبيعة وجمالها ، وفى تقديرهم لذات الإنسان ، ثم فى ضعف الأثر الدينى فى الفن ، هذا كله زيادة على تقدم الأساليب الفنية ذاتها[٢] . وتتمثل أهم التطورات الفنية التطبيقية فى إدخال التصوير الجصى (Fresco) على الجدران واستكشاف التلوين بالزيت — الذى يرجع الفضل فيه إلى الفلمنكيين — ، واستخدام الألواح النحاسية وحفر الخشب وطبعه ؛ وهى الأمور التى جعلت من المستطاع إخراج كثير من الانتاج الفنى الرائع . على أن أهم تطور شهده الأسلوب الفنى فى عصر النهضة يتمثل فى محاكاة أشكال جميلة مستقاة من الطبيعة ، مع الإعراض عن الصور القديمة التى تتصف بالجمود والرسوخ . وهكذا أصبحت دراسة تشريح الأعضاء وحركاتها المنظورة أشياء لابد منها للرسام ، لأن الانتاج الفنى لم يعد عملية نسخ آلى لقالب معين تفرضه السلطات الكنسية ، وإنما أصبح تعبيراً حراً عن عقلية الفنان وعبقريته[٣] .

---

(1) Idem; vol. 1; p 14.

(2) Cam. Med. Hist.; vol. 8; p. 770 & Symonds : op. cit. vol. 3, p.5.

(3) Symonds : op. cit.; vol. 3; p. 135.



صورة الفرسكو خلق آدم

وترجع بداية النهضة فى فن التصوير إلى القرن الرابع عشر عندما برزت فى هذا الفن مدينتان فى إيطاليا هما فلورنسا وسينا Siena . وأول رسام فلورنسى عظيم هو كيمابو Cimabue الذى عاصره فى مدينة سينا الرسام دوتشيو Duccio[1] .

وعلى الرغم مما نلاحظه على انتاجهما من استمرار الجمود والتقيد فى توزيع الألوان ، إلا أننا نلمس فى هذا الانتاج تناسقا بين أعضاء الجسم وجمالا فى شكل الوجه . ثم كان أن خلف هذين العلمين مجموعه من الفنانين بلغوا غاية الشهرة ، فظهر فى فلورنسا جيوتو Giotte (١٢٦٦ — ١٣٣٦) الذى اشتهر فى ميادين الرسم والنحت والعمارة حتى أنه وضع أساس مدرسة فى فلورنسا سمت بالمستوى الفنى سموا كبيرا . وكان جيوتو أول من أحل الرسم التعبيرى محل صور الأشكال الآدمية الجامدة التى كانت سائدة حتى ذلك الوقت[٢] . و إلى جانب جيوتو ظهر بعض معاصريه من أعلام الرسم والزخرفة أمثال أندريا أوركاجنا Andrea Orcagna ، وأمبروجيو لورنزتى Ambrogio Lorenzetti ، وفرا انجليكو Fra Angelico ، ولو أن الوثائق تذكر الأخير متأخرا زمنيا بعض الوقت عن سابقيه . على أننا يجب أن نشير هنا أيضا — كما قلنا عن دانتى — إلى أن هؤلاء الأعلام ينتمون إلى الصفحة الأخيرة من العصر المنصرم أكثر من ارتباطهم بالصفحة الأولى من العصر الجديد[٣] . ذلك أنهم عبروا فى صورهم وزخارفهم عن نظريات العصور الوسطى فى الديانة والحياة البشرية . وكل ما هنالك هو أنهم أدخلوا على رسومهم تحسينات واسعة فى الطريقة والأسلوب ، مع بقاء هذه الرسوم تمثل كل ما ينتمى إلى العصور الوسطى . والواقع أن هناك ثلاث صور من ذلك العصر تصور العصور الوسطى تصويرا دقيقا ؛ الأولى صورة « انتصار الموت » لأوركاجنا ، وهى تعبر

---

(2) Idem: p. 137

(1) Symonds : op cit.; vol. 3: p.p. 138-143.

(2) Pirenne : La Fin du Moyen Age; Tome 2; p.p. 225-228.

عن الطابع الدينى المتزمت الذى امتازت به العصور الوسطى[١] . والثانية صورة «الـكنيسة المناضلة الظافرة » التى قام برسمها تلاميذ جيوتو فى كنيسة القديسة مريم الجديدة فى فلورنسا ، وهى تبرز تنظيم الـكنيسة بجلاله وهيبته . وأخيرا تأتى صورة « الحـكومة المدنية » من انتاج امبروجيو لورنزتى ، وهى تصور الحياة السياسية العاصفة فى قومون العصور الوسطى[٢] .

فإذا تركنا جيوتو وتلاميذه ، فإننا نرى الجيل التالى من رسامى القرن الخامس عشر يعبر عن النهضة تعبيراً فنياً ناضجاً . وكانت فلورنسا لا تزال تحمل لواء النهضة الفنية ، فظهر فيها ما ساشيو Massaccio الذى تعتبر رسومه الجصيه على جدران كنيسة برانـكاتشى Brancacci خير ما يعبر عن الخطوة الفنية التالية بعد جيوتو . وقد تأثر الفنانون الذين ظهروا بعد ذلك بهذا الإنتاج إلى حد بعيد ، وبخاصة روفائيل الذى أفرد له دراسه خاصة[٣] . ثم خلف ماساشيو عدد كبير من الرسامين البارزين من بينهم فيلبو ليپّى Filippo Lippi وساندرو بوتشيلى Sandro Botticelli ولوقا سجنوريلى Luca Singnorelli وغيرهم[٤] . وربما كان الأخير أقدرهم جميعا حتى أنه يعتبر بجرأته فى التصوير ودرايته بتشريح الأعضاء وازدرائه لقواعد العصور الوسطى وقيودها ، منافسا لميخائيل أنجيلو .

على أن فلورنسا لم تـكن الميدان الوحيد لهذه الثورة الفنية ، إذ تجلى هذا التطور بوضوح فى غيرها من المدن مثل مدينة بروجيا حيث ظهر بيترو بيروجينو ، ومدينة بادوا حيث ظهر أندريا مانتجنا ، وفى البندقية حيث ظهر جيوفانّى وجنتيل بلينى وفيتور كارباشيو . والواقع أن هذه المجموعة من الفنانين هى التى مهدت الطريق أمام أعلام القرن السادس عشر ، مثل ليوناردو دافينشى ، وميخائيل

(1) Symonds : op. cit.; vol. 3; p. 146.

(2) Pirenne : La Fin du Moyen Age; Tome 1; p.p. 303-304.

(3) Symonds : op. cit.; vol. 3; p.p. 166-170.

(4) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 2; p.p. 225-236.

انجيلو ، وروفائيل ، وأندريا دل سارتو ، وتيدتيان تنطورتو . حقيقة إن هؤلاء الفنانين استمروا يسخرون مواهبهم فى أغراض دينية ؛ ولكنهم عالجوا هذه الموضوعات فى روح إنسانية دنيوية ، فجعلوا الرغبة فى الكمال الفنى هى الأساس ثم يأتى التعبير الدينى على هامشها . هذا فضلا عما أمتاز به انتاج هؤلاء الفنانين الذين يعبرون عن النهضة فى عصر نضجها ،من عدم تحمس نسبى للمثل الأخلاقية ومقدرة فائقة على التحكم فى توزيع الألوان والأصباغ(١) .

ومع ذلك فإن السمو الفنى الذى امتازت به النهضة يبدو فى ميدان النحت أكثر منه فى ميدان التصوير والرسم . وإذا كان الفنانون بوجه عام قد ثاروا فى عصر النهضة ضد تقاليد العصور الوسطى وقيودها ؛ وتحرروا من هذه القيود ليخرجوا إنتاجا أوفر جمالا وأعظم ابتكارا ، فإن النحاتين بوجه خاص تأثروا إلى حد كبير — فى سبيل الوصول إلى هذه الغاية — بالدراسات والنماذج الكلاسيكية(٢) . والسبب فى ظهور الأثر الكلاسيكى فى النحت أقوى منه فى التصوير واضح وجلى ، لأن أعلام التصوير والرسم عند اليونان والرومان عفى عليهم الزمن ودرس إنتاجهم ولم تبق سوى أسماؤهم ، ولذلك لم يتأثر التصوير فى عصر النهضة بالروح الكلاسيكية إلا تأثرا شفويا لعدم وجود نماذج يحاكيها فنانو ذلك العصر . أما فى النحت فكان الحال على العكس ، لأن تماثيل اليونان والرومان ظلت باقية حتى عصر النهضة ؛ وبعض هذه التماثيل بلغت درجة رائعة من الجمال والقرب من الطبيعة مما هيأ نماذج حية ناطقة أمام فنانى النهضة . وهكذا أنجب عصر النهضة مجموعة من النحاتين البارعين الذين بذوا فى إنتاجهم إنتاج اليونان . وأول من يصور لنا هذا العهد الجديد فى تاريخ النحت هو نيقولا البيزى Niccolā da Pisano الذى شاهد أثراً يونانيا جُلب إلى بيزا فأعجب

(1) Symonds : op. cit., vol. 3, p.p. 16-17 & 240.

(2) Lodge : op. cit., p p 529-530.

بجماله وروعته ، ودفعة ذلك إلى دراسة أوضاع الفن اليونانى وأساليبه[١] . ومنذ ذلك الوقت عكف نيقولا على التوفيق بين حب اليونان للجمال و بين تقاليد الفن المسيحى[٢] . ثم جاء بعده فى القرن التالى عدد كبير من النحاتين الذين انتمى معظمهم إلى فلورنسا ، مثل لورنزو غيبرتى Lorenzo Ghiberti الذى نحت أبواب كنيسة فلورنسا ، وهى الأبواب التى قال عنها ميخائيل أنجيلو أنها تستحق أن تكون أبواباً للجنة[٣] . هذا فضلا عن عدد آخر من النحاتين مثل لوقا دلاروبيا ، ودوناتللو ، وأندريا فروشيو وغيرهم ؛ وبعد هؤلاء تأتى مجموعة من أعلام فن النهضة فى النحت وعلى رأسهم بنيفنيتو شلّينى (Benvenuto Cellini) وميخائيل أنجيلو (Michael Angelo). و يعتبر أولهما مثالا لمن ير يد أن يدرس النزعة الفنية الخالصة غير المتأثرة باعتبارات دينية أو خلقيه ، وهى النزعة التى تولدت فى المراحل المتأخرة من النهضة . أما الثانى فكان ضد الأول على خط مستقيم ، لأنه فى حين أعطى شلّينى فى فنه صورة للعصر الذى عاش فيه ، إذا بميخائيل أنجيلو يبرز شخصيته القوية فى إنتاجه الفنى . والواقع إن عبقرية النهضة وعظمتها بلغت ذروتها فى شخص ميخائيل انجيلو[٤] . وهنا يصح أن نشير إلى أن النحت يصح أن يغلب عليه الطابع اللاديني والمظهر الوثنى أكثر مما هو الحال فى التصوير ، لأن جمال الوجه لا بد وأن يتبعه جمال القوام و إبراز محاسنه دون التقيد بالاخلاقيات .

أما فن العمارة فقد شهد هو الآخر تقدماً مستمراً فى عصر النهضة ، وهو تقدم كانت الزعامة فيه لإيطاليا أيضاً . وقد سبق أن أشرنا إلى أن فن العمارة لم ينله انهيار فى العصور الوسطى مثلما حدث بالنسبة للرسم والنحت ، كما أن الأثر

---

(1) Symonds : op. cit., vol. 3, p.p. 77-80.

(2) Pirenne : La Fin du Moyen Age, p.p. 296-297.

(3) Symonds : op. cit., vol. 3, p.p. 92-93.

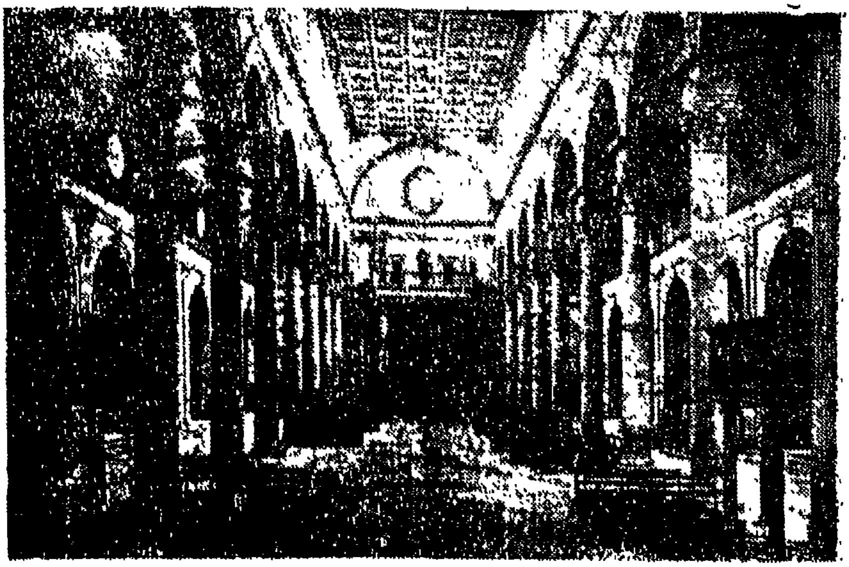
(4) Symonds : op. cit., vol. 3, p.p. 281-282

الكلاسيكى لم ينعدم فى العصور الوسطى لأن الطراز الرومانسكى الذى انتشر فى أوائل تلك العصور قام على أسس وقواعد كلاسيكية[١] . وقد خلف الطراز الرومانسكى فيما وراء الألب الطراز القوطى حيث ظلت الكتدرائيات القوطية تعبر عن الحماسة الدينية للشعوب الجرمانية فى أواخر العصور الوسطى . ولم تلبث إيطاليا أن عرفت الطراز القوطى على أيدى المعماريين الألمان فى أواخر القرن الثالث عشر . على أن الفن القوطى فى إيطاليا اختلفت خصائصه عنه فى شمال أوربا نتيجة لظروف البيئة والمناخ ، فضلا عن أن إيطاليا لم تشأ أن تتنكر تماماً للطابع الكلاسيكى فى فنها[٢] .

ثم كانت النهضة فى فن العمارة نتيجة لإحياء التراث الكلاسيكى مثلما كان الحال فى فن النحت . وتبدو التطورات الأولى التى جاءت بها النهضة فى العمارة فى العودة إلى الأقواس والعقود نصف الدائرية التى امتاز بها الفن الرومانسكى ، ثم بعد ذلك فى استخدام الأسقف المسطحة ، والكرانيش التى تعلو النوافذ والأبواب مثلما كانت عليه المبانى اليونانية والرومانية[٣] . وتعتبر كتدرائية فلورنسا بقبتها العظيمة التى قام فيليبو برونلسكو (Filippo Brunellesco) بإنشائها أعظم نموذج لمبانى الشطر الأولى من عصر النهضة[٤] . ويمكن أن نتتبع هذا التطور العظيم بعد ذلك فى كتدرائية القديس بطرس بروما التى وضع تصميمها برامانت (Bramante) ؛ ثم بعد ذلك فى القصور التى شيدها بلاديو (Palladio) فى فيتشنزا وفيرونا . ويمتاز فن العمارة فى أواخر عصر النهضة بشدة العناية بالتناظر والتناسق والانسجام ، الأمر الذى أدى إلى إضعاف روح الابتكار والتجديد .

---

(1) Lethaby : Med Art, p. 60.
(2) Symonds : op. cit , vol. 3, p.p. 37-41.
(3) Idem, p.p. 49-52.
(4) Lodge : op. cit., p. 531.



كنيسة فلورنسا من الداخل

أثر حركة النهضة :

و بعد ، فإن حركة النهضة — شأنها شأن الحركات العظيمة فى التاريخ — حوت كثيراً من المزايا والمثالب . وكان أهم اتجاهين سادا هذه الحركة — لاسيما فى الشطر الأخير منها — هما إحياء المؤثرات الكلاسيكية فى الأدب والفن ؛ ثم تحرير الفكر والفرد من قيود العصور السابقة وأغلالها . ومن الواضح أن كلا الاتجاهين كانت له عيوبه ومخاطره . فالاتجاه الأول من شأنه أن يجعل المفكرين عبيداً للنماذج الكلاسيكية التى يحاولون محاكاتها ؛ والاتجاه الثانى أدى فى حالات كثيرة إلى الإلحاد والمبالغة فى التحرر إلى حد الفوضى الاجتماعية والدينية . وقد أدى اتجاه النهضة نحو حرية البحث والاستقصاء إلى حركة الإصلاح الدينى ، وهى الحركة التى لم تلبث أن تحولت إلى اتجاه مضاد لروح الحرية التى نشأت فى الأصل عنها . ذلك أن البروتستانتية المتطرفة تعارضت فى حالات كثيرة مع الاتجاهات الإنسانية تعارضاً واضحاً حاداً ، حتى أن سافونا رولا — الذى يعتبر

بمثلا لحركة البيوريتان فى إيطاليا — حرّض أتباعه على أن يحرقوا صورهم وحليهم بل حتى كتبهم[1]. كذلك حرم البيوريتان الإنجليز حب الجمال فى الفن لأنه اتجاه مادى يؤدى إلى فساد الروح. وهكذا لم يلبث البروتستانت — الذين أقاموا حركتهم على أساس حرية الفكر والعبادة — أن اعتنقوا مبادئ تعسفية تستهدف عدم التسامح والاستبداد.

أما عن الآثار الطيبة لحركة النهضة فأهمها تنوير الفكر وانتشار التعليم. ذلك أن ازدهار المعارف الجديدة وإصلاح الكنيسة أدى فى كل بلد إلى إنشاء مدارس وجامعات جديدة، فضلا عن التقدم بالنظم التعليمية فى المعاهد القائمة فعلا. وبفضل انتشار التعليم تحققت أعظم نتائج النهضة وأكثرها استمراراً، وهى إيجاد نوع من الوحدة الخلقية والثقافية بين بلدان غرب أوربا. ولا شك فى أن هذه الوحدة التى قامت على أساس حرية الفكر والضمير الفردى كانت أقوى أثراً وأكثر استمراراً من وحدة قامت فى العصور الوسطى تحت ضغط قيود فرضتها الكنيسة لتضمن سيطرتها على الناس داخل دائرة معينة

---

(١) حسن عثمان : سافونارولا ص ١٣٦ — ١٤١ .

قائمة المراجـــع

التى تواتر ذكرها فى حواشى الجزء الثانى

Adams (G. B.) :
The History of England from the Norman Conquest to the Death of John (1066-1216),
London, 1905.

Bailey (A. E) :
The Arts and Religion.
New-York, 1944.

Ball (W. W. R.) :
A Short Account of the History of Mathematics.
London, 1927.

Barker (E.), Clark (G.), Vaucher (P.) :
The European Inheritance (3 vols.).
Oxford, 1946.

Boissonnade (P.):
Life and Work in Medieval Europe.
London, 1937.

Bowle (J.) :
Western Political Thought.
London, 1948.

Bréhier (E) :
La Philosophie du Moyen Age.
Paris, 1949.

Briggs :
Architecture.
Oxford, 1947.

Browne :
Arabian Medicine.
Cambridge, 1921.

Coulton (G. G.) :
The Medieval Scene.
Cambridge, 1931.

Coulton (G. G.) :
Life in the Middle Ages (4 vols.)
Cambridge, 1928.

Crump (C.G.), Jacob. (E. F.) :
The Legacy of the Middle Ages.
Oxford, 1926.

Dampier (W. C.) :
A History of Science and its Relation with Philosophy and Religion.
Cambridge, 1942.

Davis (H. W. C.) :
Charlemagne.
London, 1929.

Delambre :
Hist. de l'astronomie du Moyen Age.
Paris, 1819.

De Wulf (M.) :
Histoire de Philosophie Medievale (2 vols.)
Louvain, 1924.

Draper :
A Hist. of Intellectual Development of Europe (2vols).
London, 1864.

Evans (J.) :
La Civilisation En France au Moyen Age.
Paris 1930.

Eyre (E.) :
European Civilization (vol. 3, The Middle Ages)
London, 1935.

Fliche (A.) :
L'Europe Occidentale du 888 a 1125
(Hist. du Moyen Age, Tome 2.).
Paris, 1930.

Foligno (C.) :
Latin Thought during the Middle Ages.
Oxford, 1926.

Ganshof (F. L.)
Feudalism.
London, 1952.

Gierke (O.) :
Political Theories of the Middle Ages.
Cambridge, 1927.

Gilson (E.) :
La Philosophie au Moyen Age.
Paris, 1947.

Giuzot (M.) :
Histoire de la Civilisation en France
Paris, 1868.

Harvey. (J.) :
The Gothic World.
London, 1950

Haskins (C. H.) :
The Rise of Universities.
New-York, 1923.

Haskins (C. H.) :
Studies in Mediaeval Culture,
Oxford, 1929.

Haskins (C. H.) :
The Renaissance of the Twelfth Century.
Cambridge, 1928.

Hearnshaw (F. J. C.) :
Medieval Contributions to Modern Civilisation.
London, 1921.

Hearnshaw (F. J. C.) :
The Social and Political Ideas of Some Great Mediaeval Thinkers
London, 1921.

Hearnshaw (F. J. C.) :
Some Great Political Idealists of the Christian Era.
London, 1937.

Heaton, (H.) :
Economic History of Europe
New-York, 1948.

Howell-Smith (A. D.) :
Thou Art Peter.
A History of Roman Catholic Doctorine and Practice.
London, 1950.

Jhon R. Williams
The Cathedral School of Reims in the Eleventh Century.
[Speculum-A journal of Mediaeval Studies, vol. XXIX, 1954.]

Kantorowicz (E.) :
Frederick the Second,
London, 1931.

Lanson (G.) :
Histoire de la Litterature Française.
Paris, 1916.

Lavisse (E.) :
Histoire de France.
Paris, 1911.

Lethaby (W.R.) :
Medieval Art.
London, 1949.

Lodge (R.) :
The Close of the Middle Ages,
London, 1927,

Mâle (E.) :
Religious Art.
New York, 1949,

Màle (E,) :
Histoire Generale du l'Art (2 vols,).
Paris, 1949.

Morey (C. R.) :
Mediaval Art.
New York, 1942.

Painter (S.) :
A History of the Middle Ages.
New York, 1954.

Painter (S.) :
Mediaeval Society.
New-York, 1955.

Paris (G.) :
Esquisse Historique de la Litterature Fancaise au Moyen Age.
Paris, 1907.

Pirenne (H) :
Medieval Cities.
Princeton, 1939,

Pirenne (H.) :
Economic and Social History of Medieval Europe.
London, 1947.

Pirenne (H.), Cohen (G), Focillon (H.):
La Civilisaton Occidentale au Moyen Age du VI au Milieu du XV Siecle,
Paris, 1933,

Pirenne (H.), Renaudet (A.), Perroy (E.), Handelsman (M.); Halphen (L) :
La Fin du Moyen Agé (2 vols),
Paris, 1931.

Poole (R.L,)

Illustrations of the History of Medieval Thought and Learning.
London, 1920.

Rambaud (A.) :

Histoire de la Russie depuis les Origines jusqu'a l'année 1877.
Paris, 1877,

Rashdall (H.) :

The Universities of Europe in the Middle Ages, (3 vols.).
Oxford, 1951.

Renouard (Y,) :

Histoire Ecclesiastique du Moyen Age.
(Revue Historique; T,CCV; 1951 & T. CC VII 1952).

Simpson (F, M.) :

A History of Architectural Development (3 vols.)
Aberdeen, 1939.

Singer (C.) :

From Mogic to Seience,
London, 1928,

Stephenson (C) :

Mediaeval History.
New York, 1942.

Stephenson (C.) :

Mediaeval Feudalism.
New York, 1942.

Stubbs :

Seventeen Lectures on the Study of Med. and Modern History
Oxford, 1900.

Symonds (J, A,) :

Renaissance in Italy (7 vols.)
London 1928.

Symonds (J. A.) :

Wine, Women and Songs.
London 1931.

Taylor (H. O.) :

The Mediaeval Mind (2 vols).
London, 1930.

Thompson (J W.) :

The Middle Ages (2 vols.).
London, 1931.

Thorndike (L.) :
A History of Magic and Experimental Science (2 vols.)
New York 1929.

Ullmann (W.):
The Growth of Papal Government in the Middle Ages.
London, 1955.

Ullmann (W.) :
Medieval Papalism.
London, 1948.

Vasiliev (A. A.) :
Histoire de l'Empire Byzantine (2 vol.)
Paris, 1932.

Vinogradoff (P.) :
Roman Law in Mediaeval Europe,
London, 1909.

Waddell (H.) :
Mediaeval Latin Lyrics.
London, 1942.

Waddell (H.) :
Poetry in the Dark Ages.
Glasgow, 1948.

Waddell (H.) :
The Wandering Scholars.
London, 1930.

Workman (H B.) :
The Evolution of the Monastic Ideal.
London, 1927.

The Cambridge Medieval History (8 vols.)
Cambridge, 1936.

The Cambridge Modern History (vol. 1).
Cambridge, 1907.

* * *

برتراند رسل :

تاريخ الفلسفة الغربية (الكتاب الثانى) ترجمه إلى العربية
الدكتور زكى نجيب محمود (القاهرة ١٩٥٦) .

حسن عثمان :

سافونا رولا

(القاهرة ١٩٤٧) .

سعيد عبد الفتاح عاشور :
أوربا العصور الوسطى — الجزء الأول (القاهرة ١٩٥٨) .

سعيد عبد الفتاح عاشور :
الجامعات الأوربية فى العصور الوسطى (القاهرة ١٩٥٩) .

محمد مصطفى زيادة :
الإقطاع والعصور الوسطى بغرب أوربا (القاهرة ١٩٥٨) .

يوسف كرم :
تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط (القاهرة ١٩٤٦) .

فهرس الموضوعات

صفحة

فهرس الصور والرسوم

تصويبات الجزء الأول

أفلتت عند مراجعة تجارب الجزء الأول من هذا الكتاب أثناء الطبع بضعة أخطاء ، يمكن لقارئ التاريخ تداركها في سهولة . وحسبي أن أشير إلى أهمها :

الصفحة	السطر	الصيغة المراد إثباتها
٨	١٦	أسرة تيودور
٢٩	٦	بعد أن أدى
٧٠	١٥	الوجهة القانونية
٧٤	١٦	تحقيقه بين الرومان الأثناسيوسيين
١٠٦	٨	تسع سنوات
١٠٩	١٩	كما صد سنة ٧٤٨
١٣٦	١٧	أجيلولف سنة ٥٩٨
١٤٢	٩ــ١٠	اقليم بروفانس (٧٣٦ ـــ ٧٣٧)
١٥٧	١٣	الشرقيين والغربيين .
١٥٨	١	نتج عن جهود جريجورى الأول التقريب
١٦٦	٤	مرتبطا بالملوك وإنما برؤساء البلاط
١٦٦	٢٠	بقيادة عبد الرحمن الغافقي
٢٠٤	٤	ثم لم تلبث
٢٢٤	١	(٩٨٧ ــــ ١١٠٨)
٢٥١	٢٠	ذلك أن فيلب الرابع حرم
٢٥٣	١٧	ثم أخذوا يبسطون
٢٥٨	٣	بعد وفاة شارل الرابع
٢٨٢	٤	حفيد ابنة أوتو الأول
٣٢٧	٢	حزب رودلف من السكسون
٣٦٦	١٧	فيما بينها سنة ١٢٣٢
٤٦٠	٢١	سليح مارسل
٥١٢	١٦	ألفونس التاسع
٦٣٣	١	٧٩٩ ــــ ١٠٣٨ القديس ستفن

الكتاب التالى

للمؤلف

تاريخ الحروب الصليبية

* دراسة علمية عميقة تعتمد على مجموعة ضخمة من الحوليات والوثائق والمراجع المعاصرة ، شرقية وغربية .

* تتناول تاريخ الفكرة الصليبية وتطورها وأدوارها حتى نهاية العصور الوسطى .

* عدد كبير من الملاحق والخرائط والجداول التاريخية .